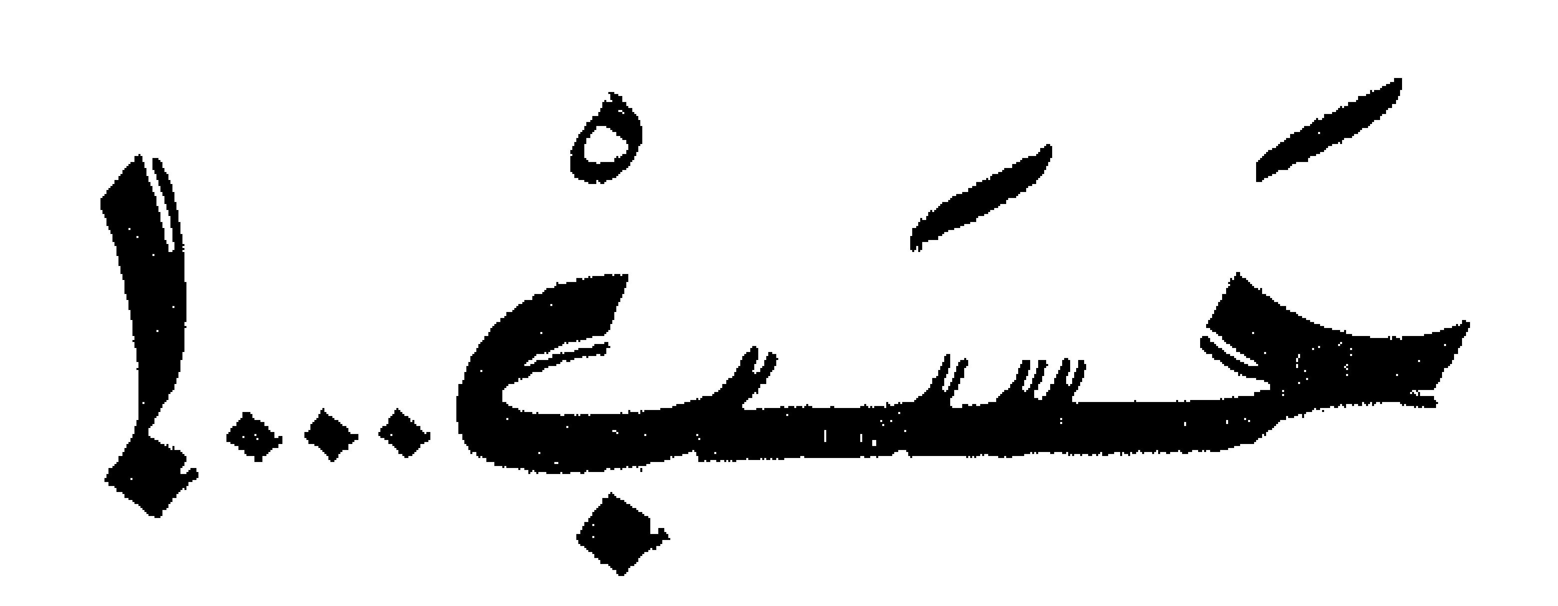


عبدالرحمن الهايل

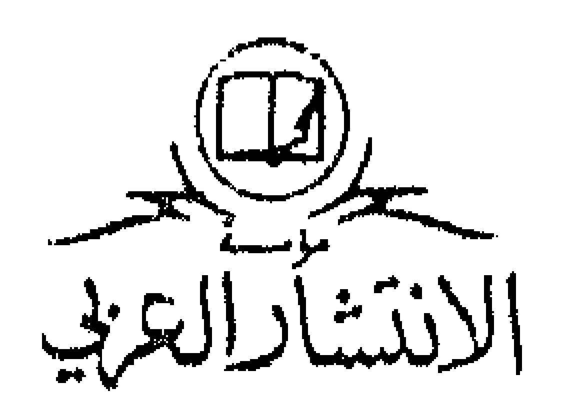




مطبوعات نادي الباحة الأدبي

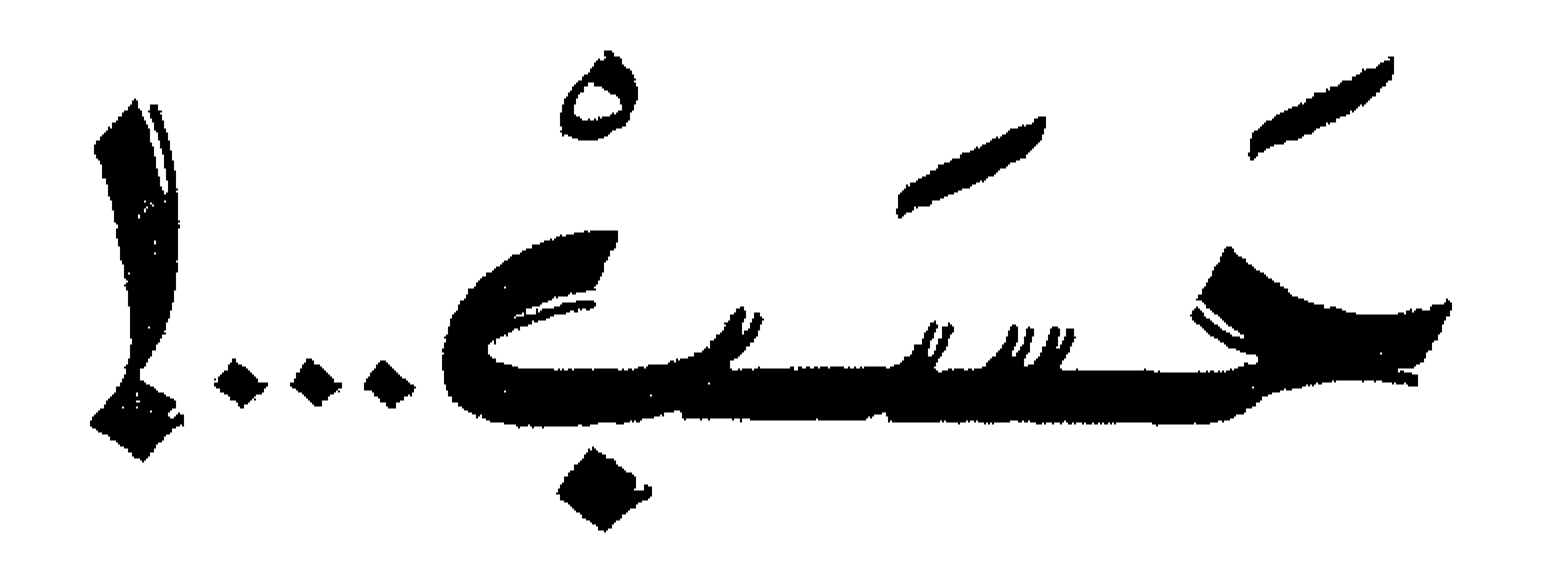


عبدالرحمن الهايل





عبدالرحمن الهايل





النادي الأدبي في منطقة الباحة
المملكة العربية السعودية
www.adbialbaha.com



ص.ب: 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-217-5

الطبعة الأولى 2011

تبدأ قصتنا هذه قبل فترة الطفرة في أواسط التسعينات تقريبًا عندما انتقلت أسرة خلف من هجرتهم الصغيرة التي كانت قابعة وسط الصحراء. كانوا لا يعرفون من الدنيا سوى أربعة أشياء هي الليل والنهار والجهات الأربع وأسماء المكان. لم يكن لهم أي اهتمامات أبعد من ذلك، بل ربما كانوا يعتقدون أن لا أحد يعيش معهم في هذا الكون بأسره سوى أقربائهم!!!

انتقل خلف بأسرته المكونة من زوجته وطفليه من البادية الى المدينة.

كان قد استأجر لهم بيتًا في أحدِ الأحياء الشعبية المتواضعة.

بعد هبوط الظلام، وصلوا إلى مدخل ذلك الحي ساروا مسافة على الأقدام حتى استطاعوا الوصول إلى ذلك البيت، وبمجرد دخولهم شعروا بالاختناق.

أخذت الأم تطالب خلف بتدبير أمر الإنارة، الذي كان مستمتعًا بهذا الموقف، يرضي شيئًا داخله، شيئًا شعر به لأول مرة في حياته وهو... المعرفة.

كان يعرف سرًا تافهًا وهو أين مكان مفتاح الكهرباء لكنه سر عظيم بالنسبة إليهم، لأنهم ببساطة أكثر لا يعرفونه.

بعد أن أشعل الأضواء ظل مستمتعًا أكثر بتلك النظرة في عيون ولديه الفاضحة لشيء من الخوف، وبتلك التهليلات والتكبيرات التي أطلقتها زوجته شرعا.

كان يسير بهذه الأسرة مزهوًا داخل هذا المنزل، فاجأته صرخة من ابنته سارة لتعلن أنها عثرت على طريق السماء بصراخ مذهل، أسرع خلف إلى إسكات هذه الملقوفة...

وحيث إن الإنسان لا يشعر بالأمان في البيئة الجديدة فقد بدأ يشرح لهم كيفية إغلاق الباب وطريقة إقفاله بوضع المزلاج فيه، وغدا الأمر سهلًا عليهم بعد ممارسة الأمر عمليًا في ذلك اليوم، كانوا رائعين في أدائهم، شعر خلف بنوع من الراحة، لولا مقاطعة حجاب له بالتوجه نحو الباب ليعلن له رغبته في قضاء حاجته، أطلق الأب ضحكة غريبة فهو يعي أن أسرته لم تتمتع يومًا بدخول الحمّام وهم بهذا السن...

أقنع نفسه بسهولة تعليمهما لأنهما كبيران. لذلك دخل معهما الحمّام وبيّن لهما طريقة الدخول والجلوس على المرحاض وما عليهما فعله بعد ذلك، ثم خرج ليقضي حجاب حاجته.

في اليوم الثاني استيقظ الولدان متأخرين على

ضحكات الأم المسكينة فقد كانت مع أبيهما في المطبخ يعلّمها طريقة استخدام ذلك الصندوق السحري المسمى بالفرن.

أخذ الولدان ينظران إلى أمهما وهي تعدّ لهما الفطور، كانا مندهشين لتلك النار التي تشتعل بدون حطب أو فحم أو أوراق!! لم يصدقا تحذيرات أمهما وأبيهما إلا بعد أن شعرا بحواسهما بحرارة النار.

مرت الأيام وأخذ كل شيء يفقد بريقه في عيونهما حتى أصبحت الحياة بالنسبة إليهما مجرد حياة داخل زنزانة، لم يكن لهما إلا مساحة السطح وما يستطيعان أن يشاهداه من السماء، أما رؤية الأرض من السطح فهي محرمة عليهما حتى لا يقتربا من جدار السطح فيسقطا أو تمتد أنظارهما فيكشفا الجيران أو... أو...

اشتاق الولدان إلى أبناء أقاربهما واشتاقت الأم إلى تلك الفيافي والقفار، إلى حياتها التي نشأت عليها، اشتاقوا إلى رائحة النار واشتاقوا إلى رائحة نسيم الصباح، إلى النوم تحت النجوم، كانوا مشتاقين إلى كل شيء هناك، مرت فترة من الزمن كانت قصيرة في عمر المدينة لكنها طويلة جدًا بالنسبة إلى هذه الأسرة المسجونة!!!!

ذات يوم ودون سابق إنذار قرر الأب التخلي عن قيوده التي فرضها على طفليه بعد أن رأى شدة الوحدة والألم في عيونهما، بعد أن أشترط عليهما أن يلعبا أمام

الباب ولا يبتعدا عنه مهما كانت الأسباب، كانت فرحتهما كبيرة فهما أخيرًا سوف يريان الأرض ويلمسان التراب، سوف يريان جزءًا جديدًا من هذا البيت سوف يريانه من الخارج،انطلق الولدان لكن الأمر لم يطل فما هي إلا لحظات حتى أعادتهما أمهما لتلبسهما بعض الملابس الأنيقة، وضعت على رأس ابنتها سارة الشيلة وناولت ابنها طاقية مصنوعة يدويًا يتدلى منها عدد من حبات الخرز، التي كانت تمتلك الأم منها الكثير فهي تزين بها معصمها وأطراف غشوتها، ليخرجا بعدها مسرعين فرحين.

وسرعان ما عادت سارة باكية خائفة فقد كان زيهما لافتًا للأنظار مما دعا الصبية إلى التجمهر حولهما وإطلاق النكات الساخرة.

كان حجاب أكثر شجاعة من أخته، فقد نزع تلك الطاقية المغولية خارج المنزل وأخذ يدور به بين الأطفال ويلبسهم إياها،حتى وصل إلى من يساويه في الجرأة، إنه أسعد الذي ما أن استقرت الطاقية على رأسه حتى وضع يديه عليها وأطلق ساقيه للرياح هاربًا تجاه منزله المجاور لمنزل حجاب.

تحركت غريزة التملك لدى حجاب واندفع خلف أسعد لاعنًا وشاتمًا ومتوعّدًا، لم يتوقف الاثنان إلا بعد سماع صوت ناوٍ لهما.

هنا انكمش أسعد، كان انكماشه غريبًا على حجاب

الذي لم يتوقع منه هذا الاستسلام بعد هذا الهرب، فعرف بسجيته أن هذا الصوت الناهي يملك قوة جبارة أو قهرية لهذا المتمرد، فأطلق ساقيه للرياح ولم يتوقف إلا داخل منزله بجوار أبيه.

لم يكن ذلك الصوت سوى صوت خالد والد أسعد فقد استيقظ من قيلولته التي تساوي الدنيا بما فيها.

سمع حجاب بعض الصرخات من أسعد أثناء هربه إلى منزله، مرت دقائق وحجاب بجانب والده الذي لم يتنبه إلى فقدان طاقية ابنه إلا متأخرًا، والذي لم يكن ليدركها لولا سؤال والدته عنها.

وقبل أن يتكلم أو يجيب بأي كلمة فوجئ الجميع بقرع على الباب بقوة... وقف خلف متثاقلاً وانطلق ليفتح الباب ليجد خلفه أحد أقران ابنه مُحمَّر العينين مبلل الخدين قاذفًا بتلك الطاقية إلى صدر خلف...الذي شعر باستغراب لذلك الموقف مما دفعه إلى محاولة الإمساك به، وفوجئ خلف بشخص يلقي عليه السلام من الباب المجاور لداره متقدمًا نحوه مصافحًا ومعرفًا بنفسه قائلًا: خالد . . . جارك.

انطلق خلف بالترحيب، وشعر بشيء غريب في هذا الجار الذي يقابله لأول مرة ويعتذر عن تصرفات ابنه تجاه حجاب وعن الفزع الذي سببه له... بهرت هذه التصرفات خلف لكنها لم تجعله يتقبل هذا الرجل الذي

لم يقدم له دعوة رسمية لزيارة بيته، حتى لم يتواضع ويقبل الدخول إلى داره.

بدأت الحيرة لدى خلف تكبر حيال هذا الجار... قضى ليلته تلك يفكر في هذا الجار الغريب ولماذا حتى لم يسأل عن اسمه أو أصله... لماذا اكتفى بالاعتذار فقط؟

في اليوم التالي سمع طرقًا على الباب، فانطلق معتقدًا أن الطارق جاره خالد لكنه فوجئ بابنه أسعد الذي سلم عليه وطلب منه السماح بالدخول، اندفع أسعد عبر ذلك الممر باحثًا بعينيه في كل زوايا ذلك المنزل حتى عثر عليها وعرفها فقال لها: يا خاله أمي تسلّم عليك وتبغي تجي تزورك إذا ما عندك مانع...؟!

تبادلت شرعا وخلف بعض النظرات، وقبل أن تنطق بأي كلمة لمحت في عيني خلف نظرة الموافقة فأجابت عندئذ شرعا بالترحيب .

فاجأها خلف بكلامه قائلًا: ـ لماذا لم يسألني أنا؟!

جاءت الجارة وانصرفت... كان خلف يتمنى أن تطول زيارتها لأنها أحضرت معها أسعد وحنان اللذين لعبا مع ولديه بكل براءة.

بعد رحيلهم جلس خلف أمام شرعا ليسألها بلهفة: هاه وش العلوم؟!!

فانفجرت بغضب قائلة: اللي ما تستحي جايه ترحبي في أقصى بيتي وراهم ما عزمونا يومهم يحبون التراحيب.

بدا خلف متنفسًا الصعداء لمقارنته السريعة بين خالد وزوجته...

استدرك خلف قائلًا: ما قلتي لي وشي العلوم؟!!

أجابته قائلة: والله المرة حيه؟!! بشوشة؟

لكن ما أدري ما أدري؟! ما أعجبتني؟!!

ما غير تنادي على عيالها وتقلب عيونها فيهم!!

وقعدت تتعذر من حجاب علشان طاقيته، وكل ما انشدها عن اسمها تقول أم أ سعد أم حنان.

بينما عاش الولدان تلك الليلة سعادة لا توصف لسماعهما الدعوة التي وجهتها الجارة إليهما باللعب مع طفليها في أي وقت... هذه الفرحة لم تكن خافية على الوالدين اللذين كانا يدركان مدى معاناة ابنيهما من هذه الزنزانة والعزلة عن العالم.

بعد يومين طرق أسعد وأخته الباب وهما يحملان قدرًا متوسطة الحجم بها بعض الجريش... وما أن فتح الباب حتى اندفعا إلى غرفة الجلوس... وبدون سلام صاح أسعد وحنان: خاله خاله، وكأنهما يتسابقان إلى تبشيرها بالعثور على ميؤوس منه أمي تقول تعالي عندنا اليوم...!!!

قالا هذه الكلمات حتى قبل أن يناولاها القدر الصغيرة ويقولا لها: أمي أرسلتها إليكم.

«كم هي جميلة المشاركة في الأشياء البسيطة».

أطلقت شرعا زفرة قوية وأردفت قائلة: اصبرا حتى أعطيكما القدر.

كانت زفرتها حنينًا إلى صويحباتها وجاراتها في تلك الصحراء.

خرج أسعد وحنان وتركا خلفهما هذه الأسرة الصغيرة بين من تكابد الحسرات ومن يبني الآمال، كانت ابتسامات حجاب وسارة معلنة مكشوفة، كانت الخيالات والرؤى الجميلة تقفز من عيونهما... حاولت شرعا كبح جماح فرحة الطفلين وذكرتهما بأن أباهما لم يعد بعد من سوق الغنم ليسمح لهما بزيارة الجيران، لكن فرحة الطفلين كانت أكبر من أن يحتويها هذا المنزل، لذلك كان اندفاعهما في كل اتجاه بحثًا عن أي جزء للنفاذ منه وإعلان هذه الفرحة لكل الكون، مما دفعهما إلى التوجه إلى السطح،كل هذا وشرعا غارقة في ذكرياتها مع صويحباتها لم يقطع عليها تلك اللحظات الجميلة غير صرخة عالية زلزلت كل كيانها عندما تناهى صوت حجاب مناديًا: الحقي يا شرعا أختي ماتت!!! تلك الكلمات القاسية أقعدت شرعا عن كل شيء فشعرت بعجزها الكامل...

قابلت حجاب في ذلك الممر، لكن لم يسأل أحدهما الآخر، كلاهما كان مندفعًا في اتجاه، شرعا تريد أن تعرف ما حدث وحجاب يحاول أن يتدارك ما حدث...

سمع حجاب صرخة مدوية من شرعا عرف أنها رأت أخته وهي غارقة في دمائها أسفل ذلك الدرج، لأول مرة

يندفع حجاب نحو ذلك المكان المحرم عليه لوجود الفرن فيه... ليأخذ من فوقه إحدى القدور الفارغة ويملأها بالماء وراح يصب الماء على رأس أخته علها تفيق لكنها لم تتحرك. هنا علا صراخ الاثنين، أخذا بالندب والنحيب اللذين قطعهما صوت جارهما خالد الذي لم يكن يجهله حجاب، فأسرع فاتحًا له الباب مبادرًا إياه بالصراخ وكأنه يبرر له السبب قائلًا: أختي ماتت، قالها بحرقة مريرة وهو يتهاوى بجوار الباب مما لم يترك لخالد أي بديل غير اقتحام البيت، مندفعًا نحو ذلك النحيب المتقطع من داخل الدار. وجدها ملقاة هناك على ابنتها... دفعها واقترب من تلك الطفلة التي كان يعرفها جيدًا قبل أن يراها... لقد كانت أنشودة في فم ابنته حنان،التي دخلت في اللحظة نفسها وهي تبكي لقد حضرت مع أمها بعد أن سمعتا ذلك الصراخ.

أبعد طفلته وتأمل سارة قليلًا...

كانت شرعا جالسة تسكب دموعها حاسرة الرأس والوجه أمام خالد وزوجته... ذلك الرأس الذي لم يره زوجها خلف منذ أن تزوجها، لم تكن مكترثة لشيء بل كانت تراقب خالد وهو يقلب ابنتها بين يديه بألم ويناديها: سارة.. سارة... كانت العيون تنظر إلى هذه الجثة الممددة بين يديه. كانوا مستعدين ليطلقوا صرخة مدوية لولا سماعهم لذلك الأنين الذي صدر عنها فتقدمت الأم مذهولة وأخذت ابنتها لتناديها وتتفحص مصدر هذه الدماء، كانت

الإصابة في الرأس والشجة كبيرة، طلبت شرعا بعض البن لتسد به مكان الجرح فأحضرته الجارة مريم بعد بحث في مطبخ شرعا وعندما عادت كان خالد قد حملها وأمر زوجته مريم بالبقاء مع شرعا حتى يعود .

حاولت شرعا اللحاق به واسترداد ابنتها لكن مريم منعتها فهي تعرف أن تعليمات زوجها هي أوامر واجبة التنفيذ.

كان يعلم أن تصرفه هو قمة القسوة على هذه الأم...

خرج بها من المنزل دون أن يتبعه أحد ومضى إلى آخر الشارع، بينما كان حجاب وأسعد وحنان يراقبون قدمي سارة ويديها المتدليتين وذلك البياض الذي اختلط بالحمرة... يراقبون هذا الجبروت المتمثل في شخص خالد.

لم يعلموا إلى أين مضى بها ولماذا؟!

أكثر ما أثار حزنهم هي شرعا عندما تذكرت أول ليلة لهم في هذا البيت، كيف كان استغراب ابنتها من الدرج تذكرت سذاجتها لعدم فهم الإشارة تلك الليلة عندما مر بخاطر ابنتها أن طريق السماء من بيتهم، تُرى هل روح ابنتها اختارت الصعود إلى السماء؟...

كان هذا الخاطر هو كل ما مر بها، تذكرته وهي تندفع في البكاء بحرقة، كانت طريقة بكائها تدفع الجميع إلى البكاء الذي لم يوقفه سوى صوت خلف الذي أذهله ذلك المنظر الكئيب...

لم ينتبه إلى غياب ابنته، بل اعتقد أنّ جارتهم مريم لاجئة إليهم مع طفليها من زوجها خالد.

قال بود وترحاب ممزوج بالاستفسار: عسى خير يا أم أسعد؟؟

صرخت شرعا بصوت أجش: سارة يا خلف... سارة ماتت... سقط الأب من هول الكلمات...

وتدخلت مريم بنبرة قوية قائلة: اذكروا الله يا مسلمين البنت إن شاء الله بخير.

وتساءل خلف بمرارة: أين هي؟؟

أخبروه بأن خالد قد خرج بها فسأل إلى أين؟ كانت الإجابة بعدم معرفتهم. شعر خلف بمرارة تلك الصرخة التي أطلقتها له شرعا... كان أكثر ما يميز خلف أنه ذو عاطفة جياشة وسذاجة غريبة...خرج إلى الشارع سار فيه قليلًا ثم عاد وفي ذهنه آلاف التساؤلات... كيف ماتت؟... هل لعبت بالفرن؟... أم هل هي الكهرباء؟... أم ضربها أخوها؟ أسئلة كثيرة تدافعت في ذهنه وكل سؤال يولد ألف سؤال وكلها في آخر المشوار تعود باللعن على رأس خالد هذا الجار الملقوف الأبله... الأرعن دخل مناديًا مريم وسألها ما الذي حدث فأخبرته بأن البنت سقطت من الدرج على رأسها... كانت إجابتها سريعة... مما أثار شكه فاندفع ممسكًا بيد أسعد وأعاد السؤال فكانت الإجابة نفسها... قام من مكانه ليرى كيف سقطت ابنته، كان يحبها ويحب أخاها بكل

جنون... كان يعتقد أن سارة أقوى من السقوط من على الدرج، كان يرى فيها مع أخيها قوة يتحدى بها العالم رغم صغرهما، لم يستطع أن يصدق أنها سقطت من الدرج لكن منظر الدم المتخثر على أرضية المكان وحافة الدرج جعله أمام حقيقة مفجعة... صرخ نادى باسمها بعد أن رأى الدم المتخثر أخذ يقبله ويبكي وينادي: سارة، سارة، يا حبيبتي... ضيعتك وأنا أبوك... كان يعاقب نفسه على خطأ من أخطاء براءة الطفولة... خطأ ليس له فيه أي دخل... لكن حبه هو الذي جعله يعتقد بأنه هو الذي صنع هذا القدر لهذه المسكينة بإحضارها من البادية إلى الرياض... ذلك الإحضار الذي كان وحده يعلم سببه... وهو رغبته في إنقاذهم من بؤس البداوة، رغبته في إنقاذهم من مصيرهم الذي عاشه قبلهم يوم كان في مثل سنهم في تلك المقبرة مقبرة الصحراء.

لم يكن يعرف كثيرًا عن المدينة، لكنه عرف كل شيء عن الصحراء لذلك قرر الهرب منها... كانت هذه التساؤلات وتلك الدماء المتخثرة سياطًا تجلده بكل قسوة، لم يكن يملك إلا ذلك الصراخ وتعفير وجهه بتلك الدماء حتى أن خدّيه وجبينه تعرضا لبعض الجروح نتيجة لاحتكاكهما بتلك الأرض الخشنة غير المستوية، تدخلت مريم ووقفت عند رأسه، كانت تعتقد أن كبرياء رجولته ستدفعه للتوقف أمامها، لكنه واصل حزنه وانفعالاته... اعتقدت للحظة أنه قد جن، انحنت لترفعه

فكان أكثر صلابة... تحول بين يديها إلى طفل صغير يبكي بكل حرقة وألم.

أخذ صوته يعلو حتى غاب عن الوعي، لحظتئذ فقط وبمساعدة شرعا والأولاد استطاعوا سحبه، رشوا عليه قليلًا من الماء حتى أفاق.

وراحت مريم تطمئنهم بثقة وقوة وتبشّرهم بسلامة سارة.... كاد خلف أن يهدأ لولا أنه رأى تلك القبعة الخاصة بسارة، لم ينهض ليأخذها بل أمال جسده كله ليلتقطها بيده ويقربها من وجهه ويدخل في نوبة بكاء جديدة... تدخل حجاب ونزعها من يد أبيه بكل قوة وهو يصرخ قائلًا: سارة لم تمت والله ما ماتت!!

كانت هذه اليمين هي صرخة رجاء من حجاب إلى أبيه بأن يطرد هذا الشبح وهذه المخاوف المتعلقة بموت سارة... هكذا فهمها خلف والآخرون... فما كان منه إلا أن جلس ممددًا رجليه وحاضنًا ابنه إلى صدره وهو يواسيه ويؤكد أن سارة بخير ولم تمت... وأن خالد ذهب بها إلى المستشفى...نطق بها صدفة أو عمدًا لم يعد يعرف... قام مسرعًا، غسل وجهه وأصلح هندامه وانطلق خارجًا بدون أن يتكلم،خرج لا يعرف هل سار على قدميه أو ركب سيارة حتى وصل إلى المستشفى، هذا المكان الذي يدخله لأول مرة... وصل إلى البوابة ودخل كان الوقت قد اقترب من الساعة التاسعة مساءً «متأخر» تبع بعض الناس المسرعين في مشيتهم حتى مدخل الطوارئ حينما أوقفه

بعض ممرضي المستشفى لكنه رفض الوقوف، مما دعا رجل الأمن للتدخل فسأله ماذا تريد؟ فقال: بنتي هنا... قال له: وقت الزيارة قد انتهى..! قال خلف بصوت حاد... البنت ما أدري حية ولا ميتة وأنت تقول زيارة؟!!(حلال أبوك تمنعني عنه)... اجتمعت كوكبة من الناس لفضّ هذا الاشتباك، حضر المسؤول عن مناوبة الطوارئ وبعد أن فهم الموضوع برمته أخذه بيده وأدخله إلى داخل القسم وأخرج دفتر تسجيل الحالات... سأله عن اسم الشخص الذي أحضر ابنته، قال له بسرعة: خالد.. قال: خالد إيش؟. قال: خالد وبس ما اعرف إلا هذا.. كانت إجابة المسؤول باردة جدًا حيال هذه السذاجة.. أسف ما أقدر أساعدك، بلا مبالاة أغلق الدفتر، فانفجرت عاطفة خلف الأبوية وأخذ بالصراخ والتهديد والتوعد، طلب المدير المناوب من رجال الأمن إخراجه من المستشفى!!

حاول الحاضرون أن يهدئوا خلف لكن صوته كان يزداد علوًا، كان ينادي ابنته بدون شعور منه، لم يوقف صراخه غير سماعه خالد ينادي بصوت أعلى: يا خلف يابو حجاب تعال.. تعال. كان صوت خالد أشبه بمطرقة القاضي في محكمة أزال به خالد التوتر القائم وأعاد الأمر إلى وضعه الطبيعي.

وتساءل خلف بلهفة: وين البنت؟... قال خالد: اذكر الله يا رجّال. قال أقول البنت وين؟ وتناهت إلى مسمعيه في تلك اللحظة كلمة سحرية كانت أليفة لسمعه

وقلبه، جاء صوت سارة «يبه» صادرًا من خلف ستارة سرعان ما نزعها بلهفة ليرى ابنته على السرير، راحت تبتسم له رغم إعيائها...

أسرع وقبلها أراد أن يحضنها ويحملها لولا تدخل خالد مشيرًا إلى تلك الإبرة المغروزة في وريدها، صرخ خلف وهو يرى هذا الموقف فهو لأول مرة يرى هذه الإبرة الموصولة بذلك الكيس عبر ذلك الأنبوب، أوضح له خالد الأمر لكنه كان يقرأ في عيني خلف عدم التصديق أو الاقتناع، فما كان منه إلا أن نادى أحد الأطباء الذين أشرفوا على حالة سارة ليقنعه، تقدم الدكتور من خلف وبادره قائلًا: أبو سارة قال نعم قال له هي طيبة؟ ما عليها الحمد لله.... أراد خلف الاستفسار أكثر لكن.......

فجأة دخل المدير المناوب ورجل أمن، اكتفى المدير بالإشارة إلى خلف وقال هذا...؟! وانصرف. وضع رجل الأمن يده على عضد خلف وقال له: هيا... امش... تدخل خالد بالسؤال عن الأمر...؟! أجاب رجل الأمن:العسكري مع الضابط بالخارج ينتظران بسرعة...؟! حاول خالد أن يهدىء الموقف لكن صلابة رجل الأمن كانت أقوى... خرج خالد إلى الضابط حاول أن يوضح له المسألة لكن لم يفلح... أخبره الضابط أن خلف اعتدى على موظف أثناء تأدية عمله وهدده فيجب أن نوقفه ونحيله إلى المحكمة...

كانت هذه الكلمات لوحدها كفيلة بزرع الرعب في نفس خالد... فما بالك بخلف الساذج عندما همّ خالد

بإعادة المحاولة... أسرع الضابط وخرج مدعيًا الانفعال، كان يتعمد الاستعراض أكثر من حرصه على البحث عن خلف، قصد المدير المناوب، كانت أعين الناس تتابعه بكل تركيز وخالد يسير خلفه راجيًا منه الانتظار، خاطب المدير المناوب: وريني هذا العاصي على العسكري...؟! سار معه المدير المناوب، كان خلف بجانب السرير ورجل الأمن ما زال واضعًا يده على عضد خلف، بل إن صوته أصبح أعلى بعد أن لمح الضابط...

وصل الضابط قائلًا: ليش ما تمشي مع العسكري اسحبه يا عسكري... تساءل خلف برجاء: ليش يسحبني؟!!!

أجابه الضابط: لاعتدائك على الموظف.

تدخل خالد مخاطبًا الضابط: يا طويل العمر الموضوع بسيط وما يحتاج له شيء؟! ساعة شيطان؟!!

لكن صلف ذلك الضابط لم يوقفه شيء، حتى تلك النظرة التي كانت في عيني سارة، وتلك الابتسامة المصطنعة المطمئنة من خلف لابنته سارة؟!

شعر خالد بأن رجل الأمن قد لمح تلك النظرة وأشفق عليها مما دفعه للاقتراب من الضابط ومهامسته لكن الضابط كان راغبًا في الاستعراض أكثر، تدخل خالد قبل أن يتكلم الضابط ووجه كلامه للمدير المناوب مباشرة: يا أخي حرام عليكم فجعتوا البنت مسكينة خلاص يا أخي!!

كان خالد يتمتع بسرعة بديهة غريبة... كان يعلم أن تلك النظرة في عيني سارة سوف تزيل أي حقد وتسقط أي حقوق... كان يعرف بأن المدير لو رأى هذه النظرة ولو لمحه لتغير موقفه واعترف بخطئه في التعامل مع خلف... قلب الطاولة على الضابط الذي... أرغى وأزبد مع المدير المناوب، كانت أسارير خلف بدأت بالانشراح لكن الضابط أصرّ على الاستعراض فوجه كلامه إلى المدير المناوب: تتنازل عنه؟ أجابه المدير المناوب بإصرار: أنا الغلطان واطلبه السماح، فأجابه الضابط ما تشوف وجهه كله جروح،انتم ايش اللي صار بينكم بالضبط؟... أبغي أعرف...

كانت الفوضى عارمة مما استدعى حضور مدير المستشفى... كانت سارة تراقب بخوف حتى طلب مدير المستشفى منهم التوجه إلى مكتبه، كانت تظن أن المكتب يعني السجن.

تعالى صراخ سارة المستجدي لهم بأن يتركوا أباها... كانت تشعر بمقدار الحب الذي يحمله لها في قلبه... كانت تشعر بأمان الدنيا كلها بقربه... فكيف لهم أن يحرموها منه...

تجلت تلك العواطف لحظة أن وقفت سارة ممسكة بيد أبيها اليسرى، حيث أشارت إليه وهي تجأر بصوتها تجاه المخرج، كان رجل الأمن قد أمسك بيده اليمنى بقوة وراح يهدده بوضع الكلبشة،إن لم يسر... معه خلف المجموعة. طلب مدير المستشفى من الضابط ترك الرجل

حرًا لكنه أجاب وإذا هرب؟... فما كان من مدير المستشفى إلا أن أعلن مسؤوليته عن هربه، بدأ الضابط يشعر بنوع من ضعف الموقف دفعه إلى إبراز نفسه ثانية متهمًا مدير المستشفى بتعطيل عمله ...

هنا لم يتمالك مدير المستشفى نفسه من الحديث بصوت مرتفع مع ذلك المغرور الذي زاد في طغيانه. أمر مدير المستشفى المدير المناوب بإعادة الطفلة إلى السرير والسماح لوالدها والعسكري بمرافقتها. وسار نحو مكتب المدير المناوب ليطلب من أحد الموظفين الاتصال برقم ناوله إياه وشرح الموقف له وذكر اسمه هو، أخذ الضابط يعد عدته نادى بعضًا من المراجعين وطلب منهم التوقيع على بعض المحاضر التي صاغها بأسلوبه، لكنهم جميعًا زعموا أنهم لم يسمعوا شيئًا نتيجة انشغالهم بأمراضهم...

استدعى الضابط خالد لكنه تشاغل بترتيب سرير سارة مع والدها...

لم يقطع تلك النظرات بين خالد وخلف غير صوت شبيه بالزلزال... صوت صادر نتيجة ارتطام شديد بالأرض، بحثوا عن مصدره،كان ذلك الضابط المغرور يؤدي التحية العسكرية لمدير شرطة المنطقة، بادله التحية بكل أدب، كان مدير المستشفى في مكتبه... وبينما مدير الشرطة متوجه إلى مكتب المدير المناوب للسؤال عنه، كان خروج مدير المستشفى فتبعه بكل هدوء... حتى وصل إليه وناداه بهدوء: أبو حاتم... التفت وتبادل الاثنان التحية، سمع أبو حاتم

مجمل القصة من مدير المستشفى ولكنه يحمل شرفًا إنسانيًا قبل شرف مهنته، انطلق مع مدير المستشفى إلى حيث ترقد سارة ويدأ بمناداتها: يا دلوعة... كيف حالك؟

أجابته بفرحة وبراءة لم تستطع أن تخفيهما... بغيت أموت... انحنى عليها يقبلها وهو يقول سلامتك يا قموره... سألها وش سوى فيك كذا؟ قالت... طحت من الدرج. قال ليش طحتي؟ قالت كنت فرحانه وما أشوف... قال ليه فرحانه؟ قالت كنا بنروح مع أمي عند حنان وأسعد... ضحك الجميع من جرأة هذه الفتاة وطلاقتها في الحديث بينما اغرورقت عينا خالد بالدموع التي جاهد ليخفيها... أيعقل أن هنالك من يحب أبنائي إلى هذا الحد... ثم التفت إلى خلف الذي لم يتخيل يومًا أن يكون في هذا الموقف من الرعاية به وبأبنائه... وبنظرة من أبي حاتم أنزل رجل الأمن يده عن عضد خلف ثم مد يده إليه مصافحًا وهو يقول: الحمد لله على سلامة البنت!!.

وتبادل التحية مع رجل الأمن الذي بجوار خلف وصافح خالد، كان خالد يتمتع بالدبلوماسية فقد استبقه بابتسامه إعجاب وثنّى بعبارات الشكر لمجهوده واهتمامه بالمواطن... رد أبو حاتم بالتواضع المفعم بالحس بالمسؤولية بأن هذا واجبنا، ثم التفت إلى الضابط الذي كان واقفًا في وضع الاستعداد وناداه بالحضور قال ملازم «مازن»، كان هذا اسمه، لم يكد يقترب حتى تحركت كل الخيالات والمخاوف في رأس سارة وأبيها الذي أخذ يقسم

بأنه لم يعتد على أحد، بينما أخذ خالد يشير إليه بأن يصمت حتى يسأل لكن المخاوف كانت أكبر من أن يدرك ما حوله، لقد تحركت كل المخاوف داخله وداخل ابنته التي عادت إلى البكاء والصراخ والتشبث بوالدها بكل قوة... شعر مدير الشرطة ومدير المستشفى وكل المراجعين بمقدار الرعب المزروع في نفس ذلك الرجل البسيط ونفس تلك الطفلة البريئة، كان بكاء الطفلة واستنجادها بأن لا يأخذوا والدها يثير الشعور بالحزن... التفت مدير الشرطة إلى سارة وخاطبها قائلًا:

يا بابا إحنا ما بنأخذ أبوك إحنا بناخذ مازن، كانت تلك الكلمات كافية لأن تهدأ سارة، بعد ذلك طلب من والدها الجلوس على الكرسي القريب من السرير والتفت إلى مدير المستشفى وسأله إذا كان باستطاعة سارة الجلوس في حضن والدها فأجاب بالإيجاب، فانحنى مدير الشرطة وحمل سارة ووضعها في حضن والدها...

ثم التفت إلى خلف وقال له: خلف هديت؟ قال: نعم. قال أخبرني بما صار... سرد القصة بشكل مرتبك ثم التفت إلى خالد وسأله فرد القصة بكل إيجاز ووضوح، ثم التفت إلى المدير المناوب وسأله لم يرو القصة ولكنه اعترف بخطئه فورًا وقدم اعتذاره إلى خلف مباشرة وأخبره بأنه قد أخبر الضابط عن خطئه مسبقًا، وأنه حاول أن ينهي الموضوع لكنه كان مصرًا على أخذ خلف إلى المركز لتوقيفه، وحاول مدير المستشفى أن يتدارك الموقف وينهيه

في مكتبه لكن الضابط وحنقه هما اللذان دعيا مدير المستشفى إلى استدعائك، التفت إلى الملازم مازن وسأله بصوت مسموع هل صحيح هذا يا مازن فأجابه... مراوغًا فنادى: عسكري هل صحيح هذا الكلام؟ فأجاب بأنه صحيح...!!

أشار إلى رجل الأمن بالانصراف ولمازن بالبقاء، ثم وأمام الجمهور أخبره أن الهدف من وجوده هو خدمة المواطن وإشعاره بالأمان وليس الهدف زرع الرعب في نفوس البسطاء، ثم أصدر أمرًا بمباشرة عمله في أحد أقسام إدارة الشرطة التي لا علاقة لها بالجمهور...

كانت نظرات الانتصار واضحة في عيني خالد الذي لولاه لما عرف خلف معنى كل الكلام الذي قيل، تقدم مدير الشرطة واعتذر إلى خلف وإلى الجمهور عن إزعاجهم. أصرّ مدير المستشفى أن يشرب أبو حاتم القهوة في مكتبه مع خلف وخالد، كانت سارة ممسكة بيد مدير الشرطة وعيناها على وجهه محاولة أن تعرف ما الذي يشدها إليه، دخلوا المكتب كانت المقاعد ثلاثة فقط وكانت سارة بجوار أبي حاتم فلما جلست قابلته وهي واقفة، كان يشعر بهذه العيون الفاحصة في وجهه رفعها ووضعها على فخذه وقال: لماذا تنظرين إلي؟ فأجابت ببراءة أنت تشبه أبوي... لم يكن هناك وجه للمقارنة غير الأمن الذي تراه هي في عينيهما. وقبل أن يخرجوا اندفعت سارة بكل براءة الطفولة لتطبع قبلة طويلة على خدّ مدير الشرطة قائلة: يا

حبيبي ليش ما تروح معنا؟ فأخبرها أنه سوف يخرج معهم ساروا حتى وصلوا إلى موقف سيارته وأصرّ على أن يوصلهم إلى منزلهم.

كانت شرعا ومريم مع طفليهما في المنزل غارقين في هواجس ومخاوف لا حدود لها... كان الدور الكبير في هذا الوقت مسندًا إلى مريم التي بذلت جهدًا كبيرًا في إخفاء مخاوفها... وطمأنة الجميع كانت تحاول استدراج الأطفال وإغراءهم باللعب... وهي تعاند وتكابر في إطلاق العنان لنفسها في البكاء خصوصًا عندما بدأت بغسل وإزالة الدماء... لم تكن تعرف شيئًا هل تبكي شفقة على تلك الفتاة؟ أم تبكي رثاء لحالة طفليها؟ لم تر ولم تحسب يومًا أن ترى هذا القدر من الحب بين الإخوة!!!

أو بين الآباء والأبناء كما كانت تراه في أسرة خلف...

عانت كثيرًا خصوصًا مع شرعا لإخراجها من دائرة أحزانها... دائمًا تقاطعها وتقول:

«بنتي بنتي....يا أم أسعد»

خرجت مريم إلى منزلها بصحبة الولدين وعادت بعد لحظات وهي تحمل دجاجة وقليلًا من الأرز وبعض الفاكهة...

دخلت على شرعا واستأذنتها في استخدام المطبخ لإعداد الطعام للأولاد... قامت شرعا مجاملة بأنها هي التي

تعدّ الطعام فهذا واجبها هي... لكن رؤية أسعد وحجاب مع تلك الأغراض أثارها... حرك شيئًا في داخلها... أشعرها بنوع من الإهانة لم تستطع أن تكتمها داخلها، بل توجهت بسرعة إلى مريم «يا أختي» أحد شاكي عليك.... بيتنا ما ناقصه شيء والواجب علينا... ردت عليها مريم بسرعة مقاطعة أدري أدري لكن هذا اللي خاطري فيه... تولت مريم الطبخ واستطاعت انتزاع شرعا والطفلين من هواجس وخواطر الخوف...وأوكلوا الأمر إلى الله...

نام الطفلان بعد العشاء أعدت لهما شرعا الفراش... أما مريم فقد انشغلت بتغسيل الأواني وإعداد الشاي...

شد انتباهها هذا التكامل في هذا المنزل... وشدة الاكتمال حتى في الكماليات رغم سذاجة ساكنيه.

أحضرت الشاي... وبدأ الحديث بين شرعا ومريم...

ابتدأته مريم قائلة: وش مشغلك؟؟

أجابتها شرعا: والله يا أختي اللي مشغلني هو سارة.

مريم: اذكري الله ما دام ما جو إلى الحين فهي طيبة...

شرعا: أنتي ما شفتي البنت يا أختي.....

مرت لحظات صمت كانت مريم مركزة على تلك الكلمة الأخيرة، تلك الكلمة التي سمعتها وأطربتها... حد النشوة «يا أختي».

قاطعتها شرعا: ـ أقول أنت ما شفتي البنت يا أختي.
فأجابت مريم بابتسامة الاستفهام... لكن أنتي وزوجك من وين؟...

استغربت شرعا السؤال: ـ لكنها أجابت بالتفصيل المملوء بالفخر والحماسة عن أصلها ومنطقة سكنها... وإشارة إلى خامسها وقبيلتها هي وزوجها....

وأيام قبيلتها مع القبائل الأخرى وانتصاراتها، كانت تردد كل ما سمعته بكل اجتهاد في استحضار ما لُقّنت... كانت تؤمن به كل الإيمان... فهذا الذي تعرفه... استدركت نفسها شرعا...

بعد طول حديث قائلة وأنتي يا وخيتي؟!!

ظلت مريم سابحة لفترة مع تلك الكلمة الأخيرة لكن دفعها صوت شرعا التي نادتها: يوخيتي ما قلتيلي شي، فأجابت: اسمي مريم وزوجي خالد لنا أصول في إحدى القبائل الحدودية، هاجر خالي أبو خالد وأمي إلى الرياض بعد خلافات عائلية وظلم تعرضا له من أقاربهما وحرمانهما من إرث جدي، ولا نعرف لا أنا ولا خالد أكثر من ذلك!! كانت تتمنى لو أنها تعرف أكثر لتتباهى به أمام شرعا لكن للأسف فإن أخبار أصولهم مقطوعة.

استطردت مريم: زوجي يعمل في إحدى الشركات موظف والحمد لله...

قاطعت شرعا مريم بدافع الغيرة فقد نسيت أن تذكر

لها أي شيء عن خلف... الذي هو أحد أقاربها أما خلف يوخيتي فهو عنده حوش غنم والحمد لله يبيع ويشتري فيها وحنا مبسوطين...

كان الشاي قد انتهى... دخلت الاثنان في إغفاءة لم يوقظ الجميع منها غير بكاء حنان وهي تردد: سارة ارجعي يا سارة...

استيقظ الجميع خائفين... لكن حجاب وأمه لم يتداركا نومهما أو حتى الوقت إلى الآن... كان الأذان يرتفع ولم يعد أحد لا سارة ولا أبوها ولا خالد...

أنات مبتورة أخذت تخرج من عمق الصدور لتشحن الصدور الأخرى والعيون لإرسال الدموع، ارتفع صوت أسعد بالدعاء كان يدعو بطفولية بأن يرد الله إليهم سارة، كان دعاؤه مليئًا جدًا بالخشوع والخوف، كان مليئًا بالثقة والرجاء، كان دعاؤه رغم طفوليته أشدّ وأكثر تضرعًا من دعاء الزاهد العابد....

كان الجميع يؤمن بكل ثقة بهذا الدعاء...

غرق الجميع في لحظات صمت رهيبة...

كان ذلك دافعًا لمريم كي تتأمل طفليها إذ شعرت بأنها تراهما للمرة الأولى...

نعم فهذا أسعد ترى فيه لأول مرة هذه العاطفة الجياشة، وهذه حنان تضع رأسها على صدره ويدُه

تحوطها كانت تذرف الدموع ليس على سارة لكن على ما تراه... كانت تبكي على نفسها... فهي لم تعرف للأخوة معنى ولم تعرف الأبوة إذ مات أبوها قبل أن تولد فرباها خالها، أمها كانت دائمًا مشغولة بالعمل في خدمة البيوت الموسرة التي كانت ترافقها إليها... وخالد كان مع والده الذي زرع فيه كل الحقد بدون قصد منه كان يقول دائمًا عند اجتماعهم في المساء:

حسبنا الله على من ظلمنا وظلمكم... حسبنا الله ونعم الوكيل ذلك الخال الذي استطاع أن يشتري هذا البيت الذي هم فيه يسكنون...

كانت غائبة عن الشعور... لولا أن أعاده إليها تقافز الأطفال وخروجهم من الغرفة مسرعين وشرعا خلفهم. لقد سمعوا صوت الباب... لحقتهم وجدت شرعا تقف على أطراف ذلك الممر ترقب بخلسة وتسمع....

صاح الأطفال جميعًا... سارة جت... سارة جت. لم تتمالك شرعا نفسها من الاندفاع في ذلك الممر لرؤية سارة وأخذها، لم تشعر بنفسها بينما كان خلف منشغلًا بفتح باب المجلس... كانت تشدّها بقوة أشد من قوة خالد تلك التي انتزعها منها، كانت تشدها بعاطفة الأمومة... بعاطفة الحب... بعاطفة الشوق وهي تنادي مريم وتقول: جابوها يا أختي جابوها....

تلك الكلمة التي كانت محرومة منها مريم طوال السنيين وتتمنى أن تسمعها ولو مرة واحدة فقط....

مرة واحدة ولو مجاملة... ها هي تمنح لها بكل صدق... وبلا حدود...

لحقتها مريم وظلت الاثنتان مع الأطفال ينظرون إلى سارة... كانت صامتة، مستمتعة بنظرات الحب والاشتياق، أنستها تلك القبل كل الآلام، الكل يقبلها اليوم...

مدير المستشفى ومدير الشرطة وخالد الكل، والآن زوجة الجيران وأبناؤها...

حتى الأيدي... والأقدام... كانوا يشعرون بانتصار الطفولة والطهارة لكنهم لم يجدوا غير القبل للتعبير. لم يجدوا أي كلمات....

لم يقطع عليهم هذه العواطف غير صوت خلف مناديًا : القهوة....

نهضت شرعا وهي تبشّر بها...

كادت أن تلحقها مريم لولا آهات سمعتها من سارة لتشير إلى تلك الأربطة على الرأس، كانت تعلم أنها نوع من الدلال، نوع من الحرص على استمرار هذا الاهتمام...

أشارت إلى شرعا بالجلوس مع ابنتها....

ونهضت مريم لإعداد القهوة.بينما كان خالد ينادي زوجته وأبناءه للانصراف.

غادر خالد وزوجته مريم التي كانت بكامل حجابها، تقدم خلف شاكرًا لها ولزوجها مرة أخرى صنيعهما....

مؤكدًا أهمّية حضورهما مساءً، قبل الظهر خرج خلف بعد أن اطمأن إلى ابنته وذهب إلى حوشه ذلك متفقدًا إياه ثم عاد وهو يجر معه خروفًا ليربطه على السطح...

وعاد إلى النوم... حتى صلاة العصر....

حينما أيقظته زوجته شاكية له شقاوة طفليه.

صعد خلف الدرج ليتوقف مصغيًا إلى صوت صوت ولده كان يسمعه... ينسج حكاية من الخيال عن هذا الحيوان بأنه لو فك من قيده سوف يأكل حنان وأسعد... أما هو وأخته فهو صديق لهما... كانت الحكاية شديدة في الغرابة، بادر خلف إلى نهي ابنه عن سرد الأكاذيب ثم أخذ الأطفال وراح يسليهم بكلام معقول أن ذلك الخروف له من العمر كذا.... وسوف نذبحه الليلة... صاحت حنان: ليش نذبحه حرام عليك؟!!

أجابها لأن الله خلقه على شان نأكله ونكبر...!!

بدأ بعمله بعد أن صرف ولديه خوفًا عليهما، كانت شرعا تساعده،وفجأة تعالى طرق على الباب فتوجهت شرعا وفتحته لتجد مريم وخالد، استقبلتهما بالترحيب بعد أن أسدلت جزءًا من غطاء رأسها على وجهها وهي تفتح باب المجلس لخالد وهي تشكره.

سأل عن خلف فأخبرته أنه على السطح، حوّل اتجاهه من باب المجلس إلى الدرج، استقبله خلف بالترحيب....

أراد خالد أن يشارك خلف لكنه منعه لكي لا يوسخ ملابسه فجلس يراقبه....

دار بينهما حديث عن أحوالهما، كانت إجابات خالد وحديثه منصبين على وضعه الحالي... كان يخجل من ماضيه الذي لايرى فيه غير انهزامية والده أمام إخوته، تلك الانهزامية التي يرى أنها مسؤولة عن كل بؤسه وشقائه.... كان يحاول بكل وسيلة الهرب من ذكرياته... كم تمنى لو كان في وضع الظالم فهو يراه أفضل... كان يشعر بعظمة في نفسه..... كان يرى في نفسه طموحًا.... وأحلامًا قمعت...

عكس خلف الذي لم يكن يشعر أساسًا بوجوده.... همه تلك الأغنام وهذه الأسرة والباقي على الله....

الاثنان لم يكونا يحسنان النظر إلى الذات.

نزلا من السطح أعطى خلف زوجته اللحم وطلب منها طبخه وذهب هو وخالد إلى المجلس، شربا القهوة وكان الحديث شخصيًا مع شيء من التعصب، استغرب خالد طبخ خلف الذبيحة برمتها رغم أنهم ثمانية أنفار فقط أربعة راشدين وأربعة أطفال....

أجابه بأن ذلك هو حمد لله على سلامة سارة....

وأنه لا يعرف أحدًا غيره....

تحول الحديث من جانب خالد إلى الحديث عن جيرانه، وكم صُدم خلف عندما سمع اسمًا يعرفه فراح يستفسر عنه بدهشة، كان خلف يصف الرجل وصفًا دقيقًا....

سأله خالد: هل تعرفه؟ قال: نعم، هو من أبناء قبيلتي وأبوه فلان صاحب الصيت المعروف، استحثه خالد لدعوته.... قال خلف: لا أعرف بيته، فخرج خالد معه حتى بلغا بيت ذلك الرجل المدعو «سعيد»، طرقا الباب خرج ونظر إليهما شزرًا، ناداه خلف وبسرعة صافحه وعانقه وصافح خالد....

ظلا صامتين قليلًا... نظر إليهما سعيد وقال خيرًا إن شاء الله، بادره خلف ألم تعرفني يا سعيد؟ أنا خلف ولد حجاب، كانت إجابته قاسية بالنسبة إلى خلف فتقلصت وانكمشت تلك الابتسامة التي كانت ترتسم على شفتيه....

فقد قال وش تبي دراهم وما عندي قال خلف أفا يولد العم، أفا يالقريب حنا جايين نعزمك....

فأجابه سعيد بسخرية واضحة شكرًا وترى ماني فاضيلكم يالبدو.........!!؟

كبرت دهشة خلف لكنه قرر الانصراف بصمت وخالد يتبعه....

راح يفكر لماذا...؟!! لماذا؟!!!

هكذا يا سعيد ترى ما الذي غيره.

بعد أن عاد خلف وخالد إلى المنزل وجلسا كان الصمت يسيطر على الاثنين فكسره خالد قائلًا: ـ ماذا بك يا خلف...

أما زلت تفكر في سعيد؟...

أنت تعرف أن الأقارب عقارب....

لم يكن يحتاج إلى سرعة بديهة ليعرف ماذا لدى خلف، إنه يعرف هذا الشعور جيدًا، ذكّره بذلك اليوم أثناء مرض والده عندما ذهب للاستنجاد بأعمامه فلم يعثر إلا على واحد منهم ما زال حيًا....

أما البقية فقد ذهبوا ليحاسبهم الله، كان يعتقد أن موت الظلمة قد يذكّر هذا الظالم، لكنه وجد أن موتهم لم يزده إلا عنادًا وتكبرًا.... لقد أنكر معرفته حتى بأخيه...

يتذكر خالد مدى الشعور بالألم في ذلك اليوم... عاد خالد من تلك الأرض لكنه عاد إلى الرياض بعد أن شيع ودفن كل أمل أو رجاء من أقربائه، عاد مملوءًا حقدًا على كل طبقات نسبه حتى على نفسه لانتمائه إليهم برابطة الدم.

كان يشعر بمقدار أسف خلف وأساه فحاول أن يهدئه...

أعاد السؤال: أما زلت تفكر فيه؟!!

استطرد خالد....

آه يا خلف، سعيد الذي تعرفه كان ابن البادية وهذا سعيد ابن المدينة إنه يحاول أن يتهرب منك... لأنه يرى فيك وبقرابتك إهانة ومنقصة له.....

صاح خلف: وماذا بي؟!!

أجابه خالد: ليس بك شي وستعرف غدًا.

كان خلف قد اتخذ قراره نحو سعيد بإلغائه نهائيًا من قاموسه!!!!

لقد جرح سعيد كبرياءه بإنكاره جرحًا له كبيرًا جدًا، تناول الجميع العشاء وعاد خالد وأسرته إلى منزلهم لكنهم لم يعودوا كما خرجوا، نعم هذه الأحداث أثرت كثيرًا في حياة الأسرتين....

فخالد ولأول مرة يجالس أطفاله ويسألهم عن أصدقائهم الجدد....؟!

وأول مرة يرى خالد ويعرف حب أطفاله، إنها تلك الطفلة سارة يتذكر كيف حملها؟! ولماذا؟!

أليس الأمل في أن ينقذها من الموت؟!

يتذكر لماذا بكى يوم أخبرت سارة مدير الشرطة عن سبب سقوطها... كان يعلم أنها الفرحة لرؤية أطفاله واللعب معهم لكن أترى سبب تلك الدموع التي أطلقها هي اعتراف بتقصيره في حب أبنائه، أم هي غيرة على مشاركة غيره إياه في حبهم...

كانت مريم تعلم أن كلمات شرعا هي أعظم هدايا الكون لها....

كانت شرعا تعلم بأنها حصلت على كل العالم لشعورها لأول مرة بان هناك من يهتم بأمرها في هذه البيئة الجديدة...

أما خلف فقد أدرك عظم ذنبه في حق خالد وزوجته... وعدم تقديره لهما....

كان كل من خالد ومريم وخلف وشرعا ينظر إلى الآخر... لامسًا مدى التغير والسعادة التي كان يعيشها... كان الجميع سعداء... سعداء جدًا... كلٍ يشعر بعظمته وذاته من خلال إحساسه باكتشاف الجزء الضائع والخطأ الذي كان فيه...

مرت الأيام سراعًا... لكنها كانت حافلة بالأحداث، فكل شخص كان حريصًا على الاحتفاظ بما وجده من أجزاء ضائعة عن ذاته...

أصبحت الأبواب بين العائلتين مشرعة على مدى الساعة...

بلا استئذان أو مرسال... كان يشعر الجميع بأنهم أصبحوا عائلة واحدة...

أصبح لخلف زيارة شبه أسبوعية إلى مدير الشرطة، وكعادته يلح على أبي حاتم في قبول دعوته وتشريف منزله...

كان أبو حاتم يعلم حقيقة مشاعر خلف وحرصه على دعوته، إنها ليست إلا محاولة للتعبير عن العرفان، فقد كان من الصعب أن يفهم أن ماقام به ليس إلا الواجب فقط، لم يستغرب أبو حاتم زيارة خلف سوى تلك المرة التي اندفع فيها خلف بكل خوف وارتباك ليلقي بغترته وعقاله في حضن مدير الشرطة صارخًا:

دخيل الله ودخيلك يا أبوحاتم دخيل الله ودخيلك يا أبوحاتم...

نهض مفجوعًا... لا يعرف ما الأمر....

بادره خلف... مازن، مازن يبغي أن يسجنني...

استدعى مدير مكتبه... وطلب حضور مازن بينما أخذ في تهدئة خلف وسؤاله..

مسوي شي... أحد شاكيك...!!

كان مدير الشرطة يسأل ليطمئن خلف... فهو يعلم الإجابة مسبقًا ويعلم بأن مازن أصبح يعمل في أحد الأقسام الإدارية التي لا علاقة لها بالجمهور...

لكن خلف صعقه عندما أخبره بأنه عاد إلى المنزل على غير عادته ليجد مازن واقفًا يراقب بيته...

جاء رد سكرتير أبي حاتم مصدقًا لكلام خلف فقد استأذن من رئيسه...

نادى مدير الشرطة أحد أفراده وطلب منه مفتاح سيارته الخاصة بكل تواضع وأخبره بالاتصال برئيس مازن وتكليفه إرسال مازن إلى مكتبه عند عودته، ليخرج هو وخلف إذ كان يريد أن يشعر خلف بمدى حرص رجال الأمن على المواطن...

كان يؤكد له بأن هذا هو واجبه نحو الجميع وليس هو فقط، كان يريد أن يعالج ذلك الشرخ في علاقة

المواطن برجل الأمن، كان يريد أن يزيل ذلك الخوف من نفس خلف، لم يكن يعرف أن خوف خلف ليس على ذاته وإنما كان خوفه على أسرته...

كان يخاف أن تبعده هذه السلطة المسماة مازن عن عيون أسرته وأن تحرم عينيه من رؤيتهم. وصلا إلى الحي. ترجلا من السيارة وأخذ خلف يتراجع مشيرًا إلى مدير الشرطة بأن ينعطف من الزاوية ليراه واقفًا... كان الخوف واضحًا في هذه اللحظة... التي كانت جارحةً لمدير الشرطة!!

كرجل أمن يخافه مواطن، دفعه غضبه إلى زاوية الشارع والسير فيه بمفرده... كان يحاول أن يسيطر على أعصابه... أن يحسن التصرف مع مازن خصوصًا وأن خلف كان يسمح لمشاعره بالظهور دون تصنع، فهذا الخوف من رجال الأمن الذي زرعه مازن أصبح لديه هاجسًا يريد أن ينتزعه بأي طريقة، كان يعتقد أن نقل مازن ومنعه من الاحتكاك بالجمهور كافيان لنزع ذلك الخوف...

لكن ما الذي دفع بمازن لإخراج أشباحه لإخافة البسطاء...

نادى خلف وطلب منه السير معه...

سارا معًا، كان خلف متوترًا... قلقًا... وكان الشارع خاليًا... تفحص مدير الشرطة كل الوجوه... حتى ذلك الدكان الصغير دخله مع خلف... كان يبحث عن مازن.

قاطعه خلف قائلًا: كان واقفًا هنا...؟!

سار أبو حاتم إلى آخر الشارع ومعه خلف، استوقفهما كلام إمام المسجد الذي في الحي وهو يقول: «جاك الموت ياتارك الصلاة».

سار نحوه أبو حاتم وسلم عليه وسأله عن سبب هذه العبارة، فأخبره أنه رأى الشرطة تبحث عن خلف وأنهم أخذوا خالد معهم... فسأله من هم الشرطة؟!

فذكر صفات تشير إلى ملامح مازن ورتبته...

تأكد الخبر لدى أبي حاتم...

استدرك بفطنته العسكرية وسأله أتدري لماذا؟!

قال: سألت العسكري فقال أردناه... وكيفكم فيه فنحن لا نعرفه...

علم أبو حاتم بأن وجود مازن قد أثار الشكوك حول خلف...

فقال هذا: العم خلف صديق عزيز لوالدي وكان يزورنا باستمرار ثم انقطع عنا حبينا نعرف وش أخباره وجينا نزوره...

لمح أبو حاتم ذلك التغير على وجه خلف وذلك الزهو بهذا الكلام ...

استأذن أبو حاتم من الرجل وعاد...

كان إمام الحي في ذلك الوقت... هو مصدر الأخبار الموثوق به... كان يعلم أبوحاتم مدى ردة الفعل السلبية لدى أهل ذلك الحي لو علموا بأن خلف مطلوب.

وصلا إلى دار خلف الذي أصرّ على أن يدخل معه ليشرب القهوة خصوصًا وأنهما أمام الباب... فتح خلف الباب وهو يصيح درب يا ولد، ثم فتح المجلس فدخل أبو حاتم وجلس حيث أشار عليه خلف بينما انصرف خلف لفتح النوافذ، فوجئ الجميع بصوت أعلى من صاحبه يقول «أرحبوا حياكم الله» ويندفع إلى ناحية أبي حاتم ليسلم عليه حاول النهوض... لكنه حلف بأن لا يقوم له، انحنى عليه وسلم عليه ثم قبل رأسه وانطلق بالحديث يامرحبا يا ربي حيهم يا هلا والله حياكم الله ...

قاطعه أبو حاتم... ما شاء الله... ما شاء الله... واش اسمك؟!

جاء الرد سريعًا من خلف: هذا ولدك حجاب ثم خرج ليطلب القهوة...

سأل أبو حاتم.... تعرفني؟!

قال حجاب: ضيف يا مرحبا.

كان أبو حاتم يكره التملق والمجاملات لذلك سأله ليش تسلم على راسي...؟!

جاءت الإجابة سريعة... قد أبوي لازم.

أعاد أبو حاتم المناورة ترى أنا أصغر من أبيك فجاءت الإجابة القاسية؟! لكن راسك فيه إلى ما هو في راس أبوي؟!!

قال أبو حاتم كيف؟!!

قال راسك فيه شيب والشيب وقار؟!

لأول مرة يرى أبو حاتم هذه النظرة إلى شيبه الذي وزع في رأسه... لم يكن لكبر عمره بل كان بسبب هموم كبيرة يحملها!!

قطع تفكيره ذلك الصوت الذي يعرفه «أنا فداء من جاء» صاح أبو حاتم «سارة».

أخذها وقبلها... عاد خلف يحمل القهوة والتمر ناولها إلى ذلك الطفل الذي كان يعرف كيف يتعامل معها...

كان خلف يسأل عن مازن؟ وماذا يريد منه؟!

هنا فاجأهما حجاب بأن شخصًا قد طرق الباب وكلمه هو وسأله هل هذا بيت خلف؟!

فأجبته بالإيجاب ثم إنه سأل عنك فقلت خرج؟! وقد سألني متى يرجع؟!

سألته من أنت فقال قل له الملازم مازن؟! قلت له إنك ذهبت إلى سوق الغنم ولن تعود إلا بعد المغرب؟!!

شاهد أبو حاتم ذلك الرعب الذي ارتسم على وجه سارة عند سماع ذلك الاسم...

وغضب خلف على ابنه لإعطائه عنوان عمله لمازن..

تكلم أبو حاتم بعد أن كاد الموقف يصبح شخصيًا وأقسم على تغيير سلوك ذلك المغرور... مهما كلفه الأمر... أراد الانصراف...

حاول لكنه لم يستطع إلا بعد أن قطع وعدًا بالزيارة وتلبية الدعوة...

لكن سارة بادرته متى تجي؟... حاول التهرب لكن أمام إصرارها أعطى موعدًا بالعودة بعد يومين... وتناول العشاء معهم... لكن براءة الطفولة استوقفته بكلمة منها وهي غير مصدقة طيب احلف قول والله...

فما كان منه إلا أن ابتسم وقال والله...!!

عاد أبو حاتم بعد أن وعد خلف بأن يتولى شخصيًا التفاهم مع مازن...

كان مسرعا شديد اللهفة لرؤية مازن تحدوه الرغبة في معرفة دوافعه...

وصل إلى المديرية... سأل عن مازن لكنه لم يكن حاضرًا طلب مديره المباشر وسأله عنه... أفاده بأن مازن استأذنه لقضاء أمر شخصي...؟!

سأله عنه وعن عمله فكانت الإجابة في غير مصلحة مازن فهو دائمًا شارد أكثر الوقت.. متبرم من عمله... قليل الإنتاجية...

طلب ملف مازن واطلع عليه...

صعقه ما وجده في ملفه!!!

فهذه شهادة تقدير على إنتاجيته في العمل... وهذه تزكية من مشرفيه ورؤسائه السابقين، كان ملفه مشرفًا بمعنى الكلمة...

كان أبو حاتم يعرف أن أقسى شيء بالنسبة إلى مازن هو إحالته إلى الشؤون الإدارية، كان لمازن حب للعمل الميداني وحرص عليه... وحرص على المشاركة في كل الأعمال والمهمات الصعبة...

في هذه الأثناء قرع مازن الباب...

وألقى التحية العسكرية.

بادله أبو حاتم التحية ليس إكبارًا لشخصه وإنما كان يعطيها لتلك الأوراق والإنجازات التي احتواها ملفه...

بادره بالسؤال... أين خالد؟!!

أجابه: خالد من؟!!

قال له خالد جار خلف يا مازن؟!!

ما أن ذكر الاسم حتى عرف مازن أن خلف كان هنا؟!

فأجاب: خالد في عمله.

سأله أبو حاتم: ماذا كنت تريد وبأي حق ذهبت للبحث عن خلف وأخذت خالد؟!

أجابه مازن بأنه ذهب للبحث عن خلف ليسترضيه وعندما لم يجده ورأى خالد كلمه وأصرّ أن يوصله إلى عمله ليوسّطه بينه وبين خلف!!

سأل أبو حاتم بتلهف: وش صار؟!

أجاب مازن: لقد رفض؟!

بادر أبو حاتم: لماذا؟!

يقول بأنك لم تستمع إليه تلك الليلة فهل تريده أن يستمع إليك الليلة؟!!

فخاطبه أبو حاتم: الموضوع انتهى لا تذهب إلى خلف!!!

بادره الملازم: لكن يا طويل العمر أنا أرغب في العودة إلى عملي؟!

وأنت لن تسمع مني لو كلمتك حتى يرضى خلف!!

يا ملازم مازن: أنت أخطأت وعليك أن تتحمل نتيجة خطئك ولا تذهب مرة أخرى إلى الرجل؟!

يا طويل العمر أنا اليوم مواعد خالد وان شاء الله بنحل المسألة؟!!

أجاب أبو حاتم بلهجة قريبة للموافقة حاول أنت وحظك؟!

لكن إياني وإياك تزعج خلف وعياله... انصراف يا عسكري..

قال أبو حاتم تلك الكلمات وهو مسرور... لقد وجد المفتاح لتغيير ذلك الغرور في داخل مازن!! كان يعرف أن غرور مازن سيحطمه خالد وخلف؟!!

خالد بدبلوماسيته وخلف بسذاجته، كان يعرف أن خالد لن يحدث خلف بشأن مازن وهو يريد لمازن أن يعرف الحاجة إلى الناس والشعور بالخوف من الآخرين... كما حصل لخلف.

قبل أذان المغرب كان مازن يتجه إلى بيت خالد حسب الموعد... كان يسير وكله أمل أن خالد قد صالح خلف وهدأ نفسه... لم يدرك أن خالد كان يتلذذ برؤيتة وهو بهذه الحالة بل كان يتمنى أن يرى أكثر من حالته تلك.؟؟..

كان يشعر بقوته.

استقبله خالد وأراد إدخاله منزله لكن مازن كان راغبًا في أن ينهي المسألة التي جاء من أجلها،

فخاطب خالد قائلًا: هيا نذهب إلى خلف وهناك نشرب القهوة.

قاطعه خالد قائلًا: خلف ليس موجودًا لقد سافر إلى ديرته وسيغيب أيامًا!

صرخ مازن طيب كلمته فأجاب خالد إيه مرني هنا ووصاني على عياله وكلمته وقال إنشاء الله إذا جيت وخير...

لكن ما عليك الرجل ابن حلال وهو ليس مقصرًا.

كان خالد حريصًا في كلامه مع مازن على أمرين الأول إظهار تأثيره في خلف، والثاني تضخيم الأمل في نفس مازن بحل هذه المشكلة...

كان مازن يريد أن يعرف متى سيعود خلف إذ كان مستعجلًا عودته...

بادر خالد إلى إعطاء الملازم مازن رقم الهاتف الخاص بشركته...

ثم قال له تطمن متى ما جاء أنا أجيك وأعلمك!!

انصرف مازن خائبًا... معلقًا آماله على خالد.

فوجئ أبو حاتم بزيارة من خلف بعد يومين، كان يعلم سر الزيارة أنها لتأكيد الموعد، بعد انصرافه طلب أبو حاتم مازن تلفونيًا وسأل عما صار بينه وبين خالد، فأبلغه الموضوع برمته تعجب وسُرّ في اللحظة نفسها، تعجب من خالد وتصرفه... وسُرّ من هذا الدرس الذي لقنه لمازن، ذهب إلى بيت خلف، قابل خالد وعرفه جيدًا....

لكن أكبر صدماته كانت في اكتشاف له جديد، لقد جعله يشعر بالألم يعتصره بسبب هؤلاء البراعم... كان يرى فيهم طاقات وإمكانيات كبيرة...

لكنهم لم يلتحقوا بالمدرسة....

فوجئ بعدم اهتمام الوالدين بالأمر، خالد وخلف،كان يلتمس العذر لخلف لسذاجته لكن المصيبة في... خالد لماذا؟!!

لم يكن يعرف الظلم الذي عاناه خالد...

لم يعرف الحرمان الذي كون منه هذه الشخصية...

لم يدرك حتى سرّ ذلك الاهتمام به من قبل خالد...

كان خالد يُكبر بأبي حاتم مركزه وعصاميته، كان يرى فيه ذاته لو أتيحت له الفرصة لذلك ولو أن الأقدار كانت به أرحم قليلًا فقط...

كان خالد يعرف إمكانياته وذكاءه... لكنه لم يدرك يومًا أنه قد تقوقع على ذاته...

اجتهد أبو حاتم عدة أيام حتى استطاع إقناعهم بأن يدخلوا أبناءهم المدرسة...

كان حريصًا على هذه البراعم أن تتسلح بالعلم، كان خالد مجتهدًا بدون علم في تكسير تلك الأجنحة لغرور مازن، كان يرغب أن يستمر في الأمر طول الدهر ولكن ذكاءه كان يمنعه...

فاتح خلف في الموضوع فرفضه في البداية... لكن بعد الإلحاح عرض الأمر على مستشاره أبي حاتم... كان أبو حاتم يعلم أهمية التعجيل في الإصلاح بين الناس؟!! لكنه مع مازن كان يؤخره إذ كان يريد أن يروض ويكبح ذلك الغرور في نفس مازن...

بل إنه بعد أن علم وتأكد من تحقق ذلك الهدف استعان بمدير مازن لتذكيره بأمجاده العسكرية ومشاركاته...

كان أبو حاتم يجعل من خلف وخالد وأمجاد مازن العسكرية وطموحه حبلًا يفتله ...

كان يريد أن يشنق ذلك الغرور والعنجهية في نفس مازن... عندما تأكد بنفسه من ذاك...

استدعاه إلى مكتبه وبدأ بالحديث عن مشاركاته في موسم الحج، هل سبق أن شاركت في الحج يا مازن كرجل أمن؟ أجاب: نعم!!

قال أبو حاتم حسنًا أريدك أن تعد لي مطوية لرجال الأمن لتعرفهم وتذكّرهم بأسس التعامل مع الحجاج...

لم يكن هدف أبي حاتم تلك المطوية... إنما كان هدفه اختبارًا آخر لمازن ...

أعدّ مازن تلك المطوية... كانت مختصرة لكنها كانت حاوية بين سطورها كل المعاني الإنسانية... كان أول بنودها هو التواضع للجميع...

وثانيها مراعاة مشاعر الآخرين وتفهمها... كانت مليئة بالمعاني الإنسانية التي أصبح مازن يراها جيدًا.... فهو يرى كل المعاني التي حُرم منها...

يرى كل الأشياء التي خسرها... يرى فداحة خطئه...

كانت مطويته تحتوي بعض الآيات التي تصدق بحقه مثل قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾.

وقـــولـــه تـــعـــالـــى ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾.

وأحاديث تتحدث عن الكبر والغرور وأثرهما في الدنيا قبل الآخرة.

بعد أن قرأها أبو حاتم قال له من كتب هذه المطوية يا مازن؟ قال: أنا. قال: متأكد يا مازن. فأقسم مازن أنه هو الذي كتبها.

فاجأه أبو حاتم بكلماته قائلًا مصدقك لكن فين الكلام هذا منك يا مازن؟.! أجابه لم أتعلم كل هذا الكلام إلا بسبب خلف... كانت كلماته تنم عن اعتراف بالفضل لخلف الذي علمه ذلك الدرس وبالندم على اندفاعه خلف غروره...؟!

كان أبو حاتم يراقب كل ذلك ويدركه جيدًا....

فبادره بالقول: ماذا حصل معك أنت وخالد؟!

أجابه مازن: لا شيء... إنه يرفض أن يتكلم معي أو حتى أن يراني...

قال أبو حاتم: إذًا هو يستخدم معك أسلوبك نفسه معه، إنه يضربك بالعصا نفسها.

أجاب مازن بكل آسى: للأسف إنه يعاملني بمنتهى العدل...

كانت تلك الاعترافات هي كل ما يريده أبو حاتم

فطلب من مازن أن يعود إلى عمله كان هذا الحوار يجري أمام مساعدي أبي حاتم.

ضاقت الدنيا بمازن، بعد أن قابل ضابطين من زملائه بادراه بالسؤال؟!!

خير إن شاء الله؟!

قال: خير ما فيه شيء؟!!

أخبرنا يا مازن نحن زميلاك... أبو حاتم ومساعدوه وأنت... خير.

لم يجب مازن... لم يكن يعرف ما كان يدور في بالهما... لكن أحدهما صعقه بتلك الكلمات، التحقيق معك من أجل ماذا؟!!

هل أضعت عهدتك؟!

هل أخللت بواجب مهنتك؟!

أم هل أخللت بشرف المهنة؟!

كانت كل التهم قاسية جدًا!! كان يرى في نفسه وخبرته أكبر من أن يشك فيه زملاؤه أو أن يحال على التحقيق.

كان أبو حاتم يريد من مازن أن يتعلم خطورة إثارة الشكوك حول الناس... خرج مازن من الإدارة وعاد إلى مقر عمله كئيبًا حزينًا...

كان يعلم خطورة هذه الإشاعة عليه... خصوصًا وأنها تأتي بعد تكليفه بالعمل الإداري ومنعه من الاحتكاك بالجمهور... حتى أمام نفسه لم يكن أمامه غير حل واحد... يدفعه يأسه بكل قوة نحوه... إنها الاستقالة...

نعم قرر أن يتخلى عن هذا الزي الذي كان يثير فيه الغرور...

ذلك الغرور الذي قتله؟!!! كتب نص استقالته وبعد انتهائه منه استدعاه رئيسه الذي أخبره بأن أبا حاتم اتصل ويريدهما معًا في مكتبه خلال نصف ساعة ...

كان أبو حاتم يعلم في ذلك اليوم أن خلف سيزوره، دخل الاثنان مازن ورئيسه في العمل وبعد أن سلّما على مدير الشرطة، سلم مازن أبا حاتم ذلك المظروف ووقف مستعدًا رغم إشارته لهما بالجلوس، كان مازن يريد أن يخرج من هذا السلك بكل قوة وهو يتذكر أول أيامه أيام عشق المهنة، يريد أن ينهي خدمته بالقوة والعشق نفسيهما اللذين بدأ بهما، لم يكن أحد ليدرك ذلك...

همّ أبو حاتم بفتح المظروف لولا ذلك الزائر الذي بادرهم بالسلام، كانت القبل حارة بين أبي حاتم وخلف وباردة مع مازن ومصافحة رسمية مع رئيس مازن...

استدعى مدير الشرطة مساعديه لحضور هذا الموقف وأغلق الأبواب طالبًا من الجميع الجلوس، وقبل أن يبدأ نهض مازن وطلب الإذن له في الحديث معترفًا بخطئه وإعلان ندمه على ما بدر منه تجاه خلف وابنته سارة.

كان اهتمامه شخصيًا لذاته، كان يريد أن ينقي نفسه من كل إساءة ويتخلص من كل مظلمة، لم يكن يهدف إلى شيء يضيفه إلى ملفه العسكري... كان يعلن أمام الجميع... موت ذلك المغرور بداخله. وقبل أن يكمل حديثه قاطعه خلف بكل بساطة الله يسامحك دنيا وآخره!!

انحنى مازن وقبل رأس خلف بعد معارضة صادقة... ثم استدار ناحية مدير الشرطة وطلب منه أن يقرأ خطابه، سأله مدير الشرطة.!!

لماذا؟!

أجاب مازن: لقد انتهى كل شيء.

طلب أبو حاتم من مازن الجلوس بينما انشغل في كتابة ورقة وقام بختمها وتوقيعها ثم أشار إلى مازن بأن يوصلها إلى أحد الأقسام.

خرج مازن من المكتب دون أن يتكلم أبو حاتم ودون أن يفهم الحضور أي شيء، كان مازن يسير في تلك الممرات التي تطل عليها الغرف، في تلك الغرفة تم التحقيق في تلك القضية الغامضة؟!

وهذه غرفة كثيرًا ما زارها وهو يجمع الأدلة... وتلك الغرفة وتلك،،، كان قد ترك في كل غرفة بصمة من بصمات نجاحه...

ذكريات إنجازاته تعصف به...

حتى أنه لم يقرأ تلك الورقة التي ناوله إياها أبو حاتم...

كل ما صدمه وجعله ينظر إلى هذه الورقة هو تلك الكلمات التي نطق بها ذلك العسكري وهو يأخذ الورقة عندما قال له بأن يستعجل في رفع مباشرته لمهام عمله الجديد، كاد أن يصيح.... أراد أن يبكي، لم يدرك حتى ماذا كان يريد... عاد مسرعًا إلى مكتب أبي حاتم الذي كان قد أخبر الجميع بكل التفاصيل... كان ينقل هذا الخبر... هذا الأسلوب في تعديل وإصلاح السلوك إلى مساعديه، فهو يعلم بأن مازن سيعود وقد أراد أن يرى ثقته بنفسه وقد عادت إليه..

استأذن بالدخول...

بادره رئيسه بنوع من المزاح: أتقدم استقالتك بدون علمي هذا تخطّ للمراجع يستحق المحاسبة... راح يقبل الجميع بكل حب ما عدا أبا حاتم حيث كانت قبلاته مثل قبلات الابن لأبيه عفوية فيها كل امتنان... كل حب... كل تقدير...

المسكين خلف لم يكن يعرف الموضوع لكنه متأكد من شيء واحد، وهو أن مازن فرحان فقال له ألف مبروك... كلمات أدرك فيها مازن معنى المشاركة، كانت تعني له الكثير وخصوصًا من خلف...

رأى فيها براءة خلف.. وطهر نفسه.. تلك النفس التي لا تعرف الحقد ولا حدود لديها للتسامح...

بارك الجميع لمازن عودته إلى الاحتكاك بالجمهور... عاد أفضل مما كان وهو أحرص على إنسانيته، طلب مدير الشرطة من رئيس مازن أن يختار أحدًا من الإدارة ليشغل مكان مازن..

بعد أن خرج الجميع ظل أبو حاتم مع خلف حتى يخبره عن العام الجديد... كان جديدًا بكل ما فيه، أجمل شيء هو سماع أولئك الأطفال وهم يرددون الحروف وقصار السور أو بعض الأناشيد...

كانوا يكرهون العودة إلى المنزل لأنهم سيبتعدون بعضهم عن بعض، خلف وخالد دخلا هما أيضًا معترك الحياة، أسسا شركة خاصة للمقاولات والعقار. سارت الحياة المدنية بهذه الأسرة بشكل عادي، لكن بعد عامين التحقت شرعا وأختها كما كان يحلو لها أن تناديها مريم بمحو الأمية..

لم تكن الأمهات أقل حظًا من الأبناء بل لعل الحظ مكنهما أكثر من النجاح... فبعد تسع سنوات فقط صارتا معلمتين في إحدى مدارس البنات... الأمهات منشغلات... والأبناء منشغلون... والآباء أيضًا بنمو شركتهم... كان المسؤول عنها خالد فهو يتمتع بالدقة والحرص...

وكان خلف حريصًا على حسن المعاملة... وصدقها... تطورت تلك الشركة تطورًا سريعًا جدًا...

انتقل خالد وخلف من ذلك الحي... إلى أحد الأحياء

الجديدة حيث أنشأ كل منهما فيللا في حوش واحد وحيث لم يعد هناك حدود..

كان خلف بين وقت وآخر يذهب إلى تلك الصحراء التي بدأت رياح التغير والحضارة تعصف بها...

يذهب وهو في شوق إلى استعادة ماضيه والإحساس به، كان يرى أنه يهرب من عناء العمل... لكنه وهو في طريق عودته كان يعود حامدًا الله على رحيله فقد كانوا مصرين على البقاء وسط الصحراء واجترار مآثر الأجداد رافضين التمدن والحضارة... بل إنهم عابوا عليه سماحه لزوجته بالتعلم ناهيك عن التعليم، اكتشف خلف سر هذا الرفض لتلك الحضارة، اكتشفه هذه المرة عندما أوقف سيارته بجوار تلك الإبل...

وسأل عن صاحبها فقيل له إنها لشيخه. ذلك الشيخ الذي كان كثيراً يزور خلف الذي كان يسخر نفسه له،كان يأتي في أيام الشتاء... وأيام رمضان كان يطرق أبواب الجمعيات وأهل الخير والإحسان ليحكي معاناة أبناء هجرته... متخذًا من اسم خلف المعروف في عالم العقار دليلًا لمصداقيته، كان يخرج من عنده بالألوف المؤلفة من الريالات رافضًا أن يوصله خلف... لزعمه أنه شغله بما فيه الكفاية، يرفض المبيت أو حتى الانتظار بعد جمع المبلغ فأسرة فلان كلها أيتام... وفلانة أرملة ضعيفة وفلانة الأخرى العجوز مع زوجها الطاعن في السن... كلهم ينتظرونه...

كل تلك الأسماء لم يكذب الشيخ فيها بشيء زارهم

خلف شخصًا شخصًا... وأحسن إليهم ووعدهم خيرًا... كان يعرف أحوالهم... سمع منهم عن حجم الهبات التي كان يمنحها لهم الشيخ... أدرك خلف بأن الشيخ يجمع لنفسه فقط...

عاد خلف إلى خالد وطرح الموضوع عليه... استشاره... انطلق الاثنان إلى الجمعيات الخيرية وحذرا من التعامل معه...

حاول الجميع مع مدير إحدى الجمعية الخيرية إيجاد طريقة للقضاء على دور هذا المحتال ومساعدة المحتاجين...

طرح خلف فكرة إنشاء فرع للجمعية في منطقته، رحب الجميع بالفكرة وبدأوا باستصدار الأوراق الخاصة بذلك كان خلف يعمل بكل جهد... وخالد لم يعارض خصوصًا بعد أن زار تلك المنطقة التي كانت ذكريات بؤسه وحاجته أيام طفولته مع والده يراها في تلك العيون...

حرص خالد على سرعة إنجاز هذا المشروع، لذلك سخر طاقات الشركة كافة لإنجازه.

تم تسليمه إلى الجمعية الخيرية... أعدّ خالد وخلف وليمة كبيرة دعي الجميع إليها، كانت الغاية منها إعلان أهداف وطريقة عمل الجمعية...

لم يتحقق هدفه هذا إلا بعد عام بعد أن زار هجرته، كان يرى الترحيب والاعتراف بالفضل له...

كان يرى جمال وجوه أطفال هجرته...

استطاع أن يجمع حوله أهل الهجرة ليوجههم فأرسل مجموعة إلى وزارة المعارف، وأخرى إلى وزارة الصحة، وأخرى إلى المواصلات، وكلف معقب الشركة بمتابعة تلك الطلبات التي قدمت باسم أهل الهجرة، خلال سنوات قليلة تحولت تلك الهجرة إلى قرية لا بل إلى مدينة بها المدارس والمراكز الصحية وشقت بها الطرق وعبدت..كان خلف حريصًا على أبناء منطقته، لم يكن يريد لهم ذلك البؤس الذي يتذكره وتلك المشاعر التى كان يشاركه فيها خالد عندما بلغ حجاب وأسعد مرحلة الثانوية العامة... كان كلاهما يملك سيارة فارهة لكن لم يكن أحد ليخرج دون صاحبه... كانا يخرجان معًا إلى أي مكان...

كان انتماء كليهما للآخر قويًا، لم يكن بينهما أي أسرار، في الإجازة الصيفية من ذلك العام كلفا متابعة مشروع في إحدى مدن المملكة... لم يكن هو المشروع الأول، فرغم صغر سنهما إلا أنهما يمتلكان خبرة ومهارة قد تفوقان خبرة ومهارة والديهما... كانا يكتسبان الثقافات... اللغات... كانا حريصين على تفهم مشاعر وقيم كل عمالهما من أكبرهم حتى أصغرهم إذ غرس والداهما فيهما احترام الناس...

علموهما حكمتين كانا دائمًا يرددانها لهما حتى أصبحتا هما النور الذي يضيء لهما طريق الحياة...

«إذا أردت أن تُحترم فكن محترمًا»

«إذا أردت أن تطاع فاطلب المستطاع»

كانا يحترمان العاملين معهم كافة ويحترمان قيمهم... طموحهم... دياناتهم...

كل العاملين يحترمون هذين التوأمين... حجاب وأسعد... في طريق عودتهما كان أسعد يتولى القيادة... لم تكن سرعته فائقة... لكن كما قيل الحذر لا ينجي من القدر...

فاجأتهما سيارة تشق الحاجز الترابي الفاصل بين الاتجاهين في الطريق... بسرعة فائقة...

كان الاصطدام من جهة سائق السيارة...

انقلبت السيارة... خرج حجاب ساحبًا نفسه من الزجاج الخلفي للسيارة...

كان يرى وجوهًا كثيرة... وجوهًا تملأها الشفقة... تملأها الحسرة... لكنه عندما رأى أسعد محشورًا بين الباب وطبلون السيارة... غاب عن الوعي.

أفاق في المستشفى... بدأ يتذكر كل شيء... بادر بالسؤال أين أسعد؟... أخبروه بأنه في حالة جيدة... أصرّ حجاب على رؤية أسعد... لم يعرفه بداية.

بدا أكبر من سنه بكثير... شعر حجاب بآلام أسعد كلها، بكى كثيرًا واستعاد رشده وسأل الطبيب عن حال أسعد... أجابه بأن عليه الانتظار... حتى يقرروا ظل حجاب

طوال تلك الساعتين قبالة ذلك الزجاج المطل على سرير أسعد في العناية المركزة... كان يسأل عن أسعد كل الداخلين والخارجين إلى تلك الغرفة، لم يمل أو يقطع عليه ذلك الحزن غير تلك الوجوه التي اجتمعت لتهنئه بالسلامة وترجو سرعة الشفاء لأسعد...

لم يستطع أن يخفي انزعاجه منهم بادئ الأمر لولا سؤالهم عن والده وأقربائه... الآن فقط تذكر حجاب والده.... ووالدته...

تذكر عمه خالد وخالته مريم... تذكر الجميع...

ذهب إلى تلك الزاوية ورفع جهاز الهاتف...

اتصل بوالده... أخبره الأمر بشيء من التبسيط كان يحاول أن يهون الأمر ...

لكن صوته المتحشرج بالدموع كان يخبر عن الواقع... كانت مكالمته لخلف تثير في شرعا... آلاف التساؤلات...

فهو يقول لا حول ولا قوة إلا بالله... إنا لله وإنا إليه راجعون... طيب أنا جاي.

استوقفته... شرعا مستفسرة عما حدث...

قال إن المستشفى يريد حضوره... فقد عثروا على رقم هاتفه داخل محفظة أحد المصابين... لم تتقبل الأمر... أكثرت الأسئلة وانصرف خلف بعد مشاحنة أتت في غير وقتها...

خرج خلف وانطلق إلى المستشفى وهناك رأى ابنه، قبّله ثم حاول أن يدخل إلى غرفة أسعد فمنعه من ذلك الممرض... كان حجاب يعلم أن والده إنسان حساس ذو مشاعر مرهفة لكنه لأول مرة يرى والده يبكي! بهذه الحرقة وهذا الألم. كان أشبه بطوفان يتدفق من الحنان... حتى عندما بكى على سارة ابنته لم يكن على هذا النحو،أيقن حجاب أن الحب يكبر مع السنين يكبر بالمعاشرة والمخالطة...

تدخل أحد الأطباء محاولًا أن يطمئنه إلى من كان يعتقد أنه ابنه... لم يجد مفرًا من أن يطلب منه لبس قميص خاص ليدخله لرؤية أسعد. دخل خلف ورأى ذلك الوجه...

اندفع خارجًا كان يعلم أنه لن يستطيع المقاومة... لن يستطيع الصبر على هذا المنظر دون أن يلقي بنفسه عليه، ودون أن يطلق العنان لنفسه لتقبيل أسعد الذي كان ولا يزال يراه ذلك الطفل المشاكس...

خرج ليطلق لنفسه العنان غارقًا في بحر من الدموع، مرة أخرى كان يحاول الخروج لكن الخوف من فقد أسعد أكبر من محاولاته.. كانت الساعة قد قاربت الخامسة صباحًا.. كان يستعيد أيام أسعد منذ أن عرفه يومًا بيوم....

عندئذ طلب خلف من حجاب الذهاب إلى البيت وإخبار أمه والتأكيد على عدم إخبار خالد وزوجته بشيء...

لكن لأن الكذب والتستر عند خلف هما بدافع الحب

فإن خالد يشاركه فيهما، وحين لم يجد سيارة خلف سارع إلى الاتصال بمنزله فأجابته شرعا... بما كان من أمر خلف. وخرج إلى المستشفى ليقف إلى جوار خلف... فلعل الحادث يكون لأحد أقربائه...

دخل المستشفى وفي قسم الطوارئ سأل عن أشخاص قد تعرضوا لحادث سير اتصلوا به...

بدأ الموظف بالبحث في جهاز الحاسب الآلي الذي أمامه وأخبره عن وجودهم في قسم العناية المركزة... سار خالد إلى هناك بثقة وبطء... لكنه لم يتمالك نفسه عندما رأى خلف ملقى على ذلك الكرسي ورأسه مرفوع إلى السقف والدموع تذرف من عينيه...

اندفع إليه بكل سرعة طالبًا منه ذكر الله... ومناديًا إياه... لكن خلف لم يجب، بل اكتفى بالنظر فقط إلى خالد...

وإرسال الدموع في صمت... كان خالد يعلم شدة حب خلف لكل مآثر حياة البادية ورجالاتها، كان يعتقد أنه يبكي... ماضيًا لكنه لم يعلم أنه يبكي المستقبل ...

ناداه لكن خلف اكتفى بالصمت، في تلك الأثناء كان الطبيب يقوم بجولة ثانية... حاول أن يهدئه قائلًا: هو الآن أحسن...

جذبه خلف بكل سرعة واندفع به ناحية الممر...

كان يشعر خالد بأن هناك شيئًا غريبًا...

في الممر غالب خلف دموعه وأخبر الطبيب بأن خالد هو والد أسعد... سأله الطبيب وأنت؟! قال... جاره... استغرب الطبيب كل هذه التصرفات من خلف، كان يريد أن يسأل عن أسبابها لولا مقاطعة خالد لهما...

صحبه الطبيب معه في الأقسام....

كان الحديث بداية عن خلف فقط ثم تحول إلى قريبه المزعوم، كان الطبيب يجيب بأن حالته أفضل لكن إصابة الرأس وتلك الغيبوبة هما المخيفان في الموضوع، إذ لا أحد يعلم متى تنتهي الغيبوبة... أخيرًا بعد أن ذكّر خالد بكل الآيات والأحاديث الحاثة على الصبر وتسليم الأمر لله... والرضا بقضاء الله، نظر إليه فاستشعر الطبيب حال خالد... فأدخله تلك الغرفة...

كان خلف معهما، لم تتوقف دموعه... وخصوصًا عندما رأى خالد ينحني ليقبل رأس ابنه. ظل خالد صامتًا لفترة طويلة، يلعن في نفسه تلك الأيام التي قضاها مع أسعد أيام طفولته، يلعن ماضيه الذي حرمه من أن يشعر ابنه بحبه...

لكن عندما خرج.. كان انهيار تلك الكبرياء مخيفًا غرق في نوبة هستيرية من البكاء مما اضطر الطبيب إلى إعطائه حقنة مخدرة وإدخاله إحدى الغرف ليبدأ بمتابعة حالته...

كان خلف قد قسم وقته فتارة بجوار خالد وأخرى بجوار ذلك الشباك المطل على أسعد، حتى أولئك الرجال الذين خاطبوا حجاب وذكروه بوالده انصرفوا داعين الله لأسعد بالشفاء العاجل وهم يعلمون أن الوقت غير مناسب للكشف عن أنفسهم... كانوا لشدة تأثرهم يلعنون ذلك المراهق في أنفسهم، فاتخذوا قرارهم بتركه حتى يتأدب في ذلك التوقيف... لم ينتبه خلف لهم..

بل لم يشعر بوجودهم... أثناء عودته في إحدى المرات إلى ذلك الشباك كان يشده صوت يعرفه جيدًا. كان ذلك الصوت غارقًا في البكاء... لم يكن محتاجًا لأن يستدعي ذاكرته لمعرفة أنها شرعا... وجدها تبكي بكل حرقة هي وحجاب... الذي أطلعها على الأمر... أصرت على الحضور إلى المستشفى للاطمئنان إلى أسعد... أخذ خلف يهدىء من شرعا وحجاب لكنه لم يفلح... خصوصًا عندما سئل حجاب عن ملابسات الحادث...

بكى الجميع بحرقة على ابنهم، لم يكونوا يرون فرقًا بين أسعد وحجاب لا في الحب ولا في العطاء...

أعاد حجاب أمه إلى المنزل قرابة الساعة السابعة والنصف صباحًا، ففوجئا بوجود مريم في الحوش تنتظر لتستفسر عن غياب خالد وخلف خصوصًا وأنها لم تنم ليلة البارحة... بسبب أرق ألمّ بها.

كان دخول شرعا أولًا... ندمت على دخولها...

ارتبكت... صبّحتها مريم... لكنها لم ترد... سألتها... عن أقرباء خلف المزعومين... كانت تحب الممازحة... لكن عيني شرعا.. كانتا تنبئان عن مصيبة... كارثة لا حدود لها... كانت متأكدة أن هذه الآثار لم تكن لولا حدث جلل....

كانت شرعا تتهيأ بماذا تخبرها... بأي شيء سوف تكذب.. لولا دخول حجاب الذي سلم على خالته... ثم حاول الانصراف سريعًا... استوقفته مريم... منادية: حجاب فين أسعد؟... قال إنه بقي هناك يتابع المشروع، لكن مريم كانت تعلم أنه يكذب فحجاب وأسعد جسدان وروح...

لا يمكن لأحدهما الانفصال عن الآخر، أعادت سؤاله مرة أخرى لكن بلهجة أشد. كانت دموعها بدأت تسيل فجرى حجاب ودخل البيت... لكن آثار تلك الدماء على ثيابه كانت لها دلالتها فلم تتمالك مريم نفسها، بل أطلقت صرخة تحمل كل الأسى...

انحنت شرعا في محاولة منها لتهدئتها أو مشاركتها في الأحزان...... حضرت سارة وحنان لتسألا عن الخبر الأليم، لم يبق أحد إلاشارك في هذه المناحة حتى الخادمات... كانوا يبكون حسن معاملة أسعد يبكون شبابه... يرون أنه لا يستحقّ كل هذا... يرون أنه لا يزال صغيرًا.. وأن هذه الأسرة لا تستحق هذه الفاجعة...

ذهب الجميع إلى المستشفى... لكن لم يسمح لهم

بالدخول لأن موعد الزيارة لم يحن بعد... رفض الجميع العودة إلى المنزل حتى بعد أن خرج لهم خلف طالبًا منهم الانصراف... لذلك اكتفى بعرض الأمر عليهم...

في تمام الساعة الثالثة كان الجميع ينتظر الدخول لولا تلك الشروط...

كانت شروط المستشفى واضحة بالنسبة إلى الزيارة... لكنهم لم يستطيعوا التقيد بها.

ولا سيما بعدما رأوا خلف يسير باتجاههم دافعًا أمامه ذلك الكرسي المتحرك الذي جلس عليه خالد... لأول مرة ترى مريم هذا الضعف في هذا الرجل.

أيكون قدره بكل هذه القسوة... لم يتمالك الجميع أنفسهم من البكاء، حتى سارة التي كانت تشعر بنوع من الحرج في وجودها...

لم تتمالك نفسها...

بدأت عملية الدخول... دخل أولًا خالد وخلف مكثا قليلًا، كان حجاب يرتب الدخول... سارة مع خالة مريم... أوصاها بأن تنتبه لخالتها وصبر خالته... حنان مع شرعا أوصى أمه بأن تنتبه لهذه الفتاة وتمنعها من إطلاق مشاعرها بجوار أخيها وأخيرًا دخل هو بمفرده.

لكن أفكاره وتنظيمه لم يتحققا أصبح الجميع تتحكم فيهم العاطفة... أصبح حبهم لأسعد أكبر من التقيد بالشروط والنصائح...

فما أن خرج خالد وخلف وهما يكفكفان دموعهما حتى اندفعت مريم إلى الداخل.. اندفعت بكل عاطفة الأمومة... أرسل حجاب خلفها أمه بسرعة... لم تكن تحتاج شرعا إلى تلك الكلمات من حجاب فهي ستلحقها بدونها...

وصلت إليها قبل أن تصل إلى السرير... أمسكتها وذّكرتها بأهمية الهدوء لمصلحة أسعد... رفعتا الستار... ذلك الستار الذي كان من الصباح حائلًا دونهما... كم تمنت لو ظل هذا الستار... قائمًا... شعرتا بحرارة دموعهما... كانت الدموع أفضل تعبير، جالت العيون على تلك الأجهزة البلهاء أكثر مما نظرت إلى ذلك الوجه، كانت النظرة إليه سريعة لكنها فاحصة... أدركتا مدى التغير في هذه الصورة وذلك الجسد...

خرجتا بعد أن دخل حجاب ونادى خالته قائلًا لها: لابد أن تتحمّلي أمام ابنتك وعم خالد فخرجتا بعد نظرة طويلة إلى أسعد...

ظل ينظر حجاب إلى أسعد لفترة ثم خرج ودخلت سارة مع حنان لتواسيها، كانت تذكر سارة أسعد لكنها صعقت عندما اكتشفت مقدار ما ألمّ به جراء ذلك الحادث، لأول مرة تتفحص وجه أسعد،لم تعد تذكر آخر مرة رأته بوضوح.

بكته بكل حرقة. كانت تتذكر كلام أمها عندما أخبرتها بمقدار بكائه ذلك اليوم، كانت مثل أي مراهقة ترى فيه فتى الأحلام...

خرجتا لتجدا الجميع متحلّقين حول الطبيب وهو يشرح لهم عن إصابته... أقسى ما سمعاه كان يكمن في احتمال إصابته بعاهة دائمة....

كان هناك من حضر وأحضر توصية شديدة ببذل كل الجهد لأجله... ترى من يكون؟!!

خرج الجميع دون إثارة ظنًا منهم بأن الطبيب يطيّب خاطرهم، استنفروا كل الطاقات... والمعارف... لتسفير أسعد خارج الوطن...

بعد يومين كانت الطائرة تحمل أسعد وحجاب الذي تذرع بتمكنه من اللغة للسفر مع أسعد وخالد... كان الأمر أسهل من تلك الطاقات التي أضاعوها... كل ما يحتاج الأمر فقط هو بضعة سطور.... برقية.... إلى المسؤول لتأتي الإجابة سريعًا... وصلوا إلى هناك فاستقبلهم مندوب السفارة... وأوصلهم إلى المستشفى وظل يتابع أخبارهم ويزورهم حتى عادوا إلى الوطن...

قدمت كل التسهيلات لهم.... سرير لأسعد وسرير لخالد وآخر لحجاب...

ظل الجميع غارقين في بحر من الألم... لم يكن يوقظهم منه غير تلك الاتصالات المستمرة من الوطن حيث كان الكل يسأل عن أسعد... لم يحدث أي تطور لحالته ...

كانا يشعران بأن هنالك أمرًا شديدًا يرمي بهما في الكآبة... كانا يشعران بألم لم يعرفا ما هو! ، شيء واحد

خفف عنهما هو تلك الكلمات الانجليزية التي يطلقها حجاب بكل فخر عند سؤاله «أيم فروم سؤدي أريبين»، كانا يعيشان سعادة مذهلة عند نطق أو سماع تلك العبارة... خرج حجاب في اليوم الثاني... وأحضر معه... علمًا مناسبًا قاما بتثبيته فوق سرير أسعد، كانا يشعران بالراحة لوجود العلم... لأول مرة يشعران بهذا الشعور ولأول مرة يكتشفان أن هنالك ما هو أكثر أهمية من أسعد... «إنه الوطن»

لم تطل إقامتهما هناك. لقد طلبا من ممثل السفارة أن يجهز أوراقهما للعودة إلى الوطن لأسباب كثيرة، كان أهمّها الاعتراف بضآلة الخدمات والتعامل الذي لقياه، كانا في مرحلة مقارنة واضحة بين ما قدم لهما هنا وما قدم هناك وبسببها قررا العودة إلى الوطن لإدراكهما أن العودة هي أفضل لهما، فلماذا إذًا الغربة؟...

عادوا إلى الوطن كان الجميع بانتظارهم... كانت ملائكة الرحمة تنتظر في المطار لنقله من الطائرة إلى المستشفى مباشرة...

كان في المطار خلف والأسرتان... رحبوا بهم... بعد أسابيع بدأت حالة أسعد بالاستقرار... كان حجاب مصرًا على البقاء معه... لكن خالد رفض... أصرّ خلف على أن يرافقه هو... كان اليوم مقسمًا بين الجميع لكل شخص ثمان ساعات، كان كل شخص حريصًا على أخذ حصته كاملة بل كان يتطلع إلى الزيارة، لولا ذلك التغير المفاجئ في تلك الليلة، حيث اتصل خلف بابنه حجاب وطلب حضوره

بسرعة، خرج لكنه وجد خالد ينتظره فاصطحبه معه... انطلق الاثنان إلى المستشفى فوجدا خلف قائمًا يصلي والغرفة فارغة... كانت مشاعر الأب وحجاب عارمة... خلف يصلي وأسعد غير موجود...

ترى لماذا يمهد هذا الرجل؟... أنهى صلاته بسرعة... لكنه لم يقدر على الكلام، كانت الأحرف تتزاحم على لسانه كل حرف يريد أن يخرج أولًا وهو يكرر الحمد والشكر... لم يُفهم منه شيء أدرك هو ذلك... أخذ بيد خالد وحجاب اللذين استوقفاه وطلبا منه الهدوء، أخبرهما بأن أسعد قد استيقظ ونادى حجاب واستدعى الطبيب، وقد أخذوه إلى قسم الأشعة... لقد أصبحا يعرفان هذا المستشفى بكامل تفاصيله.

وصل الجميع إلى قسم الأشعة... توقف خلف في الممر، أدرك خالد وحجاب أنه لم يتوقف إلا لسبب ما.. كان سرير وحوله كوكبة من الأطباء قادمًا من الجهة المعاكسة لهم من الممر، ألصق الجميع ظهورهم بالممر ليسمحوا لهذا السرير بالمرور... خلف وحده هو الذي يعرف هذه الوجوه هم الطاقم نفسه الذي أخذ أسعد... كان خائفًا من حدوث مكروه لذلك ظل صامتًا...

لم يقطع ذلك الصمت سوى تلك الهمهمات... المتسائلة: عم خلف...وين حجاب؟

كان الصوت صوت أسعد وقد عرفه الجميع...

عرفوه رغم وهنه وضعفه وقد توقف الأطباء وفسحوا في المجال لهم لرؤيته...

رآهم جميعًا حجاب ووالده الذي رآه للحظة فقط ثم اختفى عنه...

نعم قد اختفى، لم يعد واقفًا فوق رأسه بل نزل إلى تحت مستوى السرير...

ألصق جبينه بذلك الممرّ البارد... كان يسجد لله شكرًا على سلامة ابنه...

أعادوا أسعد إلى غرفته وقد أخبرهم الطبيب أنه ولله الحمد... قد نجا وتعدى كل مراحل الخطر التي كان يخشاها وأن جميع وظائفه الحيوية تقوم بدورها...

لكنه ذكّرهم بأمر واحد لا يمكن التعامل معه...

وهو أن تلك الفترة من وقوع الحادث إلى الآن لا يدرك عنها شيئًا لذلك لا داعي للحديث عنها...

وأخبرهم بأن أسعد سيبقى لمدة أسبوع تحت المراقبة قبل أن يسمح بخروجه...

عاد الوالدان إلى البيت مبشرين... كانا يتسابقان إلى إعلان الخبر...

لكن كيف لحجاب أن يتمالك نفسه... كان يعلم مدى القلق والخوف في نفس أمه وخالته وفي نفوس الجميع، اتصل بأمه وأخته عبر الهاتف ثم اتصل بسرعة بخالته لكن

كلمته أولًا حنان فلم يسلم عليها، بل طلب منها بكل سرعة مناداة أمها...

حاولت أن تعرف لكن أمام إلحاح حجاب نادت أمها مستغربة تلك اللهجة من حجاب الذي لم يلق حتى السلام. كانت تضع خدها على السماعة وهي ملتصقة بخد أمها... كان حجاب صاحب إبداعات غريبة... حدثها بجدية بداية ثم قال لها بأن هناك من يريد التحدث معها، حاولت أن تستفسر عمن يكون لكن صوت المتحدث كان أسرع مع قرع جرس الباب سريعًا منذرًا بشيء...

دفعت مريم حنان لفتح الباب وعادت لاستكمال المكالمة... كان الصوت خافتًا فلم تستطع سماعه...

كانت فوضى سارة وأمها عالية لدى دخولهما وشرعا تسأل عن سبب التأخر في فتح الباب، أجابت حنان بأن حجاب يكلم أمي، علمت شرعا أن مفاجأتها قد احترقت خصوصًا بعد أن رأت سارة تبلغ حنان بخبر شفاء أسعد، صمت الجميع وهم ينظرون إلى مريم التي بدأت الآن فقط تتحدث وقد بادرت برد السلام الذي لم تسمعه في المرة الأولى، كان أسعد يدرك حجم الفوضى التي تحدثها أمه...

فراح يلعب لعبة الإثارة وهو ينادي أمه بصوته الذي أنهكه المرض:

أم أسعد.. فتجيبه نعم أنا أم أسعد... يخاطبها كيف حالك... تجيب بخير ...

يسألها عن حال أبي أسعد... فتجيبه مع فراغ الصبر بأنه بخير...

وبعدين وش صاير... تكلم... كانت قد بدأت تثور... فاجأها أسعد...

أنا يمه ما عرفتيني؟!! أنا أسعد.

هبت الأم واقفة.... أسعد ولدي.

كان أسعد ينتظر الكثير من تلك الكلمات لكنه لم يسمع سوى صوت سارة ذلك الصوت الذي يعرفه جيدًا... خاله.. خاله مريم...

لقد كانت فرحتها بالخبر أكبر من حدودها فلم تجد إلا الهرب إلى اللاوعي لتحلم هناك... كان أسعد يردد: ألو... ألو...

أخذ حجاب السماعة منه... وراح ينادي.... ثم صمت وهو مستمع...

ثم لما رأى القلق على وجه أسعد شغل جهاز المكبر الموجود في التليفون، كانا يستمعان... إلى ذلك المجتمع... وهما يعيشان تلك اللحظات...

أخيرًا عادت حنان حاملة الهاتف ونادت أسعد... أجابها نعم...

لكنها لم تكمل بل أكملت الأم... ثم شرعا، الكل كان يسأل وهو يحمد الله...

عند وصول خالد وخلف إلى المنزل لم ينزلا من السيارة...

لقد وجدا الجميع مستعدين للذهاب إلى المستشفى...

عادا من طريقهما...

زارا أسعد وحجاب... انسلّت أسرة خلف بهدوء تاركة المجال للأم والأخت للتعبير عن فرحتهما بسلامة أسعد...

استوقفهم خالد داعيًا تلك الأسرة إلى العودة... كان يعلم أنه ابنهم... كما يعلم مدى حبهم له....

لذا كان حريصًا على أن يعيشوا الفرحة معه ومثله... عند دخول حجاب مع أسرته ذهل...

لأول مرة يرى حنان التي كان حجابها يضفي على وجهها هالة من الإشراق، كما كانت الدموع تمنح ذلك الوجه الذي ما زال محتفظًا بملامحه براءة الأطفال...

تدارك نفسه وصرف نظره... كل ما قطع تلك الفرحة هو استئذان مجموعة من الأشخاص بصحبة اثنتين من النساء في السلام على المريض...

لقد هنأوهم بسلامة أسعد، لم يكن سلوكهم مستغربًا... خصوصًا في هذا البلد حيث هناك كثيرون يقومون بزيارة المريض لوجه الله...

انصرف الجميع بعد أن نصح الطبيب أن يظل حجاب مرافقًا لأسعد بحكم تقارب السن...

بعد أن خرج أسعد من المستشفى، أقام خلف مناسبة كبيرة... دعا إليها الجميع حيث كانت فرحته غامرة لا حدود لها...

لم يلفت انتباهه أولئك الأشخاص الذين وصلوا إلى المنزل وكانوا حريصين على البقاء بقرب أسعد...

جاؤوا للمشاركة في تلك الفرحة... كانت فرحة الجميع وشيمهم تمنعهم من السؤال عن سبب حضورهم....

بعد أن انتهت تلك المناسبة وانصرف الجميع تحدث أكبرهم سنًا موجهًا كلامه للجميع لأنه لم يكن يعرف من هذه الأسرة من هو الأب أو الأخ أو العم...

كان يرى في حبهم لأسعد كل تلك الصور التي تختلط بين خلف وخالد وحجاب..

الكل عاش هذه الأدوار خاطبهم قائلًا: -

الحمد لله أولًا على سلامة أسعد... وسبب حضورنا اليوم هو تهنئتكم بسلامته ولنطلب منكم الإذن بإعداد حفل بهذه المناسبة... راجين أن يكون غدًا، كان الجميع يعتقد أن هؤلاء الأشخاص هم من سكان الحي...

لكن طلبه بإقامة هذه المناسبة في منزلهم معتذرًا بحالة أسعد وبعد منزله... دعتهم إلى استبعاد هذا الاحتمال... لكن من خلال النقاش والحديث توصّل الجميع إلى معرفة هذا الرجل...

إنه من أقرباء ذلك المتهور... تقدم خالد وأعلن أنه سوف يقوم بالتنازل يوم غد هو وابنه... وأن باستطاعتهم إخراج ابنهم من التوقيف... كان ذلك الرجل يرى في كلام خالد جرحًا لأحاسيسه... وفي طيات كلامه اتهامًا بالتملق والنفاق... وجه كلامه إلى خلف معيدًا العرض... كان خلف يدرك إحساس الرجل فطلب منه بعض الوقت لكي يقوم بالرد عليه... استأذن الرجل وخرج... في اليوم الثاني وفي تمام العاشرة صباحًا سلّم خالد تنازل ابنه بنفسه لإدارة المرور لإطلاق سراح ذلك الموقوف... كان تنازلًا عامًا...

عند عودته إلى منزله كان خاليًا... كان يعلم أين سيجدهم، اتصل بمنزل خلف فبادرته شرعا بضرورة إسراعه في الحضور للحاق بالغداء... سألها عن زوجته فأخبرته أنها مشغولة بالحديث مع إحدى الضيفات...

اتجه إلى منزل خلف، لم يكن يعلم أنه سيجد الأشخاص أنفسهم الذين كانوا ليلة البارحة فضلًا عن شاب آخر معهم...

سلم على الجميع وجلس بجانب الرجل المسن، أخبرهم بأنه قدم التنازل للمرور وسأله عن الشاب الموقوف... فأخبره بأنه فوجئ به يطرق الباب عليه... وأنه تمنى لو تربى هذا الإبن أكثر.. كان يشير إلى ذلك الشاب الجديد... قام مسرعًا وقبل رأس خالد... فقد عاش مخاوف خالد... كلها... كان ذلك الدرس كافيًا لهذا الشاب....

خصوصًا عندما ناوله رجل الأمن مبلغ خمس مائة ريال كان قد تركها له خالد ...

بعد أن رفض ذلك الشرطي السماح له برؤيته... كان يعلم انه ليس من هذه المدينة وأن أهله ربما يكونون بعيدين عنه.... لم يكن يريد لهذا الشاب رغم فعله أن يحتاج إلى أحد أو يتأخر عن الوصول إلى والديه...

تناول الجميع الغداء الذي كان قد أعدّه خلف...

بعد الغداء فوجئ الجميع بذلك المسن يقسم بالأيمان المغلظة أن يحتفي بأسعد فأعلنوا ترحيبهم مضطرين....

كانت له أمنية وهي أن يزوروه في منطقته... إذا كان باستطاعتهم ذلك... كان يرى في زيارتهم له تشريفًا له... كل أفعال خالد كانت تدل على عظيم الكرم وقمة العطاء... اعتذروا منه... أقام المناسبة في منزلهم دعاء بعض أقاربه... وبعد العشاء كانت هناك طقوس لابد أن تمارس.... قام ذلك الشاب ليقف قبالة أسعد...

كان ذلك المسن يتولى الحديث.... فقام بسرد القصة بكامل وقائعها...

وقد كان أسعد لأول مرة يدركها أو يسمع عنها... ثم صمت لوهلة، بعد ذلك أطلق الأيمان المغلظة بأنه كان في إغفاءة لم يفق منها إلا حينما اخترق الحاجز الترابي... وأنه معترف بخطئه مقر بذنبه.. كانت تلك الطقوس تبعث الخوف وخصوصًا تلك الأيمان التي كانت تدعو بقطع النسل وهلاك الحرث واللعن...

كانت أيمانًا رهيبة لم يطلبها أسعد أو خالد... عاد الأب إلى الحديث موبخًا ابنه الذي اندفع إلى رأس أسعد وقبله ثم رأس خالد وخلف.....

كان الأب قد وضع نفسه مكان الحكم... تدخل خلف مقاطعًا قائلًا لا داعي لكل هذا يا عم.

لكن ذلك الأب كان قد وضع نفسه مكان الخصم لابنه، كان يريد أن ينتقم لهذا الكرم... لهذا العطاء... لهذا المستقبل المتمثل في تلك الأسرة.... أراد أن ينتقم من تهور ذلك الشاب... من حمقه... من كل من كان يرى أن معاني هذه الأسرة وحجمها أكبر من ابنه... صرخ خلف:

«عفونا عنه عفا الله عنا دنيا وآخره».

كرر خالد وابنه تلك الكلمات معه...

قابلتهم صرخة من أقرباء ذلك الشاب... بيض الله وجوهكم... شكروا لهم هذا الكرم... وانصرفوا...

كادت تلك الإجازة تمرّ لولا تلك الغمامة التي لبثت على صدور أولئك الأوفياء...

نعم كان عام 1990م عامًا كئيبًا... لأول مرة يشعر الجميع بمقدار الانتماء... كان هنالك تهديد خارجي باحتلال البلاد والعباد... سارع الجميع إلى التطوع.

لأول مرة في حياة هؤلاء الأبناء يرون الأسلحة بأعينهم بين أيديهم... لأول مرة تحمل حنان وسارة ميزان حرارة أو إبرة حقن إذ كانتا تجهلان كل شيء...

لكنهما اجتازنا دوراتهما التطوعية بتفوق، كان سبب كل هذا التفوق هو ذلك الدافع وذلك الحرص على العطاء... سخّر خلف وخالد... كل إمكانيات ومعدات شركتهما وطاقاتهما للعمل... كانا مدركين حجم الخطر المحدق بالجميع، لكن لم يكن الخوف وحده هو المحرك لهما... كانت هناك كلمات تنمّ عن الالتزام...التزام الكبير قبل الصغير... كان هناك عهد وميثاق لهما... كانت تلك الكلمات هي كلمات خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود عندما أعلن أنه لن يسمح بالاعتداء على شبر واحد من أراضي المملكة، كانوا يرون أنهم أبناء ذلك الرجل وأن كلمته يجب أن تطاع... وأن وعده لابد أن يتحقق...

يرون أن تلك الكلمات قد سبقهما بالإعلان عنها... كانا يريانه يتحدث عنهما... يخبر بما في قلبيهما من مشاعر تجاه هذا العدوان...

نعم تغيرت النظرات والأفكار التي يحملانها في نفسيهما إزاء هذا الواقع وتبدلت الأولويات، فمن الاهتمام بالعمل والأسرة والأمور الخاصة تحول كل ذلك واتجه نحو الوطن من حيث كيفية خدمته والتفكير في أمره.

انتهت المعارك وأعلن الانتصار... رغم عدم تحقيق أمنيات الكثير... كم تمنيا لو كانا شهيدين في معركة التحرير أو حتى جريحين في تلك الاشتباكات على الخطوط الأمامية.... كانا يتمنيان لو أن دماءهما وحياتهما تحولت

إلى شيء ذي قيمة غالية... نعم كانا يشعران بضآلة تطوعهما أمام عطاء الوطن... عاد الجميع إلى حياتهم العادية... كان هنالك مجهودات جبارة أخرجت الجميع من تلك الذكريات بسرعة كبيرة... أكمل الأبناء دراستهم الثانوية والتحقوا بالسلك العسكري بسبب رغبة الوالدين الكبيرة وكذلك رغبة ابنيهما، التحق أسعد بالكلية الحربية أما حجاب فالتحق بالكلية الأمنية... لأول مرة يفترقان.. لم يشدهما إلى هذا المكان الجديد شيء سوى الدافع إلى التخرج.. والرغبة في العمل.. وفي تحقيق الذات.. كانا يرغبان في الخدمة.. كانت أجمل أيام الكلية هي تلك الأيام التي شاركا فيها مع زملائهما في خدمة حجّاج بيت الله الحرام.. لم يكونا يشعران بالتعب أو الإرهاق.. عاشا سعادة غامرة.. لأنهما يقومان بواجباتهما بدافع الحب لها.. وليس الالتزام بها.. لم يشعرا بذاتهما بل يرونها قد ذابت وامتزجت مع ذوات أخرى.. تسعى إلى هدف واحد..

تخرجا من الكلية.. كانت حفلة تخرجهما.. بالنسبة إلى الوالدين أشبه بالأساطير..

مجرد تخيلهما لولديهما وهما يساهمان في بناء هذا الوطن وحمايته كان كفيلًا بصرف نظرهما عن ولديهما وحاجاتهما النفسية.

فأسعد يتذكر دخوله البيت في ذلك اليوم. كان قد منح طلاب الكلية يوم الأربعاء كيوم مفتوح أو كيوم طالب، خرج يوم الثلاثاء ولما وصل إلى باب منزله كان قد نسي

ذلك الأدب وأهمية الاستئذان.. فرحته بهذا اليوم..أنسته كل شيء، فتح الباب ودخل.. لم ينتبه بداية لولا تلك الألحان والترنيمات التي كانت تطلقها سارة.. كانت تلك الترانيم تميل إلى الفرح وإعلان الانشراح.. كانت ترانيمها تنساب بكل هدوء.. لم يقطعها غير صوت تلك الخادمة التي كانت تراقبها سارة وهي تلمّع زجاج النوافذ.. بابا.. أسعد..

هنا فقط استدارت سارة لترى أسعد.. قام بالالتفاف.. وهربت سارة إلى منزلها.. دخل المنزل.. وجده خاليًا.. والده في الشركة.. والدته.. أكيد عند خالته شرعا.. وأخته معها أيضًا.. كانت تلك السنة الثالثة لهن في كلية الطب فبعد أن تطوعتا في التمريض في أيام الحرب تلك.. تلك الأيام التي غيرت فيهما الكثير.. اختارتا الطب عوضًا عن العمل الأكاديمي.. بدل أسعد ملابسه ونادى أمه وسلم عليها ثم انطلق بسيارته إلى تلك الشركة.. فهو يعلم بأن والديه هناك.. سيسران لرؤيته.. لم يكن حرصه هذا اليوم على سعادتهما بقدر حرصه على أن ينهي بعض الخواطر التي ساورته حول سارة.. يريد أن يمحو صورتها من خياله.. يرغب في أن يتناسى وجودها.. أو عواطفه.. حتى يتخرج.. لم يبق سوى أسبوع ويتخرج.. فهو يرى في سارة حلم حياته وأنها زوجته في المستقبل.. أخذ يردد أغنيته المفضلة (كلها أيام وليالي واحضن كفوك يا غالي) فزواجه بها أمر محتم.. في حكم المنتهي.. أمر لا يحتاج سوى إلى الوقت..

استقبله والداه إن صحّ اللفظ بكل استغراب فموعد

خروجه يوم الأربعاء وليس الثلاثاء، أوضح لهما الأمر فرحبا به.. واستمر النقاش حول العمل وطبيعته.. كانا حريصين على إنهاء العمل ذلك اليوم، لأنهما لن يداوما غدًا لأن هنالك ضيوفًا سوف يأتون إلى خلف مساء ودوام الفترة الصباحية سيكون مقلصًا.. عاد الجميع إلى المنزل.. كان أسعد مرهقًا خائر القوى.. لكنه كان حريصًا على أن يتسامر مع أمه وأخته.. بادرته أخته بالتوبيخ على تلصصه على سارة.. فراح يعتذر ويبرر.. لكنه مثل والده دبلوماسي استطاع أن يدفع بحنان بكل قوة إلى الحديث والإسهاب عن سارة.. دون أن تعلم أنها كانت تدغدغ مشاعر أسعد.. تجعله يبني قصوره في الخيال.. كانت تخلّد له.. تؤكد كل أحلامه.. الوحيدة التي كانت متضايقة تلك الليلة هي مريم أم أسعد.. كانت تعرف سرّ هؤلاء الضيوف لذا كان قلبها من داخله يتقطع.. كانت تعلم بنظرات سارة إلى أسعد.. وتذكر دعوات أسعد ذلك اليوم عندما كانت طفلة في المستشفى كانت تذكر دموعه تلك.. كانت تدرك أن هناك إعجابًا متبادلًا.. لكنه في حدود الأدب.. لم يسمح أي منهما بإظهاره.

قالت مقاطعة الجلسة والحديث: يلّه ناموا.. بكرة بيجي عريس سارة وأهله.. ورانا قومه من الصبح.. قالت تلك الكلمات وانصرفت..

أخبرت شرعا مريم بتفاصيل تلك المكالمة التي تلقتها من والدة إحدى صديقات سارة.. ابنها يعمل مهندسًا في

إحدى كبريات شركات هذا البلد.. أمامه مستقبل عريض.. وطموحه أكبر.... وهو ابن أسرة عريقة.. في مقتبل شبابه.. يريد من تشاركه في مشوار عمره.. وكل صفات فتاة أحلامه متوافرة في سارة.. كانت تلك هي آخر كلماتها..

أخذ كل هذه التفاصيل من أخته حنان.. التي جرحته بدون قصد، بأن ذكرت أن سارة تعيسة الحظ فهذا أول عريس يأتي لها.. بالرغم من كل ما تتمتع به من أنوثة.. وصفات أخرى.. ضاقت الدنيا في عيني أسعد.. لم يطق أن يخفي ضيقه إلا بكلمة واحدة.. الله يسعدها..خرج ليركب سيارته وينطلق.. أخذ يجوب الشوارع.. اتجه إلى ذلك المنزل القديم.. تذكر طفولتهما.. ما زال يذكر شكلها وهي عائدة من المدرسة.. بتينك الضفيرتين اللتين كثيرًا ما سخر منهما.. ها هو الآن سيحرم منها.. تذكرها وهي تترنم بتلك الألحان.. كان يراها تعلن سعادتها بذلك الخطيب.. حاول أن يتناسى، أدار الراديو الذي كان يغذي فيه ذلك الشعور بأنها ستتزوج لا محالة.. المطرب طلال مداح يردد إحدى روائعه (أحرجتني)، سحب كل كلمة في الأغنية وألقاها على ذلك الموقف، كل ما كان يعصف به هو ذلك الشطر في تلك الأغنية:

هي قلبها اختار لابد أنا ما احتار.. وأرضى بقسمتي..

دخل نوبةً من الشرود الذهني..

دخل بكل مشاعره مع هذه الكلمات.. كان قد توقف

بجانب الطريق وغرق في التفكير، لم يوقظه إلا ذلك الضوء المتقطع بين الحمرة والصفرة، كان رجال الأمن قد استغربوا وجوده ووقوف هذه السيارة في هذا المكان، فلم يكن منهم إلا أن توقفوا وعند رؤيتهم لهذا الشاب.. قرعوا الزجاج الأمامي للسيارة.. وسألوه إذا كان يحتاج إلى أي مساعدة أو خدمة.. أدار محرك سيارته وعاد إلى منزله.. كان التفكير وهاجس موافقة سارة يعبثان به.. ظل مستيقظًا طوال الليل في صالة منزلهم زاعمًا أنه قد نام وارتاح أمام والده الذي أكد عليه أهمية البقاء في المنزل بعد العصر وذلك لاستقبال ضيوف عمه خلف.. أولئك الضيوف الذين يعرف مقصدهم.. كان خالد في الليلة السابقة قد أيقظته زفرات زوجته.. أخبرته بأنها كانت تتمنى سارة لأسعد.. كان خالد يوافقها في الرغبة والأمنية.. ولكنه كان يرفض أي تلميح لابنه.. كان يريد له أن يختار شريكة حياته.. لم يكن يتمنى لابنه أن يعيش تجربته ذاتها.. خرج خالد وخلف من المنزل.. استعدت حنان للخروج فقد وصلت الحافلة الخاصة بنقلها إلى الجامعة، تعمد الخروج معها.. كان حريصًا على أن يرى سارة.. خرجت الأم إلى عملها مع خالته شرعا وظل وحيدًا مع هواجسه التي تعصف به..

بعد الغداء كان الجميع يستعدون للذهاب إلى منزل خلف لمشاركته، قال خالد: إن حجاب ما زال في الكلية ونريدك يا أسعد أن تحل محله في هذه الأثناء.. انفجر أسعد متذرعًا بأنه سوف يذهب لإحضار حجاب ويعود

بسرعة، خرج مسرعًا دون أن ينتظر الموافقة، كل ما كان يريده هو أن يهرب من تلك المقابلة؟ لكن حظه يعانده.. لم يكد يصل إلى الكلية الأمنية حتى كان الطلاب يخرجون، أخذ حجاب ومجموعة من زملائه وانطلق بهم ليوزعهم على مناطق الرياض.. كانوا يصرون على النزول ليركب كل شخص وسيلة مواصلات، لكنه رفض وقد حرص أثناء إنزالهم على إطالة المسافة.. بعد أن نزل آخرهم.. بادر أسعد حجاب بالقول مبروك.. أجابه حجاب الله يبارك فيك؟ على إيش؟

كان أسعد يعتقد أن حجاب يخفي عنه موضوع هذه الخطبة إذ من المحال أن تتخذ خطوة مثل هذه بدون علمه؟

مبروك ملكة أختك سارة.. الليلة؟

حجاب: أنت متأكد؟

أسعد: يعني ما تدري؟

قال له حجاب: ودنا البيت.. ودنا البيت.. وصلا إلى المنزل كانت صلاة العشاء قد انتهت لكن الضيوف لم يصلوا بعد.. كانت كل الظروف تعاند أسعد.. حتى في تهربه من لقائهم.. لم تخدمه الظروف..

وصل الضيوف بينما كان خلف وخالد وأسعد وحجاب يقفون صفًا واحدًا.. مرحّبين بالضيوف، جل ما شد انتباه خلف هو مبادرة أسعد لأحد الضيوف والتسليم عليه بشدة مناديًا باسمه أحمد.. يا هلا والله، قام أسعد

وحجاب بالواجبات المنوطة بهما.. كان أسعد قد جلس بالقرب من أحمد.. قال حجاب: هذا أحمد زميلنا أيام المتوسطة والأول ثانوي.. كان يتقدمنا بسنتين.. تبادل الجميع الحديث، عن ذكريات تلك الأنشطة المدرسية، كان استغراب حجاب وأسعد.... حين اكتشفا بأن أحمد هو العريس!..

كان يعلم متانة العلاقة في أيام الدراسة بين حجاب وأسعد فما بالك الآن..

انتهت تلك الرسميات وبدأ والد أحمد بالحديث، كان مليئًا بالغرور.. قال بأن سبب زيارتهم هو الخطبة لابنه أحمد.. كان أسلوبه يبعث على النفور.. بعد أن أنهى حديثه طلب منه خلف بعض الوقت لأخذ موافقة الفتاة..

كان خروج أسعد سريعًا أعلن أن لديه بعض الارتباطات مع أصدقائه.. لم يصدق أنه استطاع التحمل حتى آخر تلك الزيارة.. ركب سيارته وخرج من المنزل..

انصرف خالد إلى منزله..

عندما دخل خلف وحجاب إلى الصالة.. وجداها خالية.. على غير العادة.. بينما كان هناك صوت لشجار مفتعل في إحدى الغرف بين سارة وأمها.. كانت سارة غير مصدقة أن تخطب.. رافضة الفكرة من أساسها.. كانت تعلم بطريقة أو أخرى أن قدرها مع أسعد فكيف يجرؤ أي شخص أن يخطبها.. كانت الأم تحاول تهدئتها بينما سارة تصرّ على الاتصال بأم أحمد وإعلامها بموقفها الرافض..

تنحنح خلف ونظر إلى ابنته سارة، قال لها: هل هذا هو موقف نهائي.. قالت: نعم.. كان خوفها.. أو حرصها على أحلامها أكبر من حياء مصطنع..

خرج حجاب.. تذكر موقف أسعد.. ربط بعض الأمور ببعضها فأدرك أشياء كثيرة..

خرج من المنزل واتجه إلى حيث يعلم أنه سيجد أسعد.. ذهب إلى ذلك المكان المنعزل.. على تلك التلة.. وجد أسعد.. كان داخل سيارته.. يستمع إلى إحدى أغاني عبادي (تدرين وأدري بنفترق..).

فتح الباب وهو يقول: مسكين يالحبيب.. أدار وجهه أسعد ليمسح بعض الدموع.

قال له حجاب: بس قلي وش جايبك هنا وتسمع عبادي.

كان حجاب يعلم أن أسعد يكذب عليه عندما قال له بأنه يفكر في مكان تعيينه بعد التخرج..

بادره حجاب بأنه يعاني من مشكلة.. وأنه كان يريد أن يحدث والده ولكن موضوع أخته سيؤخر هذا الحوار..

لأول مرة يشعر حجاب بعدم المبالاة من أسعد.. ولأول مرة لا يكون حريصًا عليه.. تأكد أخيرًا ولكنه كعادته دائمًا يرغب في صنع بعض الأحداث.. قال: تصدق يا أسعد.. البنت هذي ما عطتني إجابة.. أسعد أي بنت..

أجاب حجاب: الدلخة أختي هذي تصدق عاد وش رأيها في أحمد؟

أجاب أسعد الله يوفقها..

أجابه حجاب.. المشكلة الدلخة ما وافقت ومسوية لنا مناحة في البيت..

التفت إليه أسعد وبكل اندفاع طلب منه الخروج من السيارة وانطلق. تأكد حجاب من توقعاته، ركب سيارته وعاد.. كان أسعد قد وصل قبله إلى البيت، لم يرد أن يتأخر أكثر أسرع إلى أهله وأعلن رغبته في الارتباط بسارة..

لم يكد يستقر حجاب على الكرسي في تلك الحجرة حتى ناداه أسعد فخرجا . . كان أسعد يملأ الدنيا فرحًا.. لكنه كان أكثر جدية من حجاب.. لم يتحدث معه في أي شيء.. كان يكتفي بالدعوة له بالابتهاج.. ونسيان كل شيء.. بعد كثير من الإصرار من حجاب.. عن سرّ تغيراته في هذا اليوم أخبره من خلال بعض التلميحات.. أن أمه بعد عودته إلى المنزل أخذت تلح عليه في الزواج وتعرض عليه.. فتيات.. من بنات صديقاتها وأخواتهن..

كان الجو يوم الخميس مشحونًا في بيت خلف بسبب حرص سارة على معرفة موقف أهلها من أحمد.. كعادته دائمًا دعا حجاب أمه وأباه إلى الاجتماع.. نادى سارة.. وبعد ارتباك طويل سألهم ألم تفكروا لي في عروس؟

كان سؤاله صاعقًا لهم؟

الأم ابتسمت؟ والأب أخذ في الضحك! وسارة كانت تردد بقهر لا والله الفاضي؟

كان سؤاله لهم غريبًا.. بل حتى لم يتوقعوه؟ لذلك اضطر الجميع إلى الصمت بعد إلحاحه؟

لحق أباه الذي اكتفى فقط بطلب بعض الوقت.. ذهب إلى أمه معاودًا الأمر.. اقترحت عليه عدة فتيات.. لكن لم يتحرك فيه أي شيء.. لولا تدخل سارة بقولها طيب عندك حنان.. عند ذكر ذلك الاسم شعر بطوفان يجول بخاطره.. تذكر طفولتهما.. لكن ليس أكثر من تذكره لوجهها يوم رآها في المشفى.. لقد أعادته بكل تفاصيله إلى مخيلته.. لقد أحس باهتزاز كل ذرة من وجدانه.. الآن بدأ حجاب بالتركيز حددها.. لكنه فوجئ باستبعاد أمه لها.. كان يعتقد أنها تسعى إلى ممازحته.. جلس مع سارة وطلب منها بأن تفاتح حنان في رغبته.. كان راغبًا في معرفة عواطفها نحوه فلعلها لا تراه سوى أخ.. أو غير ذلك..

لم يطل الأمر بسارة لمعرفة الخبر.. فقد زفّت الموافقة المبدئية من حنان.. فما كان منه إلا أن توجه إلى الشركة ليسلم على عمه خالد وأسعد ووالده.. كان الجميع يتحدثون عن التخرج وعن مقر التعيين،أخيرًا انتهى دوام الشركة.. وخرج الجميع.. كم شكر أسعد في سره حجاب.. عندما نادى والده وأخذه معه في سيارته.. كان حجاب يريد أن يتحدث مع والده رجلًا لرجل.. وأسعد كان يرى أن هذه الفرصة هي السانحة للحديث مع والده وإقناعه بسرعة خطبة سارة..

كانا مقتنعين بأن العملية ليست إلا شكلية.. وأن الموافقة مضمونة.. كل من حجاب وأسعد متأكد من حب وعطف عميهما وأنهما لن يحرماهما شيئًا مهما كان ..

فاتح حجاب أباه برغبته في حنان ابنة خالد كزوجة له.. كان الأب يحترم ابنه فتركه يفرغ كل ما في خاطره.. كان حجاب يثني بلا حدود على حنان وتربيتها.. كان يقول بأنها مثل بنتك وأنت أعرف بها.. حتى انتهى.

فقال له والده: اسمع يا حجاب حنان لا تصلح زوجة لك.. قال هذه الكلمات وصمت.. سأله حجاب بأسلوب لا يخلو من الاستغراب والغيرة.. لماذا؟

قال له أنت ابن قبيلة وهي ليست قبلية؟

وهذا السبب أعتقد أنه كافٍ لك.. والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (تخيروا لنطفكم فإن العرق دسّاس).

صُدم حجاب بعنف بوالده.. أما زال يحتفظ بهذه النظرة الدونية.. كان يسير بدون وعي.. لم يكف والده عن الحديث عن إظهار الفروق بين القبلي وغير القبلي.. وأن حنان لو كانت قبلية لوقف بجانب ابنه حتى لو كلفه ذلك حياته.. خصوصًا وهي ابنة خالد الذي يعرفه، وكان بين وقت وآخر يعيد ذلك الحديث النبوي.

كانا قد اقتربا من المنزل والوالد ما زال يجلد الابن بهذه السياط المسمّاة القبلية؟

كان يعلم مدى طاعة ابنه له.. وهو يحاول أن يقنع نفسه بأن حجاب اقتنع.. لكنه أدرك من خلال صمت حجاب أنه ما زال متعلقًا بحنان..

كان أسعد هو الآخر يعاني من والده.. فمخاوف خالد من تلك النظرة أقوى وأعنف.. خشي أنه لو طلب سارة لابنه أن يضع خلف بين المطرقة والسندان، مطرقة القبيلة وسندان صداقتهما..

كان يرى في طلبه ذلك إحراجًا لخلف ومساومة على كل تلك الأيام..

يرى القضية قمة في التعقيد.. وقمة في السذاجة.. لذلك أعادته إلى أيام طفولته وتذكر جراحه من أقربائه.

كان موقفه صعبًا لا يمكن أن يترجم لأسعد إلا بتلك الكلمات القديمة وهي التهديد.. أو الوعيد.. إذا لم ينس هذا الموضوع..

دخل حجاب المنزل وأغلق على نفسه باب حجرته وكذلك فعل أسعد..

كان التوتر قد انتقل إلى الأسرة برمتها.

خلف أخبر زوجته وطلب منها عدم التدخل وترك حجاب حتى يقتنع.

خالد أيضًا فعل الشيء نفسه.

اشتعلت نيران العتب بين الأبناء والآباء، بين جيلين مختلفين في التفكير.

كان الصراع يوحي بذلك، من خلال ما جرى من محاولة حوار تلك الليلة بين مريم وخالد.. وشرعا وخلف.. ثم تحول هذا الحوار بين كل أم وابنها.. وبين كل أم وعواطفها..

كم تمنت لو لم يكن هذا الإعجاب.. بين ابنها وبنت أختها كما جرت المناداة بينهما.. كان هناك أمل أن يتحقق هذا الحلم.. رغبة في تحقيقه.. لكن المخاوف كانت تعصف بالجميع..

كانت كل أم تشارك ابنتها في التحسر على حظ ابنها العاثر أمام هذه العقبات.. والتحسر على فوات تلك الجوهرة..

كانت كل من شرعا ومريم تخفي في نفسها مأساتها وتكتم تحطم عواطفها.. لذلك قررتا عدم الاجتماع كقرار منفرد حتى تزول وتنحل هذه العقدة..

كما كانت كل واحدة تخفي عن أختها ذلك الموضوع.. أول موضوع يخفى عليهما.. ما أغرب الأقدار؟!

بعد صلاة الجمعة كان الجميع يتناول الغداء عدا ذلك الثنائي أسعد وحجاب اللذين كان حضورهما مجاملة فقط..

خرجا بعد أن بدلا ملابسهما وعزما على الذهاب إلى الكلية حتى يقضيا الأسبوع الذي كانا طوال ثلاث سنوات يحلمان به، أرادا أن يتوقف الزمن فيه لأنهما كانا يريان فيه انهيار أحلامهما، تقابل الاثنان في ذلك الجو

الكئيب وهما يعرفان أنهما لن يستطيعا الكلام، عاد كلاهما إلى منزله، وعندما سأل خلف ابنه عن سرّ عودته أجابه بأنه ينتظر رحيل أسعد..

علم خلف وأدرك فداحة تلك الشحنة من القبلية التي قدمها إلى ابنه.. حمله معه وأصرّ على أن يوصله هو.. كان الوقت باكرًا على موعد ذهاب حجاب إلى الكلية وكذلك أسعد، كانا يرغبان في الفرار من ذلك المنزل من تلك الوجوه فقط .. من كل شيء في هذا المحيط..

سأل خالد ابنه: لماذا لم تذهب مع حجاب.. أجابه بأن والده قد أوصله.. أدرك خالد أيضًا هذا الأمر في نفس ابنه، فلأول مرة ينادي خلف باسم غير مسبوق بكلمة (عمي) كانت الأقدار تعاندهما.. لقد مر هذا الأسبوع مرور البرق عليهما..

كانت فرحة زملائهما بالتخرج وتبادل الأرقام.. والتقاط الصور إلى آخر تلك الأساليب المعبرة عن الفرح لا تعني لهم شيئًا.. كان حفل التخرج في الكلية يوم الثلاثاء.. وكانت حفلة الوالدين يوم الخميس إذ كان يوم الأربعاء يومًا كئيبًا.. يوم الخميس كان الجميع يباركون للشابين ووالديهما.. لكن كانت هناك غيوم تلوح في الأفق.

كان المدعوون من أقارب حجاب، أما البقية فأحضرها خالد من أقاربه ليبين لهم مدى نجاحه.

كان يريد أن ينتقم لوالده، لكل ذكرياتهم.. أحضرهم على حسابه، وأسكنهم في أرقى الأماكن..

لأول مرة يتعرف خلف على النسب الكامل لخالد الذى كان أخفاه عنه.. ولأول مرة يرى خلف مدى إعجاب خالد بنفسه.. كان يعرف بأقاربه واحدًا تلو الآخر.

أخبر خلف أنه متأكد أنهم لم يأتوا لمشاركته في فرحته.. وإنما جاؤوا خوفًا من أن يطالب بشيء من حقوقه..من ذلك الانتماء الذي قطعه الظلم.. لولا ظلم أقاربه لما رحل أبوه وعمته.. عن أرضهما.. لولا الظلم والتحدي لما قال صلى الله عليه وسلم وهو ينظر إلى مكة يوم الهجرة: (والله إنك أحب بقاع الله إلي ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت).

كان يقول لخلف إنهم أتوا لرؤية أملاكه ومدى حاجته إليهم.. أو مدى حاجتهم إليه.. فهم لا يعرفون عنه شيئًا منذ آخر زيارة لهم أثناء مرض والده.. يعتقدون أنه يود العودة إليهم.. إما لفقر.. وإما لحاجة.. وإما لنقل نعرة.. لذلك أغراهم بهذه الدعوة والسكنى على حسابه لكن هيهات.. أن يعود إلى أناس مثل هؤلاء.. هيهات..

كان يعرف خلف عليهم هذا ابن عمي الشيخ فلان ابن فلان شيخ تلك القبيلة المعروف امتدادها في التاريخ وفي الوطن العربي.. كانت هذه أولى صدمات خلف ..

هذا ابن عمي.. الدكتور / فلان ابن فلان.. وهلم جرًا..

أخيرًا أمام هذا المشهد الهائل من الحسب والنسب

والانتماء القبلي.. ظل خلف صامتًا مكتفيًا ببعض عبارات الترحيب.. بين وقت وآخر.. أسعد لم ينظر إليهم أكثر من نظرة ضيوف جاءوا وسيرحلون مثله في ذلك مثل حجاب..

حجاب وأسعد لم يفرحا تلك الليلة إلا بشيء واحد وهو أبو حاتم.. واللواء مازن.. لم يتوقعا يومًا أن تجمعهما الظروف بهاتين الشخصيتين في مناسبة عامة، فلماذا يحضران مناسبة لهما خاصة.. لكن سرورهما هذا لم يدم عندما قال اللواء مازن مخاطبًا الوالدين: (الحمد لله) أخيرًا شفتهم في بيتك..

لاحظ الدهشة على وجوه أولئك الشباب.. فأخبرهم قصته مع والديهما، من البداية كان يمارس دور أبي حاتم في نقل الخبرة.. كانت دهشتهما شديدة من حضورهما رغم كثرة مشاغلهما.. لكن إذا عُرف السبب بطل العجب.. أقارب خلف جلهم حضر، كانوا قد أتوا مباركين داعين بدوام التوفيق وإن لم يخل الأمر من بعض الحسد.. فهو من يدينون له بتلك الجمعية الخيرية مع خالد.. كانت فعلًا ليلة من ليالي العمر..

بعد العشاء تقدم أقارب خالد وأصروا على دعوتهم لزيارتهم رافضين أي اعتذار .. قبلت الدعوة وبعدها تقدم أقارب خلف وفعلوا مثلهم.. سافر الآباء مع أبنائهم بعد أن أنهوا إجراءاتهم إلى تلك الدولة العربية الشقيقة.. ووصلوا إلى أقرباء خالد حيث كان الترحيب بهم مبالغًا فيه.. جدًا..

لاحظ خلف شدّة حفاوتهم به.. وأخيرًا استدرجه ذلك الشيخ إلى حديث غريب عن علاقته بخالد.. كان حريصًا على أن يفهم كل كبيرة وصغيرة عن خالد.. منذ سفره.. خاطبه خلف قائلًا: المشكلة ليست في خالد بل في أبي خالد ..

يلمح إلى معرفة سرّ تلك الهجرة.. في اليوم التالي قام ذلك الشيخ وأمام الجميع بتقديم عرض مذهل..

أخبر بكل الحقائق عن الخلاف الناشب بين والد خالد وعمته من جهة، وبين باقي الأخوان من جهة أخرى. أخبر بكل ما كان خالد يعرفه.. لقد حفظه خالد عن ظهر قلب من أولئك المظلومين.. ثم عرض عليه رد نصيب والده وعمته إليه.. وأنهما مستعدان للاعتراف به ومقاسمته المال، كان هنالك جيل يحاول أن يمحو آثار خطايا الآباء، لكن خالد كان مصرًا على إبقائها.. كان يتذكر تلك الكلمات من أبيه وعمته عندما يخرجانها بحسرة: (حسبنا الله على من كان السبب).

كان لا يزال يتذكر حتى وجه هذا المتحدث عندما كان والده يرفض الاعتراف به أو تقديم المساعدة قبل وفاة والده.

لمّح إلى ذلك خالد.. أجابه ابن عمه بأنهم ما زالوا موجودين ومن كان العقبة قد مات، لكن خالد رد بكل ثقة: (لقد تغيرت الآن القناعات) قناعاتي في ذلك اليوم كانت

أني ابن هذه القبيلة.. وأني ملك الأقرباء.. أما الآن فقناعتي أنني ابن ذلك الوطن.. ذلك الوطن الذي عدل لأبي يوم أن ظلموه.. ذلك الوطن الذي أعطاه يوم هم منعوه.. ذلك الوطن الذي احتواه يوم طردوه...

كانت كلماته قوية ومؤثرة لسبب واحد وهو أنها نابعة من القلب..

عمّ صمت رهيب وبعدها استأذن الجميع في الرحيل..

عاد الجميع إلى الوطن..

أثناء الرحلة كان الصمت رهيبًا فالشباب مع أحزانهم وخالد مع مشاعره وخلف أمام إعجاب وإكبار لهذا المدعو خالد.. ولوالده.. كان أمام حجاب بصيص نور وأمل عندما عرف قبيلة خالد لكن خالد أطفأه برفضه الاعتراف بهم.. عاد الجميع مكرهين.. ذهب الجميع إلى أقرباء خلف وكانت حفاوتهم بهم أيضًا بلا حدود..

كانوا يعبرون لخلف وخالد عن فرحتهم بهم وامتنانهم لهم.. كان خلف يتفحص أقاربه واحدًا واحدًا عله يجد من يشارك خالد في صفاته..

كان يسأل نفسه لماذا لم تكن هذه الصداقة التي تجمعه مع خالد هي ذاتها بينه وبين أي شخص من أفراد قبيلته؟

لم يجد بينهم مثله وكيف يجد؟

وكل واحد منهم ينظر إلى الأمور بمنظار مختلف؟

عاد الجميع لكن بكثير من التغير، أصبح خلف ينظر إلى خالد نظرة الإكبار ليس لمقارنته بأقربائه إنما لشيء لم يعرفه.

أصبح خالد ينظر إلى خلف بشيء أكثر من الأنسنة، لقد لحظ تلك الكلمات التي كان يثني بها خلف على خالد متأكدًا أنها نابعة من القلب..

إنسانة واحدة كانت تعي آلام حجاب إنها حنان لقد عرفت أنه يريدها.. لذلك كانت تعاني آلام أخيها وآلامها هي..

لم يختلف موقف سارة أيضًا رغم عدم يقينها من موقف أسعد تجاهها، لكنها أدركت عمق ألمه من موقف والدها..

الوالدتان أيضًا عانتا صراعًا قاسيًا.. تلهبه تلك العاطفة نحو الأبناء.. والرغبة في طاعة الزوج، كلٌّ يلعن تلك الكلمات التي نطق بها إلى ابنه وأسرته، كان كل واحد يعلم أن الآخر هو أكبر من كل العالم..

كم تمنوا لو عادت اللحظات علهم يتداركون تلك الكلمات، لكن الكبرياء داخلهم يرفض الانحناء للأبناء، كانوا يتمنون لو أنهم يعيدون المحاولة لكن للأسف هؤلاء الأبناء نشأوا على الطاعة العمياء..

بعد عشرة أيام سيغادر الولدان هذا المنزل وكلٌّ

سيتجه إلى حيث يتم توجيهه.. كان الوالدان يعلمان ذلك.. أترى تكون آخر الأيام في هذا المنزل مع هذه الغمامة السوداء.. التي أمام طريقهما؟..

أتراها تكون هذه الأشواك هي أولى خطوات طريقهما؟..

كان الولدان قد اتخذا قراراتهما قدما طلبات عن بعض رغباتهما إذ كان حرصهما كبيرًا على البعد.. لذا صدرت قراراتهما..

حجاب إلى منطقة حدودية.. وأسعد إلى إحدى الوحدات في الحدود الشمالية.. كان حرصهما كبيرًا على الابتعاد وإخفاء هذا السر.. كانا يريان في الابتعاد.. وسيلة للوصول إلى تلك الرغبة وتحقيق الطاعة للوالدين.

باشر كل منهما عمله في منطقته وبدءا يغرقان نفسيهما فيه، محاولين جهدهما صرف طاقاتهما في عملهما.. أسعد قد بلغ ذلك المخيم المقام في رفحاء للاجئين.. ظل هناك.. يقنع نفسه بأن هذا الفاصل المتمثل في آلاف الكيلومترات سيكون كفيلًا بإبعاده عن أحزانه.. مثله فعل حجاب في أحد تلك المراكز المنتشرة هناك، كان يقضي جل وقته في عمله.. أعتقد أن البعد كفيل بكل شيء.. وأن حنان سرعان ما تتزوج وتنتهي كل الإشكاليات، كانا يحادثان أهلهما بشكل دوري كل أسبوع دون أن يتطرق أحدهما إلى عائلة الآخر. كان حديث كليهما مقتصرًا على أهله فقط.. تلك

المكالمات كانت أكثر من قبل أسعد، أما حجاب فقد كان مقلًا نوعًا ما بحكم عمله أيضًا.. تلك المكالمات التي كان يكذب فيها الاثنان كل يخبر عن صديقه وعن نفسه بأنه بأتم العافية والصحة.. يخفيان تلك الجروح المنقوشة في أعماقهما كما يخفيان آثارها، بعد حوالى ستة أشهر انقطع حجاب عن الاتصال.. لظروف خارجة عن إرادته.. حاول والده التصبر لكنه لما عجز قرر أن يدخل حجرة ولده.. قرر أن يشمّ رائحته في غرفته وفي بقايا ملابسه.. جلس على ذلك الكرسي بالقرب من الطاولة.. كان ينظر إلى كل زاوية وإلى كل جزء ليخفف بعض أشواقه.. تمنى أن يرى صورته ففتح درجه ذلك وبدأ يبحث عن صورة.. أخيرًا وجد الألبوم الخاص بالصور.. كانت مجموعة من الصور قد أخذت منه إنه يعرفها.. فهي صور له مع أبنائه.. لكن ما شده حقًا.. هو تلك الصورة العتيقة له.. يوم أن جاء من تلك الصحراء.. أخرجها تأملها.. كان يتذكر ويقارن بين الماضي والحاضر.. أراد إعادتها لكن شيئًا ما دفعه إلى قلب الصورة.. وإذا قد كتب عليها.. كم أحبك يا أبي..

كان الخط رديئًا قديمًا لكنه مقروء ومؤرخ في أواخر التسعينات الهجرية..

أخرج الصور وبدأ.. ينظر إليها كانت جميعًا تحوي العبارة نفسها بعدة أساليب.. عدا صورة واحدة وهي تلك التي أخذت له وهو في زيارة أقارب خالد كان مكتوبًا عليها والدي العزيز..

أعجبته تلك المشاعر التي يكنها له ولده حتى في هذه الصورة.. أعجبه ذلك الثبات في موقفه العاطفي نحوه..

كان يحاول منع دموعه.. لفرط الحنين إلى هذا الابن.. شدته تلك الورقة الساقطة في أسفل الدرج وهي ممزقة.. كان متأكدًا أنها تحوي هي الأخرى سرًا من أسرار ابنه.. كان يعرف أن ابنه يجيد كتابة الخاطرة، لذلك أخرج تلك الأجزاء وبدأ يلملمها.. حضرت شرعا.. وشاركت زوجها.. في هذه المشاعر رغم عدم رضاها عن اقتحام خصوصية ابنهما..

لكنها شاركته رغبة أشد من رغبته في معرفة محتوى هذه الورقة.. أحضرت اللاصق وقاما معًا بتجميعها كانت الأجزاء كبيرة نوعًا ما.. كان ينوي حجاب إحراقها.. كانت بدايتها تنم عن مشاعر مضطربة ابتدأ الأب القراءة.. لكنه بعد فترة قرر القراءة بصمت.. كتب يقول:

والدي العزيز.. أمي الحنون..

من ابنكما البار بإذن الله إليكما قررت الكتابة.. قررت أن أكتب لكما شيئًا عما يدور في خاطري.. نحوكما قد تتساءلان لماذا لم أقله لكما..

لأنكما أكبر وأعظم.. من أن أسمح لنفسي بالحديث أمامكما..

أشكر لك يا أبي حسن تربيتك.. ما زلت أذكر كل الأيام التي ضربتني فيها.. يوم كنت في الصف السادس..

حينما كذبت عليك وقلت إنني صليت.. كنت ألعب مع أسعد يوم ضربتني وأنا على السطح في الصف الأول ثانوي أذكرهما وأنا أدخن مع أسعد.. وتهديدك بإخبار العم خالد..

هاتان المرتان فقط أذكرهما لك.. لذلك أقول شكرًا بكل تواضع.. فلولا عقابك لما كانت استقامتي.. لكن دعني أخبرك أشياء أكثر لا أذكر جلها..

يوم كنت تلعب معي أنا وأسعد لعبة الجمل وتحملنا على ظهرك..

يوم كنت تصرخ بلهفة لي أو لأسعد عند سقوطنا سلامتك..

يوم كنت تأخذ أسعد عن يمينك وأنا عن يسارك في تلك الفروة أيام البرد القارس.

يوم كنت تعطينا الحنان بلا حدود.. فأي شيء سوف أتذكر.. يكفي شعوري بحسد أسعد عليك..

والدتي الحنون..

دعيني أشكر لك أولًا طول صبرك علي.. وثانيًا اسمحي لي أن أعتذر عن كل ما سببته لك من ألم.. أو خيبة أمل..

أذكر ضرباتك أكثر بكثير من ضربات أبي.. لكن دعيني أخبرك أمرًا.. هل تعلمين بأنها كانت جميلة كم تمنيت عدة مرات.. أن تعيديها علي..

هل تذكرين مساوماتي لك في بداية دراستك وانتقامك مني فيما بعد..

كنت ترفضين حل الواجب لي وعندما أذكرك بماضينا.. كنت تقولين لي: من قبض الأجر حوسب بالعمل..

أشكر لك تلك التربية القائمة على ضرب المثل..

أشكر لك ذلك الكف الذي صفعتني إياه يوم ضربت حنان.. ذلك الكف الذي قمع كل تميز لي أمامها.. أشكر لك تلك المساواة..

أختي وشقيقتي،شعرة وجهي..

أكتب لكي شكرًا.. بقدر عظمتك...

بقدر ما كنت تؤثرينني على نفسك ....

فأنت من كنت تدفعينني إلى الأمام........

أكتب لك كل تلك الذكريات التي عشتها معك..

أشكر لك تلك الكلمات التي أحسست معها لأول مرة برجولتي.. يوم حادث أسعد.

أتذكرين عندما سألتك ماذا أصنع؟

أجبتني بكل اختصار وكل شمول لو كنت مكان أسعد ماذا تتمنى أن يفعل لك؟

أشكر لك كل ذلك؟

أشكر لكم جميعًا حبكم بعضكم لبعض.. أشكر لكم حبكم لي واسمحي أخيرًا.. لي أن أعتذر منك يا سارة عن ذلك الموقف المحرج الذي وضعتك فيه مع رفيقة حياتك؟

لكن دعوني أعتب عليكما وأغضب عليكما وأبتعد عنكما..

نعم أبتعد عنكما حتى أتعلم اليأس.. حتى أتعلم الانكسار والهزيمة..

فقد صنعتما مني بتربيتكما لي عظيمًا لا يعرف الهزيمة أو الانكسار..

ولن أخيب أملكما، سأظل في أعينكما كما كنت دومًا، المطيع لكما، سأدوس قلبي.. قلبي الذي خفق لأول مرة.. كان قدره أن يتحدى أطهر القلوب وأقرب القلوب إلي.... لذا قررت الرحيل قررت حملكما وحدكما.. في قلبي لن أسمح لغيركم بالعيش فيه طالما من أراده لا تستطيعان التعايش معه..

لن أخذلكما مهما كلفني الثمن..

وكما قلت هي من ابنكما البار.. سأظل بارًا ما حييت بإذن الله..

إياكما والغضب فلولا أن الله حرم الانتحار.. لقمت به.. وإن كنت لا أزال أفكر فيه، وتركتكم تذكرون ابنًا كان هنا يومًا وقد مات وهو بار بكم..

التوقيع ابنكما الذي لم يقل يومًا لكما (لا).

كانت بعض الكلمات تجلد ذات خلف أكثر من غيرها، كانت دموعه تسيل وهو يقرأ..

كانت شرعا تنظر إليه وتشاركه في بعض دموع الأشواق كما ظنت، لكنه عندما خرج دون أن يحرك ساكنًا كانت الأم تجري بين السطور، أدركت متأخرة جدًا أن خلف كان يبكي دموع ندم لا أشواق.. نهضت كانت تريد أن تفاتحه بالأمر، أدركت قوة الصدمة الواقعة على خلف.. فالفتى سرّ أبيه يفيض عاطفةً جياشة.

عندما خرجت من الغرفة صُدمت بمنظر خلف وهو أسفل الدرج بعد أن سقط عنه.. كان خلف يفكر في كل كلمة في خطاب ابنه.. يفكر في أحاسيسه وعواطفه.. كان يرى مدى ثقة ابنه به.. حتى البنت عرف رأيها.. لم يكن يرغب في أن يحرج موقف أبيه أمام خالد برفض حنان أدرك أخيرًا مدى ظلمه.. كان يتذكر هاتين الكلمتين الابتعاد والانتحار.. وتفكير ابنه فيهما.. كان بسببه هو ونظرته القبلية تلك، كل تلك الدموع لم تخفف من ضغطه على نفسه.. أغمي عليه وسقط.

صرخت شرعا بأعلى صوتها.. تلك العادة التي لم تستطع أن تتخلى عنها إلى الآن.. حضرت الخادمة وسارة التي أسرعت بطلب الإسعاف وقدمت معلومات مبسطة عن الحالة وعنوان المنزل..

استغرق الأمر دقائق كانت حنان مشغولة بقياس التنفس والدورة الدموية ومحاولة وضعه في وضع أحسن مما كان عليه..

لم يقطع كل ذلك إلا ذلك الصوت المنادي للإسعاف أمرت الخادمة بفتح الباب، كان خالد بين المصدق والمكذب لتلك الصيحة.. لذا خرج إلى الحوش. . .

لم ينته من استدارته إلا وهو يرى طاقم الإسعاف يندفع ناحية بيت خلف عابرًا تلك المساحة من الحوش.. وصل إلى الباب قبلهم ودخل معهم، حملوا خلف شبه ميت وانطلقوا إلى المشفى.. كان خالد يبدل ملابسه بينما مريم وحنان تركضان صوب بيت خلف، لم يكن هناك أحد ليجيب، لا أحد يعلم غير شرعا التي دخلت نوبة من البكاء شبه الجنوني، سألتا سارة فأجابت وهي تبكي بأن أباها سقط من على الدرج.. كانت مريم حريصة على تهدئة شرعا إلا أن تلك الورقة التي كانت تحملها شرعا بيدها رغم هذا الموقف.. يدل على أن بها شيئًا خطيرًا.. كانت مريم تود أن تعلم ما سر هذا السقوط.. كانت شرعا راغبة في أن لا يقاطعها أحد في هذا البكاء وأن لا يسألها أحد عن أي شيء.. لذا قدمت تلك الورقة إلى مريم التي قرأتها وأخذت تجاري شرعا في البكاء..

كانت تشارك شرعا في الفاجعة بحجاب وحنان وتخفي أسعد بينما شرعا تبكي الثلاثة حجاب وحنان وخلف..

مرت الساعات ثقيلة..

اتجهوا إلى منزل خالد وجلسوا في تلك الصالة... يعصف بهم القلق.

فجأة رن جرس الهاتف.. لم يكمل الرنة الأولى إلا وسارة ممسكة بسماعة الهاتف، كانت تنتظر صوت والدها أو على أسوأ حال صوت عمها خالد.. لكن الصوت كان صوت أسعد يا لهذه الأقدار!.

حتى في أشدّ مواقفها تعقيدًا كان يطل.. طلب والدته.. لم تطل الحديث أخبرته بأنهما تنتظران مكالمة هامة وأغلقتا الخط..

كان قلبه يخبره بأن هناك أمرًا ما..

بعد ساعة أعاد الاتصال وأمام إلحاحه أخبرته أمه.. أغلق السماعة وغاص في التفكير.. اتصل خالد.. أخبر زوجته التي أشارت عليه أن يكلم شرعا ويطمئنها، أمام إلحاحها واستقصائها.. بدأ بالاستفسار عما حدث.. سألته لماذا؟

قال: الدكتور يقول صدمة عصبية.. أدت إلى جلطة؟

سألته عدة أسئلة كانت مريم والبنات يستمعن إلى المكالمة.. ويفهمن الحوار.. أخذت سارة السماعة وسألت عن حالة والدها.. أخبرها أنه في غيبوبة.. وطالبات الطب يعلمن معنى هذا الكلام..

أخذت حنان سارة إلى حجرتها لأنها كانت تعرف ما تريده.. كل ما كانت تريده هو أن تبكي.. أن ترسل دموعها..

كانت تعلم بأنها لا بد أن تفعل ذلك.. لسبب بسيط جدًا أنها هي كانت راغبة في القيام بالشيء نفسه، كانت تريد أن تندب أباها.. فهي لم تشعر يومًا تجاه خلف إلا بهذه العاطفة، كان عطاؤه لها هو عطاء الأب لابنته، لا تذكر أنه يومًا ناداها باسمها مجردًا بل كان دائمًا مسبوقًا بكلمة بنتي.. كانت تذكر أيامها مع والدها خلف.. تذكر ذلك الحرص عليها.. تذكر ذلك اليوم.. يوم أن فاتها الباص هي وسارة.. لقد حضر ليأخذهما كان واضحًا على وجهه الإرهاق.. لكنه قال كلمة واحدة هي ثاني مرة: يا بنتيّ لا تغفلا عن الباص.. كان يوجه نصيحة فقط.. لا أكثر ولا أقل.. كانت تعلم أنه لم يقلها تبرمًا.. أو استهجانًا.. كانت تذكر حرصه على أخيها أسعد ووالدها في تلك المحنة.. ما زالت تذكر وصاياه لحجاب يوم أن سافر مع أسعد ووالدها.. بأن يكون هو الجمل الذي يحمل همومهم.. وأن يكون هو الجبل الذي ينشدون.. كانت تعلم أن تلك الكلمات لا تقال إلا من رجل.. قد حنكته التجارب.. كانت تعلم بأن خلف كان يدرك أبعاد وعي ابنه..

أما مريم فكانت تحاول تهدئة شرعا.. تحول الحديث عن تلك الورقة.. تحدثت مريم وقالت: ما الموضوع يا شرعا.. أخبريني..

كانت شرعا تنتظر هذا الطلب.. لم تكن تعلم بحال

أسعد وأسرته مع رغبته في ابنتها سارة.. لذلك اندفعت في الحديث.. بلا تحفظ.. أخرجت كل ما في صدرها من حقد على هذه الأعراف.. بثت كل ما في صدرها من هموم تجاه حجاب.. ورأفة بحالة حنان.. كانت تراها ابنتها.. كانت تتمنى أن تكون من نصيب حجاب.. كانت حريصة عليها أكثر من حرص حجاب نفسه..

بعد أن انتهت كانت قد خفت تلك الدموع وتلك التأثرات.. كان شيء هناك يشد شرعا إلى متاهة من الحزن أكبر.. كانت تلك الكلمات التي أطلقتها مريم.. أشد صدمة لها.. عندما قالت: هذا حجاب سوى كذا علشان حنان.. أجل وش يسوي أسعد.. كانت شرعا منصتة أخبرتها مريم عن شكوكها أن يكون لابنها علاقة في تعيينه في تلك المنطقة الحدودية.. أخبرتها عن غموض حديثه في اتصالاته.. كانت تستعرض طفولته لولا تلك المكالمة..

كانت الساعة قد قاربت الثالثة فجرًا، الجميع انطلق إلى مصدر ذلك الرنين.. كان الهاتف.. أما المتصل فقد كان أسعد.. كان يشاركهم في قلقهم رغم بعد المسافة.. أخذ كل التفاصيل.. في اليوم الثاني حضر أسعد، لم يذهب إلى منزله ليسلم على أمه وأخته.. بل ذهب إلى المشفى لكي يطمئن إلى عمه خلف..

ذلك العم الذي كان يعتقد أن بإمكانه نسيانه.. وجد والده بجواره.

لم يكن خالد.. يقف مع خلف، بل كان يشعر أنه يقف مع ذاته مع كل كبريائه وإصراره..

يشعر أنه يقف مع ذلك الجزء من نفسه.. الذي كان دومًا مظلمًا وكان دومًا مغيبًا.. كان دومًا حزينًا.. كانت مشاعر خالد واضحة لكن مشاعر ابنه كانت أكثر وضوحًا.. لم يستطع أن يتحمل كون عمه خلف في غيبوبة..

كانت دموعه تفضح كثيرًا من عاطفة صادقة نحو هذا الرجل.. كان والده يدرك معنى تلك الدموع.. إنها عبارة عن حسرة لشيء كبير..

كانت عاطفته نحو عمه خلف لا يساويها سوى عاطفة أبنائه نحوه.. رغم أنه لم يبح بذلك يومًا.. لقد تعلم من والده الكتمان..

لكن دموعه اليوم تفضح كل شيء.. تفضح هذا الاكبار والاعجاب بهذا الرجل ..

كانت دموعه تحسرًا على حال هذا الرجل..

واحتجاجًا صامتًا على هذا القدر..

كان خالد يدرك كل ذلك، نعم يدركه.. حاول أسعد أن يظل مع عمه خلف وأن يذهب والده إلى المنزل لكن والده رفض.. حاول مرة أخرى أجابه خالد: أسعد أنت لا تعرف خلف مثلي هذا أخي.. قالها بحزم وعيناه مركزتان على عيني ابنه يريد إقناعه.. لكنه لمح في عيني ابنه نوعًا من الاستغراب لهذه الكلمة..

لذلك تذكر موقفه من رفض طلب ابنه أن يخطب له بنت خلف.. كان يدرك ذلك.. انحنى أسعد ليقبل ذلك الجبين الغائب عن الوعي، لكنه لم يستطع النهوض، لقد فقد كل إحساس له بالمكان أو الزمان أو الحال، أدخل أسعد يديه تحت عنق خلف وحضنه وراح يبكي في صمت.. ظل يناديه مخاطبًا إياه مثل طفل صغير، كان يخشى أن يرحل عنه.. كان يتشبث به بكل قوة، كان مشهدًا حزينًا جدًا.. نابعًا من القلب.. كان نداؤه له تارة يا عم خلف... وتارة ألف لابأس.. كان مشهدًا حزينًا.

أثر المشهد في كل الزوار الموجودين في ذلك القسم لولا انطلاق أجهزة حساسة مثبتة في ذلك الجسد على السرير.. كان خالد ينظر مثل المشدوه دون أن يقوم بأي حركة.. كان غارقًا في حزنٍ أليم..

حاول الزوار رفع أسعد. لكن حضور الأطباء والممرضين جعلهم يتراجعون.. كان الجميع ينطق بالشهادة.. اعتقدوا أن المريض قد فارق الحياة.. لم يعدهم إلى وعيهم غير حرص الأطباء على أن يبعدوا أسعد.. استطاعوا إبعاده.. لكن بعد أن فارق الوعي..

انصرفوا إلى خلف.. الذي تحلق حوله الأطباء استدعوا الاستشاريين، كان خالد ينظر وكأن الأمر لا يعنيه، ينظر إلى خلف وابنه أسعد على السرير المجاور له.. لم يدرك أي شيء، كان غارقًا في قراءة حجم عاطفة ابنه أسعد لخلف منذ طفولته..

كان غارقًا في محاسبة ذاته.. لولا ذلك الصوت المبحوح الذي أعاده إلى عالمه.. أعاده إلى الأحداث.. كان صوت خلف الذي لم يكن يناديه أو ينادي ابنه.. بل كان يجيب عن بعض أسئلة الأطباء.. لقد أفاق.... لقد سبقت رحمته.. لقد استجاب قلب وإدراك خلف لعواطف أسعد.. كانت حرارة دموعه كافية.. كان صدق عواطفه كافيًا. كل شيء وأي شيء كان كافيًا ليعيد هذا الرجل من دنيا الأموات، سلم عليه.. قاطع الأطباء.. سأله عن حاله فأجابه بكلمة واحدة وهي الحمد لله.. كان ينظر إلى أسعد وهو بجواره تحت تأثير ذلك المهدئ..

سأل لماذا حضر ومتى وكيف؟ كان يريد أن يجيب خالد.. لولا تدخل الأطباء وإخراجهم خالد..

أخبروه بأنه ليس من المناسب الحديث معه الآن.. التزم قاوم كل شيء.. كان حريصًا على سلامته.. أكثر من أي شيء آخر..

سأل عن ابنه.. الآن فقط يسأل عن ابنه.. اكتشف الآن مقدار حبه لأسعد.. أخبره الطبيب بأنه قد حقنه إبرة مخدرة حتى يتمكن من إبعاده عن خلف وتهدئته.. وأنه سيفيق بعد نصف ساعة.. كانت أكثر من ذلك قليلًا لكنها كانت طويلة جدًا بالنسبة إلى خالد..

لقد أعاد النظر في كل شيء.. وكان سيستمر لولا.. صوت ابنه أسعد.. سمعه يتحدث مع عمه خلف.. أشار إليه

بالانسحاب.. كان سؤال واحد محير لأسعد عندما سأله عمه خلف عن ابنه حجاب. أجابه ببديهة أنه سوف يحضر وأنه في الطريق.. لكن خلف كان مستبعدًا حضور ابنه، كان يتذكر كل كلمات ولده له ولأمه وأخته أثناء وداعهم.. يتذكر إصراره على أن يسافر برًا لا جوًا، يتعرف أسباب أخذه لصوره فقط دون تلك الصور التي تجمعهم معًا.. توصل إلى نتيجة واحدة فقط هي أن ابنه كان يعي تمامًا قراراته..

وتلك الاتصالات شبه المتقطعة والقصيرة كان متأكدًا أن ابنه ماضٍ في ما قد عزم عليه من الابتعاد أو الانتحار.. كان أسعد مستغربًا نظرات عمه إليه..

لم يكن يعرف سر هذه النوبة لخلف، لم يكن يدرك أو يعلم بقرارات حجاب، لكنه كان عارفًا شيئًا واحدًا فقط هو مقدار عاطفة حجاب نحو أبيه.. استأذن عمه خلف بعد تلك الإشارة من والده الذي طلب منه الذهاب إلى المنزل.. عندما وصل إلى آخر الممر استدعاه والده مرة أخرى..

سأله سؤالًا واحدًا فقط: أما زلت ترغب في سارة؟

ظل أسعد صامتًا لبعض الوقت.. كان خالد قد قرر أن يبدأ التغيير في التعامل مع ابنه.. كان يريد لهذا الحب الفطري الطاهر بين خلف وأسعد أن يستمر.. لقد أيقن خالد بأن ما بين خلف وأسعد عاطفة كبيرة.. ملؤها الحنان.. كان خالد راغبًا بكل صدق أن يشارك في هذه العاطفة.. كان أسعد ما زال تحت تأثير تلك المقاومة بين قراره نسيان هذا

الأمر.. وبين عاطفته تلك!!! نحو سارة.. لذلك لم يجب، استدركه والده بصوت عالٍ نوعًا ما لا يخلو من الحنان.. أسعد أما زلت راغبًا فيها كزوجة لك فأخطبها من أبيها؟!

كانت تلك الكلمات وذلك الأسلوب من والده جديدين عليه.. أجابه باختصار.. افعل ما تراه؟!

كان أسعد قد تعود أمورًا من والده.. منها عدم التراجع بعد اتخاذ القرار.. واختيار الوقت المناسب للكلام.. كانت صدمة أسعد غريبة من قبل والده وسؤاله هذا وفي هذا الوقت والمكان!!

وكان استغراب خالد من جمود ابنه ورده البارد هذا أكثر.. خرج أسعد وترك والده مع هذا الاستغراب بينما هو في دائرة لا تخلو من الحيرة؟!!

وصل إلى ذلك المنزل أو إلى مدخل هذين المنزلين.. فتح الباب بعد أن طرق الباب عدة طرقات..

ودخل الحوش.. كان الهدوء رهيبًا جدًا.. في المنزلين لم يدرك حتى الإحساس بنفسه إلا وهو يقرع ذلك الباب.. جاءته الإجابة من الداخل في صورة فتح الباب.. كان هو قد صرف نظره إلى ذلك الحوش وترك ظهره إلى الباب ..

سمع صوت سارة متسائلة بعد أن أغلقت الباب من..؟ أجابها نادي خالتي.. نادت والدتها التي اعتقدت أنها مريم أو ابنتها.. ووقفت بجوارها وقالت: أسعد يريدك..

كانت ملامح سارة وهي تنادي أمها تنبئ بشيء غير متوقع.. لذلك حرصت على سؤالها بشيء من الفزع: وش فيك خير إن شاء الله؟!!

قالت: أسعد يناديك برا؟!

كانت كلمة أسعد تبعث على الخوف؟!

خصوصًا وأنه ليس في منطقة قريبة.. وأنه لم يسبق له أن اتصل بهم هاتفيًا منذ تعيينه ناهيك عن حضوره..

قامت شرعا مسرعة ووقفت خلف الباب وقالت: خير يا أسعد وأنا أمك..

أجابها خير يا خالة أنا توي جاي من المستشفى وحبيت أبشرك أن عمي خلف صحي وأنه طيب الحمد لله!! لم تتمالك نفسها فقالت: أنت متأكد؟

أجابها: نعم. كانت في ذلك الوقت قد وقفت في الباب وهي تستحلفه بالله ويشبابه أن خلف طيب وما فيه شيء.. بل أخبرها أيضًا أن حجاب سوف يحضر.. فقد قام بالاتصال بمدير تلك الإدارة في منطقة حجاب وأخبره بخبر العم خلف..

أثناء انصراف أسعد نادته شرعا فجأة.. ودون إدراك التفت نحوها وهي تقول: (الله يا أسعد ينولك إلي في بالك ويوفقك)؛ أكمل استدارته بسرعة أكبر مما كان بدأها.. نعم.

لمح سارة خلف أمها واقفة.. كان يعلم شيئًا واحدًا ومتأكدًا منه؟! هو أنها لم تقف عمدًا.. كان يعرف أن نشوة السعادة قد غيبتها عن الوجود.... مثل نشوته بتلك السعادة التي دفعته لقرع الباب.. كانت فرحته أكبر منه.. لو لم يجد من يشاركه فيها لمات بها..

وصل إلى منزلهم، قرع الجرس، فتح الباب أيضًا بدون سؤال حتى كانت دهشة مريم عظيمة.. لحضور ابنها..

دخل المنزل.. ارتاح في تلك الصالة.. كان يعتقد أن أخته ستناديه.. ستأتي للسلام عليه.. خصوصًا مع تلك الضجة التي أحدثتها أمه.. وهي ترحب به.. ذلك الترحيب الغريب.. كان ترحيبها به يحمل بين طياته.. شيئًا من التيقن كانت خائفة من أن يكون قد شارك حجاب في قراراته تلك؟!

سأل عن أخته حنان.. أخبرته والدته بأنها نائمة إذ إنها لم تنم منذ يومين.. أخبر أسعد والدته بأنه قد جاء لزيارة عمه خلف.. لم تدعه يكمل حديثه.. بل بادرت بالكلام قائلة: الله يسامح حجاب..

هذه الكلمات وقعت مثل الصاعقة على أسعد.. لذلك لم يدع والدته تكمل زفرتها التي بدأتها بل قاطعها.. وطلب معرفة كل التفاصيل..

حكت مريم لابنها حكاية تلك الورقة من أولها وأرته تلك الورقة.. كان أسعد غارقًا في تفكير عميق.. الآن فقط

عرف سر تغير حجاب عليه.. الآن أدرك كل شيء.. نعم كان يدرك مشاعر حجاب لأنه كان يشاركه في المشكلة نفسها المتمثلة في إرادة أهله..

كان يرى حال حجاب ومشكلته أكثر تعقيدًا من مشكلته أقلها أن سارة لا تعرف مشاعره ولا يعرف مشاعرها.. خصوصًا وأنه بدأ يفهم سبب كلام والده له في المشفى حول خطبة سارة له. الآن يرى مأساته لا شيء كان قلب أسعد أكبر من أن يكتفي بالتفكير في نفسه.. في فرحته.. كان يرى أن عليه أن يتحرك حتى ينقذ أخته وأخاه.. أخته حنان وأخاه حجاب.. من ذلك المستقبل المظلم.. كان يعلم أن خلف لو توفي وهو على موقفه هذا، فلن يستطيع حجاب أن يخالفه بعد موته.. لذلك كان عليه الإسراع في كل شيء..

كم ندم على إخبار مرجع حجاب بخبر والده..

كم ندم على إخبار والده برغبته في سارة..

كم ندم على الاشتغال بنفسه ونسيانه حجاب..

يفكر في كل ذلك وهو في حجرته بينما أمه جالسة طوال هذا الوقت مع شرعا هي وسارة، لقد أتت بعد أن استغربت عدم اتصال مريم بها لتبارك لها في إفاقة خلف من غيبوبته.. كانت قد حضرت هي وابنتها لتشاركا مريم وابنتها في فرحتهما.. كانت الفرحة أكبر من سارة وشرعا.. من ذلك المنزل.. كانت سارة تجاهد لإيقاظ حنان من نومها في الأيام العادية..

اليوم اكتفت بأن قالت لها حنان.. حنان قومي.. أبوي طيب.. كانت تلك الكلمات كافية لتهب حنان واقفة منتصبة أمامها.. كان الجميع في جو من السعادة عدا ذلك المسكين القابع في حجرته.. كانت أخته تسلم عليه وتبارك له وتشكر له هذا الخبر وهذا الاهتمام بعمّها خلف، كما شكرت له على لسان سارة وشرعا اهتمامه وحرصه على طمأنتهما.. كان يحاول أن يبدأ ابتسامة مصطنعة لكنه في داخله كان يبكي بحرقة مصير أخته وحجاب.. كانت نظرته سوداوية إلى حلمهما.. فهو يعرف صلابة حجاب أكثر من أي شخص آخر.. هو يعلم أن حجاب لا يعرف معنى التراجع.. لذلك كان يبكيهم من الداخل.. يعلم أن الحل الوحيد يكمن في ذلك الرجل الراقد في المشفى المدعو خلف، فهو الشخص الوحيد القادر على أمر حجاب بالتراجع أو التقدم.. أو حتى الانسحاب.. هو الشخص الذي لا يمكن لحجاب.. مناقشته أو التفكير في صحة قرارته..

ظل حبيس غرفته غارقًا في بحر من الهموم.. يحاول الخروج منه لإنقاذ حنان وحجاب..

يحاول أن ينجح في الوصول بهما إلى بر الأمان..

خرج من أحزانه على صوت المؤذن.. كان يعلم أنه لن يستطيع النوم..

لذلك عاد بعد الصلاة إلى المشفى..

وصل إلى المشفى وعندما وصل إلى تلك الحجرة..

رأى والده واقفًا بجوار سرير خلف.. بينما كان هناك أحد الممرضين يقوم بإعطائه إبرة في الوريد.. سلم على والده.. لم يجبه بل اكتفى بتلك المحاولة لكتم ذلك النحيب.. لأول مرة يرمي خالد بنفسه في حضن ابنه.. كان يعلم أن الآية مقلوبة في هذا الوضع، كان يبحث عمن ينتشله من آلامه.. كان يبحث عن عطاء ينسيه حرمانه.. كان يرغب في أن يطرد فكرة موت خلف وفقدانه من رأسه.. كان يعلم أن الوحيد الذي يملك تلك المشاعر هو ابنه..

لقد رأى عطاءه فيها..

ظل مرتميًا لفترة على صدر ولده، كان أسعد هادئًا جدًا ليساعد والده على التخفيف عن نفسه.. تنبه خالد وأسعد لصوت الطبيب.. وهو يقول: اذكروا الله.. الموضوع إن شاء الله بسيط..

ثم التفت إلى خالد وطلب منه الانصراف للاستراحة.. حاول خالد الرفض لكن الطبيب أصر ونصح ببقاء أسعد.. أخبر الطبيب خالد بأن الحقنة التي أخذها خلف لن يستيقظ منها قبل العصر.. لذا لابد من أن تذهب إلى المنزل لترتاح.. خرج خالد مكرهًا.. كان في الممر صوت بكائه واضحًا.. لم يكن أحد ليدرك ما جرى، وحده كان يلعن استمراره في الحياة إلى هذا اليوم.. لذا فعندما رآه ابنه بهذه الحالة اصطحبه حتى وصل إلى بوابة المشفى وأصر على أن يذهب إلى المنزل بسيارة أجرة.. يعرف أنه لن يتحرك من تلك المواقف.. وإن تحرك فلن يستطيع الوصول إلى

المنزل.. كان الذهول واضحًا عليه مع ذلك الحزن.. كان أسعد يدرك أن هناك سرًا وراء هذه التغيرات في صحة خلف، كان بداية يعتقد أنه شوق إلى ابنه حجاب.. ثم عدل عن اعتقاده ذلك عندما تذكر تلك الرسالة التي سببت هذه الأزمة فقال: الله يسامحك يا حجاب، وظل يرددها بين الحين والآخر..

اتصل أسعد بمنزل أهله للتأكد من وصول والده..

أخبر خالد مريم بانتكاسة خلف.. كان يرغب في أن يعرف شيئًا واحدًا فقط هو سر تلك الصدمة من أساسها، أخبرته مريم بسر الرسالة.. وأعطته إياها ليقرأها، كان خالد.. يقرأ ويبكي.. كان يقرأ تلك السطور وهو مصدق لكل حرف فيها.. كان حزنه عميقًا وواضحًا..

كانت مريم تحاول التخفيف عنه، فلقد رأى في كل كلمة قرأها شموخًا كبيرًا..

كان يرى في نفسه.. أنانية وغباوة.. نعم..

كان يقرأ أشياء.. لكنه كان يفسر ما يقرأ في ضوء أحداث وتصرفات.. نعم إن كان خلف منع ابنه من الزواج بابنته، فهو يرى فيه خوف خلف على حنان من عصبية وطبقية حجاب..

هذا ما يراه.. لم ير فيه انتقاصًا لحقه وحق ابنته؟!

إذا كان عارض هذا الزواج.. فهو لحرصه على

الفتاة.. وإن كان عارض هو فلرؤيته بأن ابنته ملاك.. وبأن ابنه هو الشيطان..

كان اندفاعه بهذه الكلمات كدفاعه عن خلف وقراءاته.. أمام تلك النظرات والكلمات التي كانت زوجته ترغب في أن تهدئه بها..

أخبرها بعد لحظات من السكوت، بكامل القصة، وبذلك الجزء الذي عاشه لوحده.. قال بعد أن خرج أسعد ومنعني الأطباء من الدخول عليه.. ليرتاح..

ظل هادئًا مدة ثلاث ساعات.. ففي البداية طلب أن يصلي ما فاته من الفروض فسمح له الأطباء.. ثم طلب من الطبيب المختص بحالته.. أن يسمح له باستخدام المذياع والاستماع إلى إذاعة القرآن.. استمع إلى تلك الآيات.. ثم جاء دور مقرئ آخر فقرأ سورة يوسف.... الجميع يعلمون أن خلف يحفظ جل القرآن، كانوا يعتقدون أنه يراجع حفظه لتلك الآيات، وفجأة ارتفعت تلك الأصوات من تلك الأجهزة وما لبث أن حضر الأطباء فانقلب الكيان، كان الجميع يحاولون ويطلبون منه الاسترخاء لكنه كان يصرخ وينادي باسمي فاندفعت نحوه وعندما رآني سألني عن أسعد، فأخبرته أنه في المنزل، فراح يقول بصوت واضح وجازم، بعد أن أمسك بذلك الطبيب وذلك الممرض وطلب منهما الشهادة على ما يقوله، وصيته فحاولت منعه لكنه رفض. كانت وصيته قصيرة جدًا فقد قال: يجب أن تتزوج سارة أسعد وبلغ حجاب أن يعتني بأمه وأخبره أني

مسامحه دنيا وآخرة.. وأطلب منه أن يسامحني. حاولت أن أثنيه.. فأجاب بأنه لا يأتمن أحدًا في هذه الدنيا على ابنته سوى أسعد، ثم كف عن الحديث وكأن ذلك المخدر قد بدأ مفعوله.. فأي تكبّر وأي طبقية في رجل يهب ابنته إلى أسعد وكم هو يفكر في ابنه..

غرق الجميع في نوبة حزن.. خصوصًا عندما بدأت مريم تتذكر تلك السورة من القرآن سورة يوسف وما فيها من قصة مأسوية.. عندئذ فقط أدركت الواقعة.. أدركت مشاعر خلف.. كان خلف يجلد ذاته ويرى في ظلمه لابنه وقساوته أشدّ من ظلم أخوة يوسف له.. كان يرى في قصة يوسف أسبابًا ودوافع لذلك الظلم..

أما ظلمه لابنه فهو بلا أسباب.. وإنما العنجهية عندئذ فقط بدأ ضغط دمه بالارتفاع وبدأت تلك الأجهزة تقرع أجراسها..

كان أسعد غارقًا في حزن عميق.. في حيرة كبيرة.. في قلق بشأن هذا الرجل ..

أخيرًا تذكر حجاب.. لم يصبح حريصًا على حضوره في هذه الأزمة لكنه كان قلقًا بشأنه.. أجرى اتصالًا هاتفيًا بتلك المديرية.. كان المجيب هو سكرتير مدير الإدارة الذي أخبره بأن المدير شخصيًا حاول البحث عن حجز للملازم حجاب لكنه لم يتمكن، وبعد ذلك طلب من الملازم حجاب الحضور إلى مكتبه ثم أخبره بالأمر وأذن له بالتوجه إلى مدينة الرياض.

كان حجاب أثناء اتصال أسعد يطوي تلك الطرق.. منطلقًا بسرعة حتى يصل تارة يدفعه القلق والخوف.. وتارة أخرى الندم على تصرفاته الخرقاء.. كان يستعيد شريط ذكرياته يوم سفره مع الندم.. ويستعيد ذكرياته مع والده في لحظات الحنين والقلق..

قبل بدء الزيارة، كان خالد مع أسرته وأسرة خلف في ذلك البهو.. قابل الطبيب وأطلعه على كل التفاصيل التي عرفها.. سأله عن مدى خطورة حالته.. أخبره الطبيب أن خلف سيفيق بإذن الله.. ولكن المفاجآت لا يمكن تصورها في مثل حالته.. لكن الطبيب سأله عن ذلك الحاضر الغائب المدعو حجاب.. أخبره بأنه خارج المنطقة.. كانت تلك إشارة حسنة للطبيب فالمفاجآت قليلة ويمكن تداركها، طلب منه قبل أن يدخل لزيارة خلف أن يكون حاضرًا لتدارك الأمور.... خرج خالد شاكرًا للطبيب واتجه إلى تلك الأسرة.. صعد بهم عند بداية الزيارة، أخبرهم بأن الطبيب سيحضر أثناء الزيارة.. كانت هذه الإشارة كافية لغرق الأسرة في الدموع، سألت سارة: هل حالة والدي خطرة؟..أجاب لا ولكن تحسبًا لأي طارئ.. أجلسهم في تلك الاستراحة المخصصة للنساء بينما أشار الى ابنه بالخروج إليه.. أخبره والده بأنه أحضر أسرة خلف لزيارته مع أسرته.. هنا قال أسعد أرجو منك شيئًا واحدًا فقط أن تتأخر في طلب سارة.. أجابه خالد هل ترك عمك خلف مجالًا لذلك! استوضحه أسعد لكن طلب الطبيب من خالد

الدخول. بعد عشر دقائق استيقظ خلف.. ثم بدأ الطبيب معه ببعض الحديث حول الانفعال وخطورته على حالته، ثم أخبره بأن هناك زوارًا قلقين بشأنه وهم يرغبون في رؤيته، وعليه أن يتجلد أثناء زيارتهم له إكرامًا لهم..

ثم طلب من خالد أن يحضر الزوار..

شعرت الأسرتان بالفرح الكبير.. لما رأوا من تحسن وثبات على صحة خلف.. كان يناديهم بأسمائهم.. مجردة ويسأل كل واحد على انفراد.. عن صحته وأحواله وكان كعادته.. يوزع الحنان.. يهبه للجميع..

أخيرًا طلب من الجميع الخروج وتركه بمفرده مع سارة، كانت حالته مستقرة، حاول خالد منعه لكن أشار إليه الطبيب بمجاراته.. خرج الجميع وبقي الطبيب الذي انسحب في هدوء بعد أن رأى نظرات خلف له، كان الطبيب يقف خلف ذلك الستار لم يكن يرغب في التطفل.. بل كان حريصًا على خلف، رفعت سارة خمارها لتطبع تلك القبلة على جبين والدها.. أشار إليها بالجلوس فجلست بالقرب من قدميه، أخبرها برغبته في تزويجها لأسعد وسألها عن موقفها من قراره هذا.. كانت تود الصمت.. تود تغيير الحديث لكن إصرار والدها.. دفعها للهروب نعم قررت الهروب. حياء من إظهار مشاعرها أمامه نحو أسعد..

عند خروجها كان خالد مدركًا كل شيء هو والجميع حتى شرعا فهمت ذلك من خلال كلام خالد عندما كان

يردد للطبيب: يا دكتور هذا ما هو وقته يطلع من المستشفى وبعدين خير إن شاء الله..

وتلك النظرات المتبادلة بين مريم وزوجها.. أدركتها شرعا..

دخل خالد وكان الطبيب واقفًا بجواره.. سأل خالد خلف: هل ارتحت الحين؟؟

أجابه خلف: نعم..

قال خالد: أما أنا فلا.. لابد لأسعد أن يخطبها منك، أجابه خلف: وين يلاقي أحسن منها..

كان الطبيب يبتسم وهو ينظر إلى هذه الخطبة في هذا المكان.. التفت إليه خالد وقال: أنا أرغب في أن يخطبها منك ويسمع موافقتك كوالد العروسة.. لا أن يخطبها كوصية من عمه..

أجابه خلف بزفرة عمر الشقي بقي لا تخاف..

خرج خالد وأحضر الأسرتين إلى خلف، بعد ذلك استدعى ابنه أسعد وطلب منه أن يدخل معه، حاول الرفض لكن تحت الإصرار دخل..

كان الطبيب يراقب هذا المشهد الذي لا يمكن أن يتكرر أمامه مرة أخرى خصوصًا في هذا القسم..

دخل خالد وابنه فيما كانت شرعا وابنتها تقفان متجاورتين على طرف السرير، وفي الطرف الآخر

كانت تقف مريم وابنتها في حين كان الطبيب مبتعدًا واقفًا قبالة خلف.

كان خلف في نظراته تلك يقدم شكره لذلك الطبيب...

دخل خالد وابنه ووقفا بجوار أسرتهما ثم تحدث خالد وقال باختصار: أنت طيب والحمد لله وحنا نخطب بنتنا سارة لولدك أسعد.. كانت خطبة غريبة.. نظر خلف إلى خالد وقال: أنت قلتها خالد ولدنا وسارة بنتكم.. مارأيك يا أسعد؟ هل تريد سارة وأنا أبوك.. أجابه أسعد بعد رضاك ورضاها يا عم خلف..

انفعل خالد فقال: أقول أعطني رأيك تسأل أسعد، أجابه خلف: أنت قلتها البنت بنتكم اسألها أنت، سألها خالد: هل أنتِ موافقة وأنا أبوك؟ لم تجب كانت تحاول أن تتوارى خلف أمها.

لكنها من خلف خمارها لمحت نظرات رجاء تقفز من عيني أسعد، قال خلف: السكوت علامة الرضا.. ألف مبروك.. تدخل الطبيب وهو يقول إلى هنا وكفاية. كان الجميع يضحك في حين كان الطبيب قد اقترب من السرير.. بارك لأسعد ولخلف الذي أخذ يتحدث إلى أسعد بشيء من الرسمية وهو يقول له: الآن غصب عنك تقول يا عم.. نسي أسعد كل شيء حتى ذلك الباب وأولئك الزوار.. والمرضى.. كان تركيزه على وجه خلف.. لم يعده إلى

صوابه سوى تلك الصيحة من خلفه.. وذلك الاندفاع وتلك القبل، تدخل الطبيب محاولاً رفعه من على صدر خلف فيرمي بنفسه على قدميه ليبدأ بتقبيلهما.. كان كبرياء خلف وإعجابه بنفسه.. كبيرين.. كان يشعر بحاجة حجاب إليه.. كان يدرك ذلك تمامًا.. ويعرف أن حجاب يعطي هذه العاطفة بلا مقابل.. تدخلت أم حجاب ونهرته واستطاعت إخراجه من تلك الحجرة.. كانت هي الأخرى تتمتع بسلطة غير بسيطة على ذلك الابن...

حاولت سارة التدخل وتهدئته، أخبروها بأن والدها قد تحسنت حالته أكثر مما يتوقعون.. وأن الهدوء أحد أهم الأسباب للعلاج واستمرار حالته.. كانوا يخاطبون طفلًا.. لا يريد أن يتوقف عن البكاء..

استخدموا أخيرًا أسلوب التهديد.. هددوه بطرده خارج المشفى إن لم يتمالك نفسه.. كانت تلك هي عبارات عمه خالد.. تدخل صديقه أسعد فأمسك بيده وخرج به من ذلك القسم بشبه الإكراه، واستطاع إجباره على غسل وجهه وشرب بعض الماء..

بعد ذلك طلب منه أن يرتاح، لكن حجاب كان قلقًا أكثر فقال له أسعد: يا أخي الوالد طيب والله ما فيه إلا العافية!! والحين بتشوفه وتسلم عليه بس اهدأ؟!

كانت شرعا تدور شبه مجنونة وهي تبحث عن حجاب لخوفها أن يخرجه أسعد.. لذلك ما إن رأته حتى قبلته

وأخذت تخاطبه بكل بساطة.. كانت تود أن تستمر في احتضانه والنظر إليه..

لولا ذلك الحرج الذي لمسته من أسعد وحجاب على السواء.. كانت أعين الفضوليين ترقبهم بكل تفحص.. بكل تأمل بكل تدقيق.. أخيرًا قالت: تبي تسلم على أبوك؟ أجابها نعم، فقالت شرط أن تحافظ على هدوئك؟!

كان خلف يدرك شيئًا مما يدور بينهم رغم بقائه على ذلك السرير.. لذلك قال للطبيب.. هذا ابني حجاب وتراه حساسًا يا دكتور!!؟ يا ليت تناديه.. أريده لوحده كانت صدمة الطبيب قوية بهذا القرار.

لم يجد الطبيب بدًا من ذلك؟ لعل ما كان يدفعه أكثر هو استغرابه شدة هذا التلاحم؟في هاتين الأسرتين.

في هذه الأثناء كانت شرعا ومريم وحنان وسارة لوحدهن في تلك الاستراحة.... حاولت حنان التي لا تعلم بأمر هذه الرسالة شيئًا تخفيف الموقف.. كانت تواسي شرعا وتقول: عمي خلف طيب وحجاب يا خالة تعرفي طيبة قلبه لا تستغربي اللي سواه.. وأنتِ يا سارة لماذا تبكي؟ أبوك طيب وأخوك جاء واليوم انخطبتي ..

مازحتها شرعا قائلة: اقرصيها في ركبتها وألحقيها في جمعتها؟

أجابت بشيء من الخجل: لا يا خالة أنا ماني مستعجلة؟

في هذه الأثناء كان حجاب يقف لوحده عند والده مع الطبيب بينما منع أسعد وخالد من الدخول حسب طلب خلف!!

كان يقف والدموع تذرف من عينيه، كان يخشى إن تكلم أن لا يتمالك نفسه لذلك اكتفى بتلك النظرة إلى والده أثناء حديثه؟!

كان يسأله: هاه يا حجاب بشرني عنك؟

كيف حالك؟ كيف زملاؤك في العمل؟

إن شاء الله مرتاح في المنطقة التي أنت فيها؟

كانت هذه الكلمات بما فيها من الحرص تنزل على مسامع حجاب مثل السياط؟ كان يقارن بين حرصه وحرص والده عليه.. يتذكر أنه منذ سفره لم يهاتف والده إلا مرة واحدة.. يتذكر كلماته لأخته غالبًا عندما يوصيها بإبلاغ والديه تحياته وسلامه؟

حتى مرض والده لم يعلم به إلا من مدير إدارته؟

كان يمقت نفسه بصمت.. بينما الطبيب لا يزال واقفًا كاد يطلب من حجاب الانصراف لما أدركه من آلامه..

لولا غضب خلف المصطنع على ابنه؟

وش فيك؟ تعصر لي عيونك؟

أنا طيب!! أنت تفهم!! وإلا لا..

رجال وتبكي وش خليت لأمك وأختك استح يا ولد؟

كان حجاب يرغب في الطاعة.. لذلك بدأ بمسح عينيه لعله يستطيع أن يواري تلك الدموع عن والده؟

كانت كلماته متقطعة مشحوبة وهو يقول لوالده؟ بإذن الله أنك طيب!!

التفت إلى الطبيب وسأله..؟!

تتوقع يا دكتور أشيل عياله؟!

أجاب الطبيب: إن شاء الله؟! لكن السؤال لم يكن في الأصل للطبيب؟! لذلك ظل صامتًا حتى تدخل حجاب؟! قائلًا: يابوي قل خير!!

إن شاء الله عمرك طويل؟! هنا فقط نطق خلف قائلًا؟ إلا علمني أنت باقي تبغى حنان؟! وإلا هونت؟!

كانت تلك الكلمات كفيلة بفرض الصمت على حجاب؟!!

لأول مرة تتصادم قراراته مع قرارات والده.. لقد اتخذ القرار بالنسيان.. فلماذا؟ هذا التنكيل لماذا؟ الآن وفي هذه الظروف؟

كان قد دخل دوامة جديدة مع والده؟!

كان يعتقد أن مرض والده هو السبب في هذا التغيير؟

لم يكن يعلم عن سبب المرض شيئًا؟

ناداه والده مرة أخرى؟!!

أجابه حجاب بعد ما تخرج إن شاء الله خير؟!

لكن إلحاح الأب دفع للسؤال مرة أخرى؟! وعقب قائلًا: إذا كنت تبغي ترى لي شرط. لم يدرك حجاب اندفاعه إلا متأخرًا فقد سأل ما هو هذا الشرط؟ عندئذ فقط علم خبث سؤال والده.

كان يرغب أن يعرف هل ما زال راغبًا في حنان أم لا؟

فأجاب خلف بابتسامة لم يستطع أن يخفيها..

ترى عمك خالد عندي أعز منك؟

إذا بتتزوج بنته ويكره تحرجني معه فلا؟

وإذا بتقدر معزتي له فأذهب لعمك واخطبها؟ الحين هذه المرة كانت إجابة حجاب محسوبة؟

فقال أنت تطلع وعمي خالد معزته أنت تعرفها وإذا طلعت أنت تخطبها لي.

قال وهو يبتسم ابتسامة الرضى أمام الطبيب.

خير إن شاء الله.

ممكن يا دكتور تنادي على أبو أسعد حضر خالد وأسعد.

كان أسعد منشغل التفكير في خطبته لسارة أثناء غياب أخيها؟!

أي مبرر سوف يخرجه من هذا الإحراج، كان يعتقد بأن خلف يخبر ابنه بخبر هذه الخطبة، عندما دخل خالد نادى خلف وقال له: كيف حالك الحين؟!

أجابه خلف خلك مني، ألحين أنا واسطة الرجال هذا في خطبة بنتك؟! أجابه خالد تراها جته؟!

بينما أشار خلف بأخذ رأي صاحبة الشأن.

حضرت حنان ودون مقدمات أعادها عمها خلف إلى كل ذكرياتها الجميلة بكلمة واحدة..

ألحين يا بنتي.. وصمت.. انصرف حجاب مع أسعد الذي وجد في هذا الموقف مخرجًا من تأخره في إخبار حجاب بأمر خطبته فبحث عن مقدمات؟ فسأله: لماذا أنت قلقان؟.. عني أنا موافقة!

ابتسم حجاب لأسعد؟! وقال: يا أخي ما تشوفها إحراج للبنت؟

قال: ما عليك أنت أحسن مني..

أنا اللي خذت الإحراج كله؟

في هذه الأثناء كان خروج حنان.. كانت في قمة الخجل فعمها خلف لم يطلق معصمها حتى سمع موافقتها صراحة.. كانت تتعثر في خطاها.. بينما حجاب يكاد رأسه يصطدم بالسقف إذ كان يرى حصوله عليها إنجازًا وتحديًا له..

ضرب أسعد بعد أن سمعه متندرًا على أخته يا عيني على الكسوف..

طلب حجاب من أسعد أن يتوقف عن مواقفه هذه..

هذه المواقف التي كان حجاب دائمًا ماهرًا في رسمها.. الآن أسعد يجاريه فيها.

خرج الطبيب ويارك لحجاب وأسعد وهنأهما..

كان شعور لا يوصف من الفرح يجتاح ذلك الطبيب الذي لم يعتد غير كفكفة الدموع في هذا القسم.. ثم شرح لحجاب حالة والده وأخبره بأنه سوف يبقيه لبضعة أيام فقط.. إذا ما استمرت حالته مستقرة.. لكنه أصر على شيء واحد هذه الليلة هو أن يترك بمفرده.. كان حجاب وأسعد وخالد معارضين ومصرين على البقاء.. لكن الطبيب أراد أن يتأكد بأن وحدة خلف لن تؤثر فيه.. أراد أن يراقب تأثر نفسيته بتتابع الأحداث ومدى استقرارها..

أخيرًا دخلت الأسرتان لتستأذن خلف..

لم يكن يودعهم بل كان يبارك للبنتين ولوالدتهما..

ثم دعا لهم بالتوفيق..

بعد يومين كان خلف خارج المشفى يحتفل بعقد قران ابنه وابنته..

كان الحفل مختصرًا جدًا كما أراده خالد وخلف.. بل لم يكن أحد يدري به حتى أصحاب الشأن.. كانت مفاجأة للجميع..

بعد ذلك طلب من حجاب وأسعد الإنصات إليه ثم قال: ما بيننا شيء كبير لذا فكلي رجاء أن تحافظا على ما بيننا في حياتنا وبعد مماتنا!!.. لا أريد منك أو منه أي رعونة أو حماقة مفهوم إذا كنتما لا تستطيعان.. فأخبرونا الآن؟!

كانت الإجابة هي قطع الوعود.. كاد الاثنان يسترسلان لولا قيام خلف؟! بعد لحظات استدعى أسعد وعاد إلى مكانه؟! كان قد نادى سارة.. التي لم تعلم بما يخطط له والدها؟!

لحظات وعاد أسعد وهو يقطر خجلًا؟

مثله فعل خالد..

لم يدركا ما عزم عليه والداهما..

بعد لحظات دق جرس الباب ففتح حجاب.. كان الطبيب ومعه حقيبة يحملها وزميل له آخر.. وشخص لأول مرة يراه الجميع..

سلموا على الجميع، بعد ذلك شعر حجاب وأسعد بشيء من الارتياب من هذا الضيف الجديد.. يقرأ عليهم خطبة ويمازح خلف وخالد وكأنه يعرفهما من سنين، كان الطبيب قد شرح له الأمر مسبقًا، بعد تلك الأحاديث التفت إلى الشابين وقال: النكاح بهذه الطريقة غير صحيح فهو شغار.. لا ينفع لابد من زيادة مهر إحداهما عن الأخرى، كان يعلم أن الجميع في هذا الوقت يعرفون هذه الأمور..

لكنه كان يرغب في الحديث.. لم يسكته إلا شيء واحد وهو إصرار كل من خلف وخالد على أن تكون الزيادة في مهر بنت صديقه.. كانت أزمة بالنسبة إلى الاثنين.. تدخل الطبيب وقدم الحل.. كان عبارة عن قرعة وتمت العملية.. ورضي خلف وخالد.. ثم عقد القران وبعد العشاء نادى خلف زوجته وابنه وأخبرهما أنه سيخرج مع خالد.. لزيارة صديق لهما، طلب من شرعا بعد أن تنادي حنان وسارة ويارك لهما.. وانصرف..

كان خالد يقلد خلف.. استأذنا أبناءهما وانصرفا.. كانت الإشارات واضحة بأن الجلسة بعد خروجهما ستكون مفتوحة.. كان يعرف دبلوماسية أسعد الذي لم يكد يسمع صوت سيارة والده تنطلق حتى طلب من حجاب أن ينادي أمه ليسلم عليها ..

لم تكن تنتظر لا هي ولا مريم، لقد دخلتا لتباركا لهذين العريسين.. جلستا وتحدثتا معهما عن هموم العمل.. حتى دخلت سارة وحنان.. جلستا بعد السلام.. لم يكن جيل الشباب يعاني رهبة الموقف، لم يشغلوا بالهم بتلك التكاليف وذلك الخجل، كانوا غارقين أو قل حريصين على استعادة تلك الأيام الجميلة أيام طفولتهم.. كانوا يجلسون هكذا والأمهات كذلك.. كن ينظرن إلى أولئك الشباب ويتذكرون تلك الأيام.. أخيرًا أيقظهم من ذكرياتهم ذلك السؤال عن إجازتهم ومتى تنتهي، هنا فقط استيقظ الشباب..

حنان وسارة في الكلية وحجاب وأسعد.. خرجا من عملهما بسبب حالة خلف..

إذًا لا بد من العودة إلى العمل.. لابد من السفر والفراق كان موعد الزواج قد حدد سلفًا بإجازة الصيف..

خرج أسعد وحجاب إلى المطار.. كانا أكدا موعد الرحلة..

وفي اليوم الثاني.. كانت المغادرة مختلفة عن سابقتها كان الوداع فيها حارًا بين الوالدين وولديهما.. وبين الوالدتين وصهريهما.. كان مليئًا بالأشواق.. خصوصًا بين العشاق..

أصبحت الاتصالات أكثر.. أصبح ذلك التلاحم عبارة عن تداخل كبير..

اكتشف أسعد وحجاب شيئًا واحدًا خلال تلك الفترة وهو أنهما لم يودا عملهما للهرب من أحلامهما، بل كانا يذوبان في عملهما لحبهما له..

مرت الأيام سريعة.. جدًا.. أسرع مما كانا يتوقعان نعم أسرع بكثير.. كانت تلك الفترة كافية لإثبات جدارتهما في العمل.. حققا أعلى انضباطية وقمة الإنسانية.. محل الشكر من الجميع..

حضر أغلبية زملائهما وشارك الباقون في التهاني إما هاتفيًا وإما برقيًا.. وإما صحفيًا..

فرحتهما عارمة بلا حدود.. كانت فرحتهما أكبر من

الوصف.... تنقلا بين مدن المملكة وطافا جل هذا البلد.. ابتداء من الرياض مكان إقامتهما ومن ثم مكة والمدينة.. وبعد ذلك جل مدن المملكة.. حتى الحدودية منها.. كان برنامجهما لتلك الرحلة في بدايته يحمل الكثير من الفراغ.. لكنهما أيقنا خطأهما عندما عاد إلى الرياض.. هذان العريسان..

عادا لسبب واحد وهو تلك الاتصالات من الأهل المطالبة بالعودة.. نعم لقد اكتشف الوالدان أهميتهم في حياتهم.. كانا يريان قمة المرارة عندما يستيقظان ولا يجدان في البيت أحدًا..

من ذلك الجيل الواعد جيل المستقبل..

كان استقبالهما لأبنائهم صاخبًا.. راضيًا..

قضيا قرابة الأسبوعين.. مع أهلهما.. كان الحديث يدور عن أمور الشركة بداية ثم يتحول بقدرة قادر إلى المنافسة بين حجاب وأسعد.. حول عملهما.. ومجهود كل شخص..

هذه الحوارات جعلت كل واحد منهما ينفر من كل شيء.. حتى من أهله.. فهناك عشق لشيء جديد اسمه العمل..

يتحدث أسعد.. عن تلك المخيمات وما فيها من بؤس وآلام.. وعن بعض تلك القصص التي عاشها هناك.. وعن أشياء تشبه الخيال..

ثـم يـوضـح دور وحـدتـه فـي تـوفـيـر كـل سـبـل الـراحـة والاستقرار للجميع حسب طبيعة عمله..

يرى في عمله الذي يقوم به بلسمًا يخفف من جراح أولئك المقهورين.. بسمة ترتسم على شفاه أولئك التعساء..

يأتيه الرد دائمًا من حجاب أولاً.. بالقول جزاك الله خيرًا.. والله يقويك.. كان يشعر بأن هناك إعجابًا بعمله ودوره..

يتحدث حجاب عن تلك المآسي من حوادث.. من جرائم.. من حالات لا يمكن بأي حال تصورها..

ثم يأتي على ذكر دور إدارته تجاهها.. مثل أسعد..

فكم من خائف أمنوه.. وكم من ظالم ردعوه..

وكم من باغٍ عن بغيه منعوه..

كان يعود الحديث بالدعاء له بالثبات.. وحثه على بذل أقصى درجات الإخلاص ..

سافر أسعد وحجاب.. كل يرغب في بذل المزيد من الجهد.. في مجال عمله.. هذه المنافسة انتقلت إلى الزوجتين إذ كانت المنافسة على أشدها..

لقد كانت بين الاثنتين سابقًا فكيف الآن.. كان الفارق بالدرجة أو الجزء منها.. يعتبر انتصارًا على الأخرى.. كانت الرغبة في التميز أو الأفضلية هي الطاغية على هذه الأسرة..

كان أسعد وحجاب يأتيان إلى الرياض بين فترة

وأخرى حسب ظروفهما وظروف زوجتيهما الدراسية.. الزيارة أيام الامتحانات ممنوعة.. فكرة قطع الدراسة أو إيقافها هي الأخرى ممنوعة..

كل هذه الأشياء كانت ضمن شروط الوالدين..

كم كانت قاسية على هؤلاء الأبناء.. ولكن كم كان التزامهم بها كبيرًا..

مرت السنين وأغلق ذلك المعبر..

تم نقل أسعد إلى مدينة الرياض.. بناءً على طلب يلتمس فيه نقله إلى أي منطقة يستطيع أن يقدم ويبذل فيها شيئًا مما تعلمه، عند وصول هذا الخطاب إلى قيادته كان قد أصبح مشفوعًا بعدة توصيات من كبار ضباطه لتحقيق رغبته تلك، كانوا يشرحون ما لمسوه لديه من إخلاص وتفانٍ في العمل.. لذلك أتى نقله إلى مدينة الرياض..

كمكافأة له.. هناك سيتم تدريبه مع مجموعة من الصفوة لإعدادهم كمدربين ..

أما حجاب فقد تم نقله إلى منطقة تبعد عن مدينة الرياض حوالى 400كلم خلال حركة انتقالات اعتيادية، لكنه ما أن وصل إلى هناك حتى رفع تقريرًا بشأن تعرفه على أحد الأشخاص الذين كان متأكدًا من ترحيلهم إلى خارج البلاد بعد إلقاء القبض عليه في إحدى الجرائم..

وها هو الآن يتنقل بصفة مواطن عادي حاملًا اسم

هادي، كانت كل أوراقه الثبوتية سليمة نظريًا، يعلم حجاب أن هناك سرًا أكبر من تلك الجريمة خصوصًا بعد أن رجع إلى الأرشيف واكتشف أنه كان مقيمًا بصورة غير نظامية.. كل هذه التساؤلات دفعت به إلى رفع هذه الحالة عن شكوكه ..

في اليوم التالي مباشرة فوجىء حجاب بطلبه من قبل الحاكم الإداري.. عند ذهابه.. كان أمير تلك المنطقة يجلس ومعه شخص عرفه عليه بأنه مدير إدارة المباحث في تلك المنطقة وبدأوا اجتماعًا مبسطًا حول تلك الشكوك، كانت المشكلة القائمة هي كيفية التأكد من شكوك حجاب دون إيذاء ذلك المواطن..

أخيرًا تعهد حجاب بتنفيذ ذلك..

واستطاع فعلًا إثبات ذلك.. لقد حصل عن طريق أحد الأفراد الذين يعملون معه على بصمة ذلك المواطن المدعو/ هادي وبمطابقتها مع تلك البصمة في ملف الترحيل، ثبتت شكوك حجاب. بعد تلك الحادثة أصبح هادي تحت أعين رجال المباحث، صدر قرار إلحاق حجاب بإدارة المباحث وكلف بحضور دورة لمدة شهرين في مدينة الرياض..

اجتازها بامتياز.. كان يعلم أنه ربما يحال إلى أي مدينة حسب الحاجة إليه، لكنه لم يتوقع قط العودة إلى ذلك المكان الذي أتى منه.. شيء واحد لفت نظره وهو

تلك الكلمات التي أخبره بها قائد الدورة.. بعد انتهائها بأن هناك شخصًا راغبًا في مقابلته..

في مكتب اللواء.. وجد مدير إدارة مباحث تلك المنطقة الذي قابله، كان يتوقع إعلان اكتشاف سر هادي لكن توقعه هذه المرة لم يكن صحيحًا..

أخبره مدير المباحث بأن هذا الشخص قد ظهر في هذه المنطقة منذ حوالى خمسة أشهر، وأنه حريص جدًا ولم يستطع أحد التوصل إلى حقيقة نيات هذا الشخص؟

وذلك لشدة ما يتمتع به من غموض وانطوائية؟! وإعجاب من كل من يعرفه بهذه المنطقة.

فهل تقبل يا حجاب بأن تكون هذه أول مهمة لك وتكون من يكشف غموض هذه الشخصية؟.. هل لديك استعداد لتقديم إجابات لنا؟..

أجاب حجاب: هل لي بسؤال؟ لماذا حصلت على هذه الدورة؟!

ألم يكن هدفها إعدادي للقيام بواجبي؟ أنا مستعد لهذه المهمة ولكن ألا يمكن لهذا الرجل الذي يلفه كل هذا الغموض أن يفتضح سري لديه..؟! ويكتشف هويتي؟!

أجابه اللواء بأن تدبر تلك الأمور بسيط؟

أعد خطابًا له وجهه إلى إدارة الأحوال المدنية؟!

بينما ترك لحجاب مهلة أسبوع لإنهاء أموره الخاصة؟!

أمروه بالانصراف وأخبروه بأنه سوف يكون عليه التعامل والتعايش مع اسمه الجديد.. وإنهاء كل أموره بكامل السرية وأن مهمته هذه تعتمد على السرية التامة؟!

حصل حجاب على بطاقة أحوال جديدة، كان راغبًا في الدخول على هادي من المدخل نفسه.. أصبح الآن هو الابن الناجي الوحيد من عائلة كانت عبارة عن خمسة أشخاص..

أصبح الآن خريج الدور الاجتماعية..

الآن هو صاحب السوابق تلك.. المخدرات.. السرقة.. أصبح الآن نعمان..

قضى أسبوعه ذلك مع أسرته.. ويوم الأربعاء خرج من المنزل ليعود بعد ساعة.. أخبرهم بأنه قد تم إرساله إلى إحدى القرى النائية.. التي لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق طائرات سلاح الجو.. حتى خدمات الهاتف غير متوافرة.. لم يكن يعلم ما ينتظره.. خرج بعد أن ودعهم.. كانت زوجته في ذلك اليوم قد أخبرته بأنها حامل.. كان الجميع يودعون حجاب وهم يحثّونه على الانضباط وحسن الأخلاق..

حتى صديق عمره أسعد لم يخبره بحقيقة تلك المهمة.. أو مكان تعيينه.. وصل حجاب إلى تلك المنطقة التي كان يعرفها جيدًا.. استقبله مديره الجديد..

اتجه به إلى ذلك الفندق.. سلمه مفاتيح سيارة..

وأعطاه تلك الأوراق التي يحتويها ذلك الملف للمدعو هادي.. وطلب منه الاطلاع عليه.. خرج ليعود إليه في الصباح..

كان حجاب لا يزال غارقًا في بحر من الأوراق.!!!.

لقد وضع خطته لاستنطاق ذلك الكتوم..

لقد رسم خطته للاستقرار في داخل فكر وحياة ذلك الانطوائي.. وضع كل أفكاره في تلك الورقة.. وسلمها إلى مديره قبل خروجه ليتركه يرتاح، عاد إليه مساء وبعد مناقشته تأكد المدير من قدرة حجاب.. تأكد أنه يستحق ذلك الامتياز في دورته.. ما آلم حجاب حقًا هو عندما خاطبه مديره قائلًا له: الآن سلمني كل أغراضك.. كان يحمل معه ذلك الجهاز اللاسلكي وطلب من أحد معاونيه إرسال شخص إليه كان يناديه بالرمز..

أخرج حجاب محفظته وتلك الصور التي أحضرها معه وسلمها إلى مديره.. أدخلها داخل مظروف وأغلقه.. لم يلق حتى بنظرة إليها.. أحتراماً لخصوصية حجاب،قال له أنت من الآن اسمك في كل المجتمع هو نعمان.. أريدك أن تنسى حجاب حتى تنتهي من أمر هادي.. حتى أنا من الآن لن أتعامل معك إلا بهذا الاسم.. من الآن وصاعدًا سينقطع الاتصال بيني وبينك سوف يكون حلقة الوصل بيننا هو عامل في مطعم مثل ما خططت في برنامجك، في هذه الأثناء كان باب الغرفة يقرع، دخل العامل وأغلق الباب

بإحكام ثم تقدم نحوهما، سلم على مدير الإدارة، كان واضحًا أن لهما فترة طويلة لم يلتقيا سلم على حجاب، كانت صدمة قوية بالنسبة إليه عندما عرف بينهما مديرهما قائلًا: نعمان أحد أبناء الجهاز وإقبال هو حلقة الوصل بيننا.. كانا قد بدآ الاتفاق على تحقيق هدف.. تعرف نعمان الآن على ذلك المكان الذي يجد فيه إقبال عند الحاجة..

افترق الجميع وبدأ نعمان رحلته.. حسب خطته بحث عن مسكن له بالقرب من هادي فوجده لحسن حظه، كان مقابلًا لمنزل هادي..

كان يعرف نعمان أشياء عن حياة هادي منها أنه محافظ على الصلاة مهتم بشباب حيه ذلك..

فكر نعمان كثيرًا قبل أن يبدأ دوره.. كان مترددًا وهو يعد خطته، أما الآن فهو متصادم مع شخصيته الجديدة، ظهر نعمان بمظهر جديد كان قد جمع كل السوء الموجود في الدنيا ووضعه فيه..

مثلًا أن يدخل بيته وهو رافع صوت المسجل يستمع إلى إحدى الأغاني القديمة في آخر الليل..

أو أن يجلس يتأمل الناس أثناء عبورهم..

كانت كل تصرفاته تنبئ بالسوء.. كانت استفزازية للجميع... كان يستفز الجميع حتى خرج في منتصف الليل وبدأ يغسل سيارته.. كان المسجل يعمل ولكنه في هذه المرة كان غير مرتفع الصوت..

اجتمع رهط من الشباب وتوجهوا إليه، كانت فتوتهم دافعة لهم ومع كثرتهم طلبوا إليه بشيء من التهديد الرحيل عن الحي بدون مشاكل، كان نعمان يدرك بأنه قادر على تلافي المشاكل، لكنه كان حانقًا على نفسه إذ أمضى أسبوعين ولم يتمكن من الاحتكاك بهادي سوى بتلك الكلمات (السلام عليكم) وتلك النظرات المتبادلة ..

لذلك فقد تمادى في تحدي هؤلاء الفتية ناسيًا مراهقتهم واندفاعهم.. وما هي إلا لحظات إلا والشارع قد أصبح حلبة مصارعة.

أخيرًا توقفوا فجأة، كان صوتهم قد أيقظ الجيران، خرج العقلاء لكنهم لم يتكلموا، كانوا يريدون من أولئك الشباب تأديب ذلك المستهتر أو اللامبالي.. صرخة واحدة من شخصٍ واحد هو الذي اقترب.. أمرهم هادي بالانصراف بعد أن وبخهم فلم يردوا عليه بأي كلمة في حين كان نعمان يطلق التهديدات لهم بأن لهم موعدًا آخر..

أمسكه هادي وقال له بصوت مؤثر: قل لا إله إلا الله واستعذ من الشيطان.. التفت إليه نعمان وأخفى سروره، قال له: أنا وإلا عيالكم مفلتينهم على عباد الله. كان يرغب في استدراج هادي إلى الحوار معه.. نجح في ذلك، بداية دخل هادي سيارة نعمان وقام بإغلاقها وسحب المفاتيح ثم طلب من نعمان دخول منزله، لكنه رفض وأخرج ذلك الباكيت من جيبه وأشعل سيجاره..

كان هادي ما زال يحاول تهدئته..

أخيرًا قدم الأخير عرضًا لم يكن متوقعًا.. لقد دعاه إلى منزله تمنع نعمان، لكن إصرار هادي كان أكبر فوافق نعمان وعندما هما بالدخول.. التفت إليه هادي وقال: تفضل حياك الله ما قدامك أحد..

دخل نعمان لكنه فوجئ بوجود ثلاثة أسرة في تلك الغرفة.. وعدد من المراتب المعدة للنوم.. دخلا تلك الغرفة التي كانت شبه خالية عدا شيئين تلك السجادة.. وذلك المصحف..

في تلك الأثناء كان هادي يعد الشاي..

قدمه إلى نعمان.. وبدأ معه رحلة الاستجواب.. كانت جدًا راقية وغير واضحة.. كان هادي يجيد ذلك المجال.. أدرك نعمان ذلك، لذا كانت إجاباته شبه وافية ومترابطة.. كذلك كان هادي يعطي أيضًا بعض النصائح ويلاحظ أن نعمان لا يحضر الصلاة معهم في المسجد.. وأن تصرفاته لا تعجب أهل الحي خصوصًا مع ماعرف عنهم من نزاهة وترابط بينهم.... أخيرًا استأذن نعمان لكن هادي كان حريصًا.. على أن ينام نعمان عنده.. خصوصًا وأنه قال بأن هؤلاء الشباب ربما عادوا إليك مرة أخرى.. احتج نعمان بحجة أنه لا يستطيع النوم إلا في فراشه!! أجابه حينئذ هادي بأنه خائف عليه؟! عندئذ قال نعمان: إذًا لماذا لاتحضر فراشك وتنام عندي يا شيخ؟!!

كان نعمان يداعب مشاعر هادي.. الذي قرر الموافقة، خصوصًا بعد أن وضع نعمان أمام موقف صعب كان يتوقع أن يتمسك به أكثر لا أن يندفع هو إليه؟!

التفت نعمان إليه وهو يطوي تلك الفرشة قائلًا: يا شيخ لازم تعرف حاجة عني؟!

التفت إليه هادي وقال خير!!

قال له: إحنا صار بيننا أخوة وأنت دخلتني بيتك وأنت ما تعرفني.. أنا ما دخلت إلا تقدير لك لكن بالعربي يا شيخ ترى أنا راعي سوابق..

وأنت ما شاء الله عليك.. أخاف أجيب لك شبهة أو شي..

التفت إليه هادي وقال: أخبرني حكايتك من الألف إلى الياء.. قال له: تكفى يا شيخ خلها في القلب تذبح ولا تطلع برا وتفضح..!!

اثناء استعداده للانصراف فوجئ بهادي يكمل ما بدأه من لف ذلك الفراش وهو يقول: يد ما تسرق ما تخاف القطع؟!!

دخلا منزل نعمان كان هناك جهاز فيديو وتليفزيون وبعض الأفلام العربية والأجنبية..

بدأ هادي الحديث مستخبرًا عن قصته ومعاناته فأخبره كما كان مخططًا له.. أتيت إلى هنا باحثًا عن عمل وهاربًا

من رفقة السوء.. لقد ضاع عمري.. لم يكن لي أي موجه أو ناقد.. كان الضياع قدري..

كان يروي القصة بكل آلامها.. وكان هادي حريصًا بين الحين والآخر على ترديد كلمة حسبنا الله ونعم الوكيل.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. حتى أنهى حديثه نعمان..

استطرد هادي في تبسيط الأمر.. وأخذ يبرر له أخطاءه.. وأن غيره من الشباب كثر قد أخطأوا..

انطلق صوت الأذان ليعلن صلاة الفجر.. كان نعمان يراقب هادي وهو يردد الأذان ثم أخذ في تلاوة الأدعية كان يدعو لنعمان بلهجة خاشعة.. جعلت نعمان نفسه يصدق كل ما سرد لهادي..

لكن هادي لم يمهله.. سأله هل تحفظ شيئًا من القرآن؟ أجابه نعم حفظت بعضًا منه وأنا في السجن..

هنا قفز هادي.. وهو يقول.. إن شاء الله موضوعك محلول وبسيط لا تشيل هم يا نعمان اقل شي ستكون إمام في أحد المساجد..

الآن أين دورة المياه؟! فاني أخاف أن تفوتني تكبيرة الإحرام؟!

أحرج هذا التصرف نعمان.. لأول مرة راح شخص يذكره بالصلاة، كان يقارن بين ماضيه وشخصيته الجديدة..

قبل أن يخرج هادي من الباب التفت إلى نعمان وقال له يقول تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ

مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ ويقول الحق ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ..﴾.

قم صل وادع الله أن يفرج همك!!

لحق نعمان بهادي وصلى مع الجماعة..

بعد الصلاة..عاد نعمان إلى منزله بعد شروق الشمس وإذ بالباب يقرع.. كان الطارق هادي..

حين دخل التفت إلى نعمان وقال له: تعال معي.. أجابه نعمان فين.. أقول ألبس وتعال.

خرج به تناولا الإفطار على حساب هادي.. كان مسرفًا على نعمان..

بعد ذلك مر به أحد مراكز التصوير وطلب من نعمان أوراقه الثبوتية.. قام بتصويره وتصوير تلك الأوراق.. بحجة أنه سوف يأتي له بمشيئة الله بعمل..

استسلم نعمان وأبدى حرصًا على هذا الموضوع.. كان يبحث عن عمل أي عمل لا يطالبه بخلو ماضيه من الأخطاء.. مهما كان تدنيه..

أعاده إلى المنزل وطلب منه أن ينتظر منه الرد.. وأن يتوكل على الله.. كان يطالب نعمان بالدعاء له فقط..

دخل نعمان.. وأخذ يراجع كل ما دار.. كان حريصًا على أن يجد مدخلًا للحديث فقط مع هادي وها هو الذي يندفع إلى التدخل في كل شأنه..

كان فرحًا بهذا الإنجاز وما كان يشغل فكره هو السيطرة على هذا الرجل..

أحيانًا كثيرة كان نعمان يغرق في دموعه اشتياقًا إلى أهله خصوصًا وأنه لم يكن له في تلك الأثناء أي برنامج ليلتزم به..

لذا فقد أخذ يطوف بين الحين والآخر على بعض الشركات والمؤسسات باحثًا عن عمل.. كان يعلم بأن هناك من يراقب تحركاته.. لذا عمد إلى التصرف بشكل طبيعي، كان بين الحين والآخر يذهب إلى ذلك المطعم الشعبي ليلتقي إقبال ويعطيه سير الأحداث..

بدأ يحسن من سيرته في ذلك الحي.. أصبح يصلي بعض الفروض في المسجد مع الجماعة..

ذات يوم بعد صلاة العصر التقى هادي فتبادلا السلام وبعض الأخبار. لاحظ نعمان من هادي ابتسامات الرضى وحفاوة الترحيب..

هذه المرة أخذ يتحدث معه حول ما بذله من جهد في البحث عن عمل جيد ولكن له شرطًا واحدًا فقال: ما هو؟.. قال: أن تطلق لحيتك وتنهج منهج الصالحين.. هذا أهم شرط في هذا العمل.. ومن ثم أعدك بالوظيفة..

أخبره نعمان بكل صراحة بأنه لم يتعود إطلاق لحيته.. وأن عليه الاستعجال في البحث عن عمل حتى يستطيع أن يدفع إيجار تلك الشقة التي يسكنها..

ضحك هادي وقال هل أنت في حاجة إلى فلوس..

أستطيع أن أقرضك ولله الحمد..

رفض نعمان بكل إصرار، لذلك أخذه هادي معه وهو يظهر حالة من الاستياء ثم سأله.. أين المكتب الذي استأجرت منه شقتك؟..

انطلقا إليه وهناك طلب من نعمان البقاء في السيارة..

عاد بعد لحظات وهو يحمل معه ألف ريال ألقاه إلى نعمان.. سأله ما هذه؟ قال: باقي الإيجار استطعنا إقناع صاحب المنزل بالتخلي عن هذا الجزء لقاء ظروفك الصعبة.. لكن غدًا تسلّم الشقة.. وتسكن معي..

لكن شرط المحافظة على الصلاة.. والقدوة الحسنة..

كاد نعمان يطير من الفرح أخيرًا وصل إلى عقر دار هادي.. سيطر على نفسه.. وأظهر بعض التردد وقال: خايف ما أقدر يا شيخ.. قال: أنت ضيفي حتى تعلن عدم قدرتك على المتابعة.. بعدين أنا معزوم الليلة وأبغاك تروح معي..

كان العشاء في خيمة نصبت على مشارف المدينة..

كانت تلك الخيمة تتمتع بموقع مميز يمكن الإحاطة بكل شيء حولها.. دخل هادي ومعه نعمان.. سلما على الجميع كانت تلك الحفاوة واضحة لزيارة هادي لهم.. كان يدرك شدة ترابطهم بعضهم مع بعض، لم يتكلم معه أحد منهم حتى قال هادي أعرفكم على أخينا الجديد

نعمان..أخذوا في الترحيب به بكل حفاوة إلى أن قام أحدهم وأذن لصلاة العشاء.. وأخذ الجميع يسنن ويقرأ القرآن بعد ذلك أقيمت الصلاة وفسح في المجال لهادي ليؤمهم، بعد الصلاة أخذ الجميع أماكنهم السابقة، أشار هادي إلى نعمان بالاقتراب منه ثم توجه إلى الحاضرين وقال: نشاطنا الليلة هو قصة تائب.. كل واحد منكم يروي قصته. ابتدأ الحضور كانوا يروون قصصهم قصص الجنس ومعاقرة الخمور.. لم يكد الدور ليبلغ آخر شخص إلا وقد ذكرت جميع الذنوب بلا استثناء..

تحدث هادي قائلًا.. الحمد لله الذي نجاكم مما كنتم فيه وأسأل الله أن يثبتكم على ما أنتم عليه..

بالتفاتة سريعة إلى نعمان قال: الأخوان يرغبون في سماع قصة توبتك.. كان نعمان حريصًا على بدايته وتلك الفترة التي قضاها في السجن.. لم يكن ليتقن مثلهم دور الخوض في تلك الكبائر.. لم يكن يعرفها..

أخيرًا قال وأنا في السجن فتح الله علي بحفظ بعض كتابه الكريم وهي الحسنة الوحيدة لي هناك..

بعد خروجي قررت أن أهرب من كل ماضيّ هناك..

أتيت إلى هنا لا أحد يعرفني.. باحثًا عن عمل..

لم يفته أن يمتدح هادي فهو يعرف ما يصنعه ذلك به..

قال: قادني الله إلى السكن في تلك المنطقة ليرسل الله لي الشيخ هادي وينتزعني مما أنا فيه.. وأسأل الله أن يجزيه عني خير الجزاء..

بدأ الجميع بالدعاء لهذا الشيخ.. أخيرًا قدم العشاء كان عبارة عن عدد من الذبائح.. قام أولئك الفتية بطبخها ثم تناول الجميع الطعام وبعد ذلك أخذوا المتبقي منه ووضعوه في سيارتين خرجتا منطلقتين.. لتوزيعه على المحتاجين كما وجه بذلك الشيخ.

عاد هادي ونعمان إلى المنزل.. وطوال الطريق كان هادي يشرح لنعمان شيئًا من الولاء والبراء حسب رؤيته كان يسقطه على تلك المجموعة من ولائهم بعضهم لبعض، افترقا عند المنزل وقد أصر نعمان على المبيت بمفرده ليجهز أغراضه للانتقال إلى منزل هادي..

قضى تلك الليلة وهو يفكر في ذلك الاجتماع ما سره وسر ذلك الموقع.. أخيرًا نام..

استيقظ على أذان الفجر، خرج وصلى ثم عاد لينام حتى الثامنة ثم توجه إلى ذلك المطعم ليخبر إقبال بمستجدات الأمور ويحدد موقع الخيمة..

كان يسلم تلك المستجدات بكل حرص ودقة..

كان هو يعيش الأحداث بينما غيره يقرأها فقط، بعد صلاة العصر كان هناك مجموعة من الشباب تنتظر أمام منزل نعمان، نزل من سيارته وسلم عليهم وسألهم عن سر

حضورهم فأخبروه بأن الشيخ هادي طلب ذلك منهم، لحظات وأتاهم المدعو الشيخ هادي، سلموا عليه، قال: الآن يا أخوان كل ما في هذا البيت ينقل إلى منزلي بعد أقل من نصف ساعة كان كل شيء منقولًا عدا.. ذلك التلفاز وجهاز الفيديو وأشرطته وعلب السجاير.. لم يقتربوا منها بل إنهم نادوا الشيخ ليأخذوا رأيه فيها فنادى نعمان وسأله هل تحتاج إلى شيء من تلك الأشرطة فأجابه بالنفي.. قال: لي طلب عندك.. أريدك أن تحطمها.. تقدم نعمان وأخذ يكسر تلك الأشرطة كان المشهد بالنسبة إليه أشبه بمسرحية كبيرة..

كانت أصوات الفتية تعلو بالتكبير مع كل شريط يتحول إلى حطام.. أخيرًا جاء دور الأجهزة، حمل جهاز الفيديو عاليًا فوق رأسه كان ينوي تحطيمه لولا تدخل الشيخ هادي بالمنع.. أشار إلى الفتية بأن يحملوا الجهاز إلى منزله.. كان كل شيء يتم بسرعة.. جلس الجميع وتناولوا الشاي في منزل هادي.. بعدها انصرف أولئك الشباب، بعد صلاة العشاء أعلن نعمان حاجته إلى الخروج..

فهو يشعر ببعض الملل.. طلب منه هادي إحضار العشاء معه.. كانت تلك فرصة ينتظرها نعمان..

أخبره بأنه قد تعرف على مطعم جيد..

خرج ليقابل إقبال أعطاه ذلك التقرير وهو يطلب وجبة العشاء.. كانت نشوة نعمان عالية لم يوقظه منها غير تلك الكلمة التي رماها إليه إقبال عند خروجه (انتبه لنفسك)

كانت تدل على حرص عميق.. كان يدرك بأن سبب ذلك الحرص لابد له من أن يظهر له خصوصًا مع تطور هذه الأحداث مع هادي..

عاد إلى المنزل، كان هادي قد وضع جهاز التلفاز والفيديو في غرفة نعمان وقد أحضر له بعض الأشرطة أثناء غيابه.. تناول مع هادي العشاء ثم استأذن هادي في الانصراف إلى حجرته لينام بعد أن أخبر نعمان بأمر تلك الأشرطة..

كانت تتحدث عن حقبة الجهاد الأفغاني ضد المدّ الشيوعي..

أشرطة تم تسجيلها بطريقة بسيطة جدًا..

كان ذلك واضحًا في إخراجها.. لم يشغل باله بها كثيرًا فهو يعرف تفاصيل تلك الأحداث كاملة.. عندما استيقظ وجد تلك الرسالة من هادي يخبره فيها أنه اضطر للمغادرة وقد يغيب لمدة يومين..

شعر نعمان أنه يدخل في اختبار.. اقترب من غرفة نوم هادي لكنه لم يفتحها فلعله يكون بداخلها.. لذلك قرر التقيد بالآداب العامة..

خرج من المنزل.. مستغربًا ذلك التصرف من هادي فلم يجد له سوى تفسير واحد، وهو أن هذا الشخص قد قلب الآية معه، هو الآن من يتابع تحركاته وليس العكس..

كان يخرج من المنزل ويظل يدور في تلك المدينة.. حتى يبلغ حدودها ثم يجلس على ذلك التل ويطلق خياله وروحه لحوار أهله وزوجته.. كان يستدعي كل ذكرياته.. مرت الأيام سريعًا..

أصبح نعمان في الفترة التالية يغوص حيث يوجهه هادي بتلك الأشرطة الغامضة وتلك الكتب المحدد منها بعض النصوص فقط.. أحيانًا يناقشه في تلك النصوص.. أخيرًا أحضر نعمان مجموع فتاوى الهيئة الدائمة للافتاء.. كان فعلًا حريصًا على أن يخرج من تلك المتاهات التي ألقاها فيها هادي..

عندما لمحها هادي فقط.. بين يدي نعمان بدأ في نصحه بعدم الاطلاع عليها.. لأنها حسب ما يراه لا تحوي أي فائدة أو قيمة..

طعن في أصحابها.. كان نعمان قد أصيب بدهشة كبيرة..

أخذ ينظر إلى هادي تلك النظرة التي أساء فهمها فاستطرد في كلامه.. مما منح نعمان الوقت ليسيطر على ردة فعله..

سأل نعمان.. طيب واش أسوي فيها يا شيخ هادي.. أجابه أحرقها..

هؤلاء العلماء لسنا بحاجة إلى كلامهم..

أليس بين يدينا كتاب الله.. ألا يكفينا..

ومن جنس هذا الكلام، يعرف نعمان ما يريده منه هادي، لذلك أسرع إلى إحضار تلك الولاعة.. كاد أن يحرق الكتب لولا تدخل هادي الذي أشار عليه بأن يقوما بإرجاعها بالفعل..

اكتشف نعمان أمام صاحب المكتبة خصلة الكذب لدى هادي.. كان يخاطب صاحب المكتبة ويقول بأن هذه المجموعة موجودة لديه.. وأنه سيقوم بإعارتها لصديقه.. وأنهما راغبان في استعادة المال.. وافق صاحب المكتبة.. كان معجبًا بهذا الحرص.. على الفائدة ونشر المعرفة للأصدقاء التي أبداها هادي..

أول مرة يكذب هادي أمام نعمان بشكل مفضوح..

ناقشه نعمان حول كذبه فأجابه هادي بأن كذبه هو للمصلحة.. وأنه جائز وأخذ يستطرد في الحديث وتحريف النصوص..

كان هادي قد أدرك صعوبة التعامل مع نعمان.. لذلك لابد من طريقة أخرى.

بعد يومين، سلمه مبلغ خمسين ألف ريال وطلب منه المتاجرة به في سوق السيارات أو العقار.. كان حريصًا على أن يبقيه في تلك المتاهة وأن لا يترك له الوقت ليدرك الحقائق..

ابتدأ بالبيع والشراء، كان يخرج بعد صلاة العصر ولا يعود إلا في حوالى الساعة العاشرة مساء.. ينام وفي اليوم الثاني يستيقظ لإنهاء معاملاته المتعلقة من ليلة البارحة..

استمر على هذا الحال فترة من الزمن، ثم بدأ يعصف به الشوق إلى أسرته تلك، كان مشتاقًا إلى رؤية ابنه ذلك الطفل الذي سمع عنه من قبل إقبال الذي بشره بأنه رزق ولدًا وأن زوجته بصحة جيدة.

كانت أخبار أهله لا تنقطع عنه.. لكنه كان راغبًا في شيء واحد هو رؤيتهم. لم يتوقع أن تخدمه الظروف بهذا الشكل.. وذلك بعد حديثه مع هادي بأن مدينة الرياض تعد سوقًا واعدة لعدد من أنواع السيارات التي لها ثمن مضاعف هناك وأنواع أخرى بنصف السعر هناك. طلب قائمة بأسماء تلك السيارات وتقديرات ثمنها.. قدمها له نعمان.. كان نعمان يقدم تقاريره الشفوية الصادقة دائمًا للشيخ هادي.. تلك الخمسون ألف.. أصبحت أكثر من ثلاثة أضعاف..

كان هناك إغراء مادي لهادي من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه أصبح راغبًا في هدف جديد..

أعطى لنعمان الموافقة على السفر، أعطاه بعض الأرقام ليقوم بالاتصال بها في مدينة الرياض جميعها لشخص واحد. بداية رفض نعمان وأخبره بأنه لا يرغب في التقاء أحد في مدينة الرياض خصوصًا وأنه قد يكون أحد معارفه في عالم المخدرات..

لكنه طمأنه.. وقال عليك أن تقابله وتعرف شخصية هذا الرجل.. أريد منك القيام بهذا الأمر لأجلي فهو في غاية الأهمية، وكنت أنوي القيام به بنفسي، لكن ظروفي لا تساعدني وأنت تستطيع القيام به..

بعد ذلك سأل نعمان هادي هل أنت مشغول في الفترة القادمة.. أجابه نعم.. قال ومن يتسلم تلك السيارات التي سوف أرسلها من الرياض؟..

طلب منه مهلة يوم واحد ليقوم بالترتيبات اللازمة، في اليوم التالي اكتشف نعمان السر..

هادي حريص على عدم ورود اسمه في أي تعامل مهما كان حجمه..

أحضر له اسمًا وطلب منه إرسالها إليه..

سافر نعمان برًا بعد أن شحن تلك السيارات عن طريق إحدى الشركات الخاصة بنقل السيارات وكان إقبال على اطلاع على كل التفاصيل.. أخبره بالتوجه إلى فندق معين في مدينة الرياض..

كما أخبره بأن حجرته سوف يسلمها له ذلك العامل الذي سوف يصعد معه في المصعد..

وصل إلى هناك..

في المصعد سلمه مفتاحه الخاص.. كانت الغرفة تحوي خزانة ملابس وسريرًا وطاولة وكرسيًا واحدًا فقط

كانت مجهزة بعناية فائقة.. أخبروه بأهمية الاتصال أولًا بذلك الشخص.. الذي أوصاه به هادي، بالفعل حضر أسرع من أي توقع.. فوجئ بباب الحجرة يقرع ليدخل عليه شخص متسائلًا: نعمان؟.. أجابه نعم. قال: أنا سعد صديق الشيخ هادي.. كان مظهره واضحًا يدل على التزمت الديني.. رحب به نعمان.. لكنه طلب منه الخروج معه فحاول نعمان الاعتذار لكن إصرار سعد كان شديدًا.... خرجا من الفندق كان سعد قد توقف في أحد الأماكن وقام بإجراء اتصال من هاتف عمومي.. كان السؤال عن الشيخ هادي وأخباره ونشاط الإخوان هناك..

أثناء طريقهما دخلا ذلك الممر الضيق حيث كانت هناك سيارة أخرى متوقفة تنتظر، التفت إلى نعمان وقال له اخرج يجب أن نغير السيارة.. استقلا سيارة كانت بانتظارهما بينما سيارتهما قادها شخص آخر في الاتجاه نفسه..

لم يسأل نعمان عن السبب.. فقط نفذ.. ما شد انتباهه حقاً هو ذلك السلاح الآلي الموضوع بالقرب من السائق، سار سعد حتى وصل إلى أحد المخارج الترابية ليسلكه ويستمر في السير.. عندما توارت أضواء المدينة توقف.. قام بارتقاء تل صغير وهو يحمل سلاحه.. ومنظاره الليلي.. راقب المدى حتى تأكد أن لا أحد يتعقبهما ثم عاد إلى السيارة وانطلق، كان سعد يثرثر أكثر مما كان يريده نعمان..

تركه نعمان يثرثر فضلًا عن تلك المقاطعات الشديدة

الاستياء التي كان يقولها عليكم بالحرص يا سعد.. انتبه من أن تكشف.. لا تسر وأنت حامل السلاح..

كان يطمئنه ويبدي مدى الحرص.. لم يكن سعد يرغب من كل ذلك سوى الحصول على دعم نعمان له أمام الشيخ هادي.. لذلك قام بكل تلك الحركات المفتعلة لكن الاستياء الذي أظهره نعمان من تصرفات سعد جعله يغير خططه فالصورة باتت غامضة لديه..

من المسؤول هل هو هادي أم نعمان؟.. ما سر هذا الحرص الذي دفع نعمان إلى توجيه النقد لسعد في أول لقاء ثم ما سر هذا الثبات الذي يتمتع به.. ثم تلك التوصية الشخصية من قبل الشيخ هادي.. التي أتته في صورة مرسول شخصي.. من أحد الإخوان.. المهمين كل هذه التساؤلات جعلت لنعمان مكانة لدى سعد.. وصلا أخيرًا إلى ذلك المخيم.. كان هناك بعض الإشارات التي لاحظها نعمان من قبل سعد مثل إطفاء الأنوار والتوقف في بعض الأماكن.. لم يكد يصل.. حتى فوجئ بمجموعة من الأشخاص تستقبله مع سعد، كان هناك شابان لمحهما وهما يحملان أسلحة الكلاشنكوف، دخل مع سعد، كان دخولهما كفيلًا بفرض الصمت على الجميع.. أجلس سعد نعمان في ذلك المكان المميز..

كان ذلك المكان لا يجلس فيه غير سعد، كانت تلك إشارة لكل الحاضرين بأهمية نعمان..

عرفه عليهم قائلًا الشيخ القائد نعمان، كانت دهشة

نعمان كبيرة لكنه سيطر على نفسه ولعب الدور الذي وضعه فيه سعد.. اكتفى ببعض الكلمات..

ثم تقدم الجميع لتناول العشاء.. كان العشاء فاخرًا.

كان الجميع مرتبين.. كان نعمان يقلّب بصره.. في كل الأرجاء كانت نظراته فاحصة.. بينما سعد يعتقد أنها نظرات تفتيشية،أخذ سعد في الحديث ببيان مواقع الحراسة..

ومكان النوم.. وإلخ.. أدرك نعمان أنه وسط ثكنة عسكرية.. دعا لهم بالتوفيق وبارك لهم همتهم..

بعد العشاء كان سعد يرغب في أن يقوم نعمان بجولة على المعسكر لكنه رفض وقال في الصباح إن شاء الله.

بعد ذلك انفرد سعد بمجموعة من الشباب وبعد قليل بدأ حفل سمر كان إعداده ممتازًا..

كان يتابعه نعمان بدون تركيز لولا تلك الندوة التي كان الشيخ سعد أحد المتطوعين لخوضها.. أدرك الآن سر تلك القصائد الحماسية.. وتلك الصيحات.. لمس أسلوب الشيخ هادي في سعد.. ولو أن الأخير تميز بقدرة الإقناع والتلاعب بالألفاظ.. لاحظ تلك الحماسة المتقدة في نفوس أولئك الفتية.. انتهى الحفل قرابة الساعة الثانية عشرة.. تقدم سعد من نعمان وسأله إن كان يرغب في المبيت في المخيم أو العودة إلى الفندق.. أجاب نعمان بكل اندفاع بأنه سينام هنا.. نسي شوقه إلى أسرته، نسي شوقه إلى رؤية ولده.. نسي كل ما حلم به أمام هذه الفرصة العظيمة..

رغم ما شعر به من الخوف في تلك الليلة ماذا لو أدرك سعد مدى خطئه؟.. كان متأكدًا أن هادي لم يرغب في كشف هذا السر له.. لفت انتباه أولئك الشباب الذين يتبادلون الحراسة.. كانوا يقومون بعملهم على خير وجه.. حتى ذلك الشاب داخل الخيمة الذي كان يضع الغطاء على أي أحد قد ينزاح غطاؤه عنه.. أذن الفجر.. قام الجميع لأداء الصلاة.. أزيح المكان لنعمان ليتولى الإمامة.. صلى بهم قرأ لهم في الركعة الأولى بعد الفاتحة بدون عمد منه قوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم..) وأكمل صلاته.. بعد الصلاة وقف أحد الشباب لولا مقاطعة سعد له بالإشارة.. ليقف هو ويرتجل خطبة عن الجهاد في ضوء ما قرأه نعمان من آيات.. لفت نظر نعمان تلك الورقة التي كان ذلك الشاب يهم بإعادتها إلى جيبه، طلبها منه فناوله إياها.. أخذ يقرأ ويستمع.. كان يحاول الربط.. بين القائد والتابع..

كانت الورقة تتحدث عن نبذ الآخر.. عن ضرورة البعد عن المجتمع.. تتحدث عن حياة جميلة في العزلة..

عن لذة هذه الحياة.. كانت الآيات مقلوبة فيها..

كانت التشبيهات والاستدلالات بعيدة عنها.

كانت تتحدث عن أهمية تنشئة النفس وتدريبها..

أخيرًا.. انتبه بعد أن سمع الحضور يصلون على النبي أن سعد أنهى خطبته الغراء..

قام الجميع وأدوا السنة الراتبة ثم تشكلوا في حلقات كان نعمان يراقب وسعد يشرح عن هذه المجموعات، لكل مجموعة رئيس يقوم بتحفيظهم القرآن.. كان ينادي بعضهم بالكنية أو الإشارة ويفتخر بإنجازاته تلك.. أعمار الشباب ما بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين.. عددهم قرابة الخمسين شخصًا.. هنا سأل نعمان سعد.. كيف تعرف عددهم؟ أجابه وهو يصطحبه إلى خيمته بأن لديه كشوفًا بأسمائهم.. عندما لاحظ الكشوف.. وجدها مصنفة إلى ثلاث فئات فئة هم الموجودون دائمًا.. وفئة في طور التدريب.. وفئة أخرى في طور الاختيار والتمحيص للسماح لها بالوصول إلى المعسكر.

أيقن نعمان أن ترتيبه في هذه الكشوف هو الكشف الأخير لدى هادي.. تناولوا طعام الإفطار..

بعد ذلك ابتدأ سعد يشرح البرنامج اليومي بالنسبة إلى هؤلاء الفتية.. بعد الإفطار تبدأ التدريبات الصباحية.. تلك التدريبات الشاقة.. ثم يأتي بعدها دور الدروس والمحاضرات.. كانت عبارة عن كتب مجهولة المصدر.. كانت تزرع العداء في نفوس أولئك الفتية لمجرد اختلاف الرأي.. كانت تحتوي عبارات فضفاضة ويمكن توجيهها في كل اتجاه..

كانت تقتطع النصوص.. تبترها.. تحشرها.. بين تلك السطور.

بعد ذلك تبدأ فترة التدريب العسكري.. كان لهم منهجهم وطرق تدريس ذلك المنهج.. فوجئ بابتداء الدروس كانت عملية.. صوت الرصاص يدوي في أرجاء ذلك المكان..

سار مع سعد في طريقهما إلى تلك الساحة كان الممر مرصوفًا بحجارة لونت بألوان أعلام بعض الدول.. كانوا يتدربون على عدد من الأسلحة.. بمختلف أنواعها.. مسدسات - بنادق - كلاشنكوف ـ آر بي جي..

استدعى أحد الفتية وسأله عن أحواله وعن آماله كانت إجابته قاطعة أتمنى أن أموت في سبيل الله وأن ننتصر على أعداء الدين.. سأله ومن هم أعداء الدين.. أجابه الفتى والحماسة تدفعه كل من يخالف نهجنا.. تلك الكلمات التي فهم معناها نعمان لم يجد أمامه إلا الالتفات إلى سعد وقال.. صدى هذه الأصوات احذروا أن يجلب إليكم أحدًا.. كانت تلك الكلمة من نعمان كفيلة بإظهار الكثير وكشف الأكثر..

أحضر خارطة ووضح عليها موقعهم ثم أشار إلى أربع نقاط في الخارطة كانت محيطة بذلك الموقع، كان نطاق هذه الدوائر خمسين كيلو مترًا.. لا يستطيع أحد أن يدخل ذلك النطاق.. إلا أولئك الفرقة قد قاموا بالإبلاغ عبر أجهزة الكنود الخاصة بهم..

الآن فقط عرف سر تلك الإشارات التي كان يطلقها

سعد في الليلة الماضية.. طلب من سعد أن يعيده إلى الفندق فهو مرهق وراغب في النوم بعمق..

جهزت السيارة وحملت الشيخ نعمان كما أصبح ينادى في بهو الفندق، ودع الشيخ سعد وطلب منه أن يحضر إليه في اليوم التالي بعد صلاة العصر وأن يحضر معه أربعة شبان.. تقدم إلى موظف الاستقبال وأخذ مفتاح غرفته.. في المصعد خاطب ذلك العامل وقال له أريد مدير المباحث الأمر هام.. أريد مرجعي... كان خائفًا من أن يكون مراقبًا من قبل جماعة هادي وينكشف سره.. دخل غرفته ليعود ذلك العامل وهو يحمل له كوب قهوة وبعض الماء.. نعمان الذي أدرك من خلال رؤيته لذلك المعسكر خطره سأله هل قمت بإبلاغ طلبي؟ قال نعم.. أعاد عليه بأن الأمر هام جدًا.. كان يحاول تهدئته فأخبره بأن والده ووالدته وزوجته ينتظرونه..

وأنه تم تجهيز سيارة في القبو تقله إلى منزله حيث سيقضي ليلته هناك.

جلس مع أسرته، أخذ كثيرًا من الوقت مثلهم في تأمل ملامحهم..، حتى ذلك الطفل المعتاد على البكاء صمت.. كان يحترم تلك اللحظة فاكتفى بأن يشم رائحة والده.

كان ينظر إلى ابنه يتأمل براءته متسائلًا عن مستقبل هذا الطفل في ضوء ما شاهده الليلة الماضية.. كان شارد

الذهن رغم أنه ظل معهم طوال تلك الليلة، بعد صلاة الفجر رن جرس الهاتف مطالباً نعمان بسرعة العودة إلى الفندق.. عرف السر لهذا الإزعاج فهنالك نزيل جديد في الفندق يسأل عنه.. عاد عبر الوسيلة نفسها ومن القبو صعد إلى كافتريا الفندق.. لقد كان ذلك الشخص هو الذي قام بتبديل السيارة ليلة البارحة، جلس إلى طاولته وتناول طعام الإفطار.. تقدم نحوه ذلك الشاب وسلم عليه بكل تواضع.. وجلس يتحدث معه بشكل عام.. أخيرًا تمالك ذلك الشاب نفسه ونظر إلى نعمان وقال: يا شيخ إني أطلب منك طلبًا، قال: ما هو؟ قال: أن تأذن لي أنت أو الشيخ هادي باللحاق بركب الشهداء؟ أريد تكليفي بمهمة.

قام نعمان من خلف طاولته مثل الملدوغ وسار إلى غرفته..

كان ذلك الشاب لا يزال يسير خلفه.. دخل الغرفة ودخل ذلك الشاب معه.. وأعاد طلبه.. صفعه نعمان صفعة مدوية وقال: أتدرك أي كلام تقول؟.. كان الشاب يعتقد أن نعمان يختبر إصراره على ما يريد.. بينما كانت نيات نعمان أن يثنيه عن هذا الطريق.. أخذ الشاب في الحديث عن إمكانياته وخبرته حيث اجتاز كل الدورات التدريبية.. وهو الآن راغب في العمل الفعلي.. التفت إليه نعمان وقال: أين تريد أن تكون مهمتك؟! أجاب أريد أن تكون مهمتي هنا في الرياض؟! صعق نعمان الذي سأل وهل حددت لك موقعًا؟ أجابه نعم! وانصرف على الفور بينما نعمان لم يفق

من صدمته إلا بعد أن عاد ذلك الشاب وهو يحمل معه عددًا من المخططات وبعض التقارير عن ذلك المجمع السكني..؟!

التفت إليه نعمان وقال: أنا بحاجة إليك.. هذه العملية لا قيمة لها؟! لكن الشاب كان مصرًا.. أخيرًا طلب من الشاب أن يترك له الأوراق وأن الرد سوف يصله قريبًا عن طريق الشيخ سعد!!

لم يعد يرغب نعمان في مقابلة أهله.. كان يخشى عليهم فالموقف أصبح معقدًا.. أكثر مما يحتمل.. أصبح خائفًا على نفسه من وجودهم بالقرب منه في هذه المتاهة.

بعد الظهر كان مدير المباحث ينزل ضيفًا عند نعمان تبادلا السلام.. وبكل سرعة نقل الصورة كاملة بشكل مبسط.. أدرك مدير نعمان الصورة وأبعادها ..

خرج من الفندق وترك نعمان بعد أن أوصاه بفسه، كانا يدركان شيئًا واحدًا فقط.. هو.. أن الأقدار والمصادفات هي التي أصبحت تقودهما..

بعد صلاة العصر حضر الشيخ سعد ومعه أولئك الشباب فانطلق بهم نعمان إلى تلك الشركة وتسلم تلك السيارات وقام ببيعها.. واستلام أثمانها..

بعد ذلك أخبر الشيخ سعد بأنه يجب أن يغادر الرياض وذلك لأمر طارئ.. كان الشيخ سعد حريصًا على الحديث مع نعمان وراغبًا أن يثبت له مدى تفانيه في العمل..

حثه نعمان وأثنى عليه ولم يفته أيضًا أن يسأل عن ذلك الشاب، فأخبره بأن اسمه محمد وهو من أقدم الأعضاء وأنه من أفضل من لديه..

استغرب سؤال الشيخ نعمان عنه لكنه فضل عدم السؤال..

أخيرًا أوصاه خيرًا بأولئك الفتية وانصرف..

ليعود إلى الفندق....

كان عدد من كبار رجال المباحث يجلسون في تلك الغرفة المجاورة لغرفة نعمان.. دخل عليهم مباشرة وبدأ النقاش كان يطرح الأمور ويخبر عن كل ما رآه وعن كل ما لمسه واستشرفه.. أخيرًا.. جاء دور الخرائط فأكد موضع تلك النقاط الخاصة بالمراقبة..

اتضحت شدة تعقيد هذه الخلايا.. شيء واحد يساعد على فهم كل الغموض..... هو تلك الكشوف..

فمن خلالها يمكن الوصول إلى كل الأعضاء..

أخيرًا استقر رأي الجميع على أهمية المداهمة وإلقاء القبض على الجميع.. لكن شيئًا واحدًا جعلهم يتراجعون وهو سؤال نعمان لهم: ترى كم معسكرًا مثله..؟!

من المسؤول عن التموين؟! ما هي الأهداف..؟!

كان سؤالًا يطرح نفسه؟!

أخيرًا وقف نعمان وتحدث.. أخبرهم بأمر الشاب وأنه يمكن التوصل عن طريقه إلى أشياء كثيرة..

جاءت الإجابة مخيبة للآمال.. حتى تلك الأوراق التي سكن بموجبها في الفندق.. مزورة مثلها مثل أرقام لوحات تلك السيارات التي تنقل فيها ليلة البارحة..

قال إذًا لابد من الاستمرار مع هادي.. هادي هو المحرك للجميع.. أجابه الجميع بأن خطر هادي عليك كبير خصوصًا وأنك قد اكتشفت سره..

أجاب لابد من المحاولة..

قابل حجاب أسرته وأسرة عمه خالد في المطار.. كان يريد توديعهم.. بالفعل.. لأنه لايعلم ماذا ينتظره مع هادي.

حتى مدير الإدارة حرص على أن لا يشعر أهل حجاب بأي شيء.. صدر أمر لهم بسرعة التحرك..

عاد نعمان إلى هادي.. دخل الباب فكانت الصدمة كبيرة لهادي الذي لم يتوقع أن يحضر بهذه السرعة..

دخل عليه، كان هادي في اجتماع مع بعض أولئك الفتية، لاحظ نعمان القلق على هادي بسبب عودته لكنه تصنع الثبات.. أكمل ما كان بين يديه، كان يشرح ويفسر لتلاميذه بعض تلك الكتب.. إنه يغسل الأفكار.. يهدم العقول.. يؤول ويحرف ..

كان يشوه كل جميل..ويراقب نعمان الذي كان يجلس بصمت..

أخيرًا.. انتهى المجلس، أخبرهم الشيخ هادي بأن

نعمان بحاجة إلى الراحة.. ودعهم هادي ثم أغلق الباب خلفهم بشكل موثوق وصعد إلى السطح يراقب انصرافهم ثم راقب هدوء الحي.. عاد بعد ذلك إلى غرفته ومن ثم عاد إلى نعمان.. كان نعمان قد لمح الشكل الخارجي للمسدس الذي يحمله هادي..

ذلك المسدس المثبت في ساقه تحت تلك الملابس.. نظر إلى نعمان كان يقف بعيدًا عنه..

سأل نعمان بشيء من تصنع البرود.. ايش رجعك بدري.. قال رجعني بدري.. الشيخ سعد.. قال كيف؟! قال: ما طلبت أني أعرف لك سره؟!

هذا الرجال ما ينفعك يا هادي؟! هذا فضيحة..

أخذ يعدد أخطاء سعد أمام هادي..

أخيرًا التفت إلى هادي وقال.. كل شيء حاطه لك في المخيم؟! بعدين هو اندفاعه كبير خاصة مع ذلك الشاب ومخططه؟!

أخيرًا.. يا هادي أبغى أسألك سؤال واحد؟!

ليه خبيت عليه؟!!

وقبل ما تجاوب أقولك كلمة واحدة انتبه لنفسك يا هادي.. أنت راعي جميلة علي..؟!!

هذه نصيحة؟!

كانت صراحة نعمان مع هادي؟ وحرصه عليه تدفع به إلى متاهات؟! لا حدود لها؟!

أخيرًا سأل نعمان.. لماذا رجعت؟!

التفت إليه نعمان وقال: وين أروح؟!

بعدين تعال أنا؟! جيت أرد لك جميل علي، جاي أحذرك وأنت تقول لماذا راجع؟!

طلب من نعمان أن ينام وهو سوف يذهب في مشوار خاص.. خرج هادي وترك نعمان ليستغرق في نومة هانئة.. كان قد أوصى أحد أولئك الفتية بمراقبة تحركاته.. لم يستيقظ قبل صلاة الظهر من اليوم التالي، كان متعبًا جدًا..

خرج إلى ذلك المطعم وتناول غداءه ثم عاد ليجد هادي في انتظاره، كانت سيارته غير موجودة أمام المنزل.. فوجىء به.. وفاجأه هادي أكثر عندما طلب منه الجلوس لأنه يريده لأمر هام..

جلس ثم التفت إلى نعمان وقال: ما رأيك فيما رأيت عند سعد؟! كان السؤال غريبًا، أجاب نعمان السؤال هو لماذا هذا كله؟ حتى أستطيع الإجابة..؟!

أخبره هادي بأنه يهدف إلى إقامة راية الجهاد؟! ضد الوجود الأجنبي في هذه البلاد..

سأله بشيء من الاستغراب..أي وجود؟!

فهم من كلامه أنه يقصد أولئك الموظفين من عدة دول كلهم قائمون على وظائف صيانة وخدمية ليس إلا؟!

عندما شرح وجهة نظره لهادي أجابه أنت لا تعلم

شيئًا ولو افترضنا صحة ما تقول.. أليس يعني أنهم موجودون؟!

أجابه بشيء من الصدمة؟! المصطنعة!!

هل تصدق أني أول مرة أنظر إلى الأمر بهذه الطريقة؟!

أجابه هادي مباشرة إذًا هل أنت معي أم لا..؟!

أجابه بكل أسى نعم معك؟ لكن بشرط!! قال ما هو..

قال أن أكون في الصورة؟ أنت تعلم أني أكره أن أكون مستغفلًا..

قال له هادي بكل حماسة: مرحبًا بك..

بعد ذلك خرج بنعمان من المنزل وانطلق به في تلك الطرق واتجه به إلى تلك الخيمة الجديدة..

بل قل إلى ذلك المعسكر.. وصلا إلى هناك، كان هنالك مجموعة أيضًا من الفتيان.. الأسلوب نفسه، والطريق والمنهج نفسهما.. التحصينات نفسها.. كان نسخة أخرى عن ذلك المعسكر الذي زاره مع سعد..

التفت إليه نعمان وهو يعرف هذه المجموعة عليه..

الشيخ نعمان.. انفرد به وجعل مسافة بينه وبين نعمان الهدف منها استظهار.. الأخطاء وتعديلها.. كانت المهلة لمدة ثلاثة أيام كما زعم هادي.. كانت كافية بالنسبة إلى

نعمان.. ليعرف أدق التفاصيل حتى عن أولئك الشباب. عرف ثقافتهم.. انتماءاتهم.. ميولهم.. عرف كل شيء، شارك في التدريب.. كان حريصًا على تقديم بعض النصائح لضمان سلامة المتدربين.. فحص كل الأوراق والكشوفات، راجع المصروفات.. كان يسجل كل شيء.. كان معه مجموعة أوراق يسجل عليها ملاحظاته.. بعد أسبوع عاد نعمان.. كان هذا الاختبار الأخير له..

ترك هادي نعمان بعد أن أوصله الى المعسكر وعاد إلى مسكنه وبقي حبيسه طوال أسبوع كامل.

كان هادي يعلم خطورة ما أقدم عليه، لكنه يرى حاجته إلى نعمان رغم خطورة ما اكتشفه.. كان يعلم بأنه إن كان قد قام بالإبلاغ عما رأى فسوف يدهم منزله.. سوف يبحث عنه في أدق وأضيق أماكن العالم.. سواء هو أو نعمان..

بعد مضي الأسبوع حضر هادي إلى المعسكر.. استقبله نعمان بشيء من الحرص والخوف لكنه استطاع التغلب على ذلك.

ظهر نعمان أمام الشيخ هادي كقدوة لأولئك المساكين هذا ما يحتاج إليه هادي.. هذا ما ينقصه.. القدوة هذه القدوة الحريصة على التنظيم.. جلس مع نعمان.. أجابه نعمان لقد تمنيت أن تتأخر أكثر.. لولا قلقي عليك؟!

ناقش الشيخ هادي أولئك الشباب ثم عاد هو ونعمان

إلى مسكنهما.. كان الشيخ هادي قد اتخذ قراره بضم نعمان إلى تلك الكتيبة عند عودتهما، بدأ الشيخ هادي بالحديث مستفسرًا عما رآه نعمان؟! كان يعتقد أنه يجد كلمات الشكر والثناء لكنه خيب ظنه هذه المرة؟!

بدأ أولًا بالميزانية فهي غير معروفة الدخل بينما الصرف يلاحظ فيه إسراف مبالغ فيه بحاجة إلى إعادة نظر..

ثم الملاحظة الثانية كانت انتقاد تلك السجلات الموضوعة هناك؟! ماذا لو تلفت أو سرقت أو..

فرضيات استطاع أن يُدخلها رأس هادي..

بعدها عاد إلى التدريب ليثبت أنه غير مسبوق بمراحل نظرية..

أخيرًا كانت مشكلة نوبات الحراسة؟!!

كان يقدم المشكلة مضخَّمة ثم يورد أسبابها ثم حلولها من وجهة نظره.. ولا ينسى التعقيب بأن هذا رأيه فقط.. وأن الشيخ هادي له مطلق الحرية..

نشوة هادي بهذا الانتصار في ضم نعمان إليه جعلته يتخذ القرار.. نعمان لقد عينتك مساعدي الأول ونائبي.. نظر إليه هادي مستبقًا كلمات الاعتذار منه.. كان هادي حريصًا على وضع نعمان في هذا المنصب لسببين الأول زيادة توريطه في هذه الجريمة، والثاني الاستفادة من كل نصائحه بشأن الأمور التي لم يكن يتابعها؟!

لكنه نبهه إلى أمر واحد هو خطورة عملهم هذا!!

هنا التفت إليه نعمان وأجاب: لكن شرطي الأول ما زال قائمًا؟! أن أكون في الصورة؟! أجابه هادي وهو يقف سأبرهن لك ذلك.

أخذ نعمان وخرجا من ذلك المنزل عن طريق قبو سري من غرفة هادي.. يوصلهما إلى منزل آخر.. خرج هادي لأول مرة بشكله الحقيقي حليق الذقن والشارب يرتدي ملابسه الأجنبية؟!

قاطع دهشة نعمان وهو يقول: كله تركيب لازم تتعلم فن التنكر..؟!

التفت إليه نعمان وقال بصراحة: أنا بدأت أخاف، لو لم أدخل معك لما عرفتك الآن؟! لكن أنا لو أطلع من الباب مكشوف، التفت إليه وأدخله تلك الحجرة التي كانت تحوي بعضًا من الأسلحة.. وشيئًا من بعض الحقائب الملقاة بعضها فوق بعض؟! التفت إلى نعمان وأشار عليه بأن يلبس عباءة ونقابًا وتنورة موجودة هناك.. مع جزمة من النوع الرخيص صالحة للجنسين.. كان يشعر بالإهانة له في هذا الزي وعندما راجع هادي فيه قال: ألا تريد أن تعرف كل شيء؟! نفذ إذن.

خرجا من المنزل، كانت السيارة التي تنتظرهما بسيطة؟!

انطلقا حتى بلغا أحد أرقى الأحياء في تلك المدينة

ثم دخلا تلك الفيلا.. كانت مجهزة بأحدث الأجهزة.. ثم أدخله ذلك المكتب بعد أن فتحه، كان بابه من الحديد ثم اتجه إلى تلك الخزنة ليفتحها ويخرج منها بعض الملفات، كان يشير إلى نعمان بالجلوس لولا تلك المقاطعة؟!

كانت امرأة تقف في الباب وتنادي: همام.. همام.. لم تتدارك نفسها.. بل لعلها كانت في غاية الشوق إليه؟! توارت خجلًا بعد أن رأت نعمان؟!

التفت إليها هادي وهو يستأذن نعمان.. عن إذنك يا شيخ علي؟!

وخرج.. بينما نعمان ظل مصدومًا وهو يقول: اسمك هنا همام وهناك هادي؟! وأنا هناك نعمان وهنا الشيخ علي؟!

كم أنت بارع حتى في اختيار الأسماء..

أخذ يطالع تلك الملفات بين يديه فوجد فيها أشياء غريبة تكاد لا تصدق ولا تفهم..

وجد أيضًا أسماء كثيرة لكن شيئًا كان يعرفه جيدًا وهو تلك الصور المرفقة في الملف، كانت صوره بل الأدهى أنه اكتشف له سجلًا كاملًا بكل جرائمه المزعومة؟! بحث فوجد صور المدعو سعد ولكن باسم آخر.. اكتشف هنا قدرة هذا الرجل على التنويع والتغيير.. أخيرًا وجد عددًا من جوازات السفر كانت كلها تابعة للمدعو/ هادي.. تأكد الآن من قدرة هذا الرجل.. إنه أمام أكبر كاذب في التاريخ،

وجد مذكرة أيضًا بها بعض الإيضاحات والرموز حول أفكاره..

مثلًا:

تهيئة الرأي العام في أوساط الشباب..

استقطاب الغالبية من الشباب..

عزلهم عن مجتمعهم وتنفيرهم منه.

إعدادهم الإعداد المناسب.

تضخيم الذات لديهم.

التنفيذ وتغيير الوضع.

كانت كل فكرة تحتها مجموعة من الوسائل.. عدا الفكرة الأخيرة لم تحتو أي إيضاحات..

كانت الوسائل حقيرة جدًا.. وبسيطة جدًا فمثلًا تهيئة الرأي العام كان أقوى الطرق المستخدمة فيه هو الخطابة والمواعظ وخصوصًا من الشباب بعد الصلاة في كل المساجد في كل المناطق..

الفكرة الثانية هي قياس مدى التأثر بمن يرغب في نهج هذا الشاب الصالح أو ذلك؟

الفكرة الثالثة باعتماد الشروح المضللة للولاء والبراء آية واحدة فقط من القرآن (المؤمنون بعضهم أولياء بعض).

الفكرة الرابعة بعد تنفيرهم من مجتمعهم ومصادمتهم معه لن يكون أمامهم إلا المعسكرات..

الفكرة الخامسة هي التدريب داخل تلك المعسكرات وتعيين المميزين منهم قادة لهم ميزاتهم الخاصة، كان هناك عدد يقرب من الاثني عشر اسمًا هم القادة وأمام كل اسم رجل هناك اسم امرأة. كانت أسماء النساء هي الشيء الصحيح.. كلهن يحملن أسماء غريبة عن هذا المجتمع..

كان هنالك عدد من السجلات التجارية والرخص لمزاولة الأنشطة التجارية حتى النسائية منها..

كانت كلها ترجع إلى أسماء وهمية..

والممارسات الوهمية هي الغطاء لتلقي الدعم المادي حفظ بعض المسمّيات وبعض أرقام الحسابات ثم عاد إلى تلك الجوازات والأوراق الثبوتية.. فاجأه هادي.. قائلًا : هاه هل ارتحت وهو يقترب منه ويقول له : اسمي همام هنا، كان هناك قرع على أحد الأبواب؟!

أعاد همام كل شيء إلى مكانه ثم خرج وأغلق المكتب خلفه وهو ينادي تفضل القهوة يا شيخ علي؟! ثم نادى تلك المسكينة عرفه عليها على أنها زوجته!! قدمت القهوة بكل خجل..

كانت قد عدلت من زيها..!!

انصرفا ليكمل هادي مشروعه لإعداد نعمان.

أخذ في شحذه بكل همة....أدخله عدة دوامات في عدة امتحانات، نقله بين عدة مواقع وعدد من المعسكرات

حتى انتهى به إلى معسكر الشيخ سعد الذي يعرفه جيدًا، كان نعمان يتعامل مع هادي بكل حذر.... وكل يوم يمر كان حقده على هادي يزداد.

حتى أنه لم ينتبه إلى أنه قد أمضى قرابة العام معه.. لم ير خلاله أهله ولم ير حتى وليده ذلك ترى كيف أصبح.. هل أصبح الآن قادرًا على المشي أم هل تراه الآن سيعرفه لو رآه؟.. كان شيء واحد يخفف عنه هو تلك المعلومات التي حصل عليها وأسرار هادي..

أصبح لديه أكثر من جواز.. وأكثر من أوراق ثبوتية..

أخيرًا صدر قرار من الشيخ هادي باختيار أفضل الأفراد وإرسالهم إلى الحج.. هذا التصرف حير نعمان كثيرًا لكنه أخبره في آخر الأسبوع قبل أن يلحقه بمجموعة من تلك المجموعات ليتلقى التدريب الجديد..كان ينظر إليه كنقلة نوعيه تحتاج إلى الكثير وخصوصًا من نعمان.

كان التدريب يتمحور حول صناعة المتفجرات وتجهيزها..

أطنان من تلك المواد القابلة للانفجار طريقة مزجها؟.. طريقة صناعتها؟ كانت دورة لصناعة الموت..زج هادي بنعمان فيها....

شعر نعمان بنوع من الأمان، اعتقد أنه يستطيع من موقعه منع هادي من أي تحرك، لكنه اكتشف خطأه عندما وجد هادي أمامه، أدرك بأن هنالك كارثة على وشك

الوقوع فسأله عن سر زيارته فأجابه بأنه راغب في الاطلاع على سير التدريب بعد عملية استعراض بسيطة، نادى هادي أحد المدربين الذي أعلن السبب الحقيقي لزيارة الشيخ هادي وأنه قد حضر اليوم ليبارك انطلاق أول التحركات الفعلية. ثم نادى بأسماء ثلاثة من الشبان.. خرجوا أمام الجميع فخورين بأنفسهم بأنهم هم الذين سيقومون بتنفيذ هذه المهمة، كانوا فخورين بأنفسهم وثقتهم عمياء بأنفسهم..

نسوا.. أهم التفاصيل.. بل قل إنهم لم يكونوا يعرفونها أصلًا.. هي وسائل السلامة..

لم يكن الهدف من تدريبهم هو المحافظة عليهم بقدر ما كان الهدف هو الوصول إلى غاياتهم..

انفجرت السيارة.. التي كانوا يستقلونها..

تلك الأسلاك المكشوفة وتلك الأرضية غير المستوية كانتا سبب الانفجار..

كانت الصدمة كبيرة بالنسبة إلى هادي، كان يتوقع النجاح لكنه استطاع أن يخفي مشاعره بل استطاع أن يبدي غيرها.. أظهر الندم على حياة هؤلاء الشباب.. كما أظهر الحزن والتأثر.. لكنه في داخله كان يرقص طربًا.. لهذه النتيجة.. الآن يستطيع أن يقيس مدى قدرة الباقين على المغامرة.. والسمع والطاعة له.

ذهبت مجموعة من الفتية بعد أن أمرهم نعمان بالتوجه إلى مكان الانفجار.. بينما اصطحب معه هادي..

في السيارة كان الحوار الدائر بين الاثنين عنيفًا، كان كل منهما يلقي بالمسؤولية على الآخر.. كان نعمان يود فعلًا لو قتله في تلك اللحظة.. وصلوا إلى موقع الانفجار.. لم يكن يبعد عنهم أكثر من ستة كيلومترات.. كانت الأشلاء متناثرة فضلًا عن حفرة عميقة خلفها ذلك الانفجار، كان الألم يلف المكان.. حتى المدربون الأجانب الذين أحضرهم هادي كانوا عاجزين عن التصرف.. هتف نعمان بأولئك الفتية وأمرهم بجمع الأشلاء..

لم يكن يعرف أحد منهم بغير تلك الأسماء الرمزية.. التي أطلقها عليهم هادي.. خلال جمع تلك الأشلاء كان هادي قد أعاد ترتيب أوراقه.. ما كادوا ينتهون من جمعها حتى صرخ فيهم بأن يعيدوها إلى المخيم..

كان الجميع متأثرين.. التفت إلى نعمان وقال له في السيارة هل تستطيع أن تتولى هذا الموضوع؟! أجاب نعمان وهو ينظر شزرًا إلى هادي؟! لا..

لم يصلوا إلى هناك إلا وقد استقبلهم أصدقاؤهم كانوا يحملون حزنًا أعمق من حزن أولئك المشاركين في حمل الأشلاء.. أيقظتهم من حزنهم تلك التكبيرات التي أطلقها هادي، كان يصيح الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر..

ثم أخذ يهتف فيهم بحماسة بإحدى أناشيده التي حفظها لهم..

زفوا الشهيد للجنة.. زفوا الشهيد للجنة..

ثم وضع تلك الأشلاء أمامه على الأرض ثم صاح قائلًا.. إن الشهيد لا يغسل ولا يكفن ولكن يصلى عليه ويدفن في ثيابه..

صلى عليهم مع أولئك الحمقى وشارك في دفنهم.. كان يردد كلمات تثير نعمان مثل هنيئًا لكم الجنة؟!

أبلغوا رسول الله عنا السلام لم يكن يخاطب من في القبور.. بل يخاطب تلك العقول المغسولة معه.. وحده نعمان مع المدربين كانوا خارج ذلك التضليل ذلك الخداع!! هم وحدهم مع هادي فوجئوا بالنتيجة..

لقد أخذ أولئك الشباب يرتفع تكبيرهم وتهليلهم بل الأكثر أن منهم من تقدم لتنفيذ تلك المهمة التي كانت بمنتهى السرية ولم يكن ليطلع هادي عليها أحدًا ..

لم يكن ليضيع تلك الفرصة.. انتدب منهم ثلاثة آخرين وأمر بتجهيز سيارة أخرى.. كان الموعد للتنفيذ بعد يومين كما أعلن لكنه كان قد اتفق مع أولئك الشباب وقائد المعسكر الجديد في اجتماع خاص على تنفيذ المهمة بعد انصرافه تمامًا كان الهدف واضحًا..

انصرف هادي وحرص على اصطحاب نعمان معه.. فقد أدرك حجم حزنه على أولئك الفتية..

هذه المرة إلى شقة جديدة.. كانت تحتوي على جهاز كمبيوتر وبعض الأقراص المدمجة..

شغل ذلك الجهاز وقام بإرسال محتوى بعض تلك الأقراص المدمجة إلى كل مشتركي الانترنت.. كانت تسجيلًا لبعض التدريبات.. وبالتالي عبارة عن إعلان المواجهة.. ثم خرجا بسرعة كبيرة بعد أن حملا كل أجهزتهما الخفيفة تلك..

كل الاحتياج إلى هذه الشقة كان من أجل خط الهاتف فقط.. بعد وصولهما إلى ذلك المنزل الخاص بالتنكر، قام بتشغيل جهاز التلفاز وأخذ يتابع المحطات بتلهف غير معهود.. كان نعمان مستغربًا ذلك.. لكنه عرف السر، نزل عليه ما يقرأ كالصاعقة، كانت كلمة عاجل كفيلة بتحريك وهز كل كيانه..

كان ورود ذلك النبأ كفيلًا بهزه من أعماقه..

كان الحدث في مدينة الرياض تفجيرًا يهز المدينة..

علت النشوة ذلك الوجه الكريه.. كان المستهدف هذه المرة مجمع سكني.. هنا فقط تمنى نعمان لو كان باستطاعته فقط الخروج من تلك القيود، تمنى لو باستطاعته أن يرتاح لو دقائق فقط، كان يرى راحته الوحيدة في تلك الدقائق هي بقتل هادي.. كانت شدة نشوة هادي لا توصف منعته حتى من ملاحظة نعمان.. كان يتنقل بين القنوات.. ويسجل تلك المأساة عبر ذلك الجهاز المسمى بالكمبيوتر..

كان مشغولًا جدًا.. بفرحته.. تلك..

كان يردد الآن فقط تحقق الهدف..

أخرجت تلك الكلمة نعمان مما كان فيه، ذكرته بهدفه الذي دفعه لملازمة هادي؟!

صاح بهادي: اخفض صوتك.. لا تفضحنا. قام إلى نعمان ورقص أمامه.. صاح به نعمان للمرة الثانية.. دعنا نطمئن إلى الشباب أولًا..

كانت ضحكة هادي وكلماته نابعة من إحساسه بالانتصار ومن شعوره بالأمن والبعد عن العيون..

قال: الهدف تحقق.. والشباب موتهم أفضل من سلامتهم يا نعمان أتعلم هذا؟. أصلًا كانت حياتهم بلا قيمة فلماذا تجعل أنت لموتهم قيمة؟.

في اليوم التالي عادوا إلى المعسكر.. كان الشيخ سعد قد أعد عدته لهذا الاحتفال.. بينما أولئك الشباب كانوا مثل المخمورين يرددون خلفه التكبير.. والتبريكات للشيخ هادي ونعمان. كان الشيخ سعد يصور أولئك المنتحرين على أنهم جهاديون قد قتلوا الكفرة الظالمين؟! (أي كفرة وكل الضحايا من أبناء المسلمين)؟!

كان يصور تلك الواقعة على أنها إصابة المقتل؟!

كم فكر نعمان في أن يقوم ويجهز تلك المتفجرات ليفجر نفسه وهؤلاء الحمقى..؟! شيء واحد يمنعه هو معرفته الأكيدة بأنه هو الوحيد الذي استطاع التغلغل في هذه الجماعة..... وأنه الوحيد القادر على كشف سرها،كان كلام هادي قد أثار فزعه عندما قام خطيبًا في الحاضرين

حدثهم عن إخوان لهم منتشرين في أرجاء هذا الوطن يعرفهم.. يشاركونهم في أحلامهم.. وآمالهم في إقامة علم الجهاد.. يشاركونهم في حلم الفوز بالجنة؟!

أخيرًا كان إعلانه بأغلظ الأيمان أنه رأى في منامه أولئك الشهداء يتمتعون في نعيم الجنة.. أي منام ونحن لم ننم منذ أن غادرناهم.. وحده نعمان كان رفيق هادي، بعد ذلك أمرهم بالاستعداد لسماع المزيد من الأخبار والاستعداد للحج.. خرج هادي ونعمان بصحبة سعد من المعسكر.. أثناء طريقهم كان النقاش قائمًا حول الخطط المستقبلية.. فاجأهم نعمان بكلامه، قال: لابد من الوقوف على حقيقة موقفنا.. في أوساط الناس.. لابد من أن نعرف هل الغالبية معنا أم لا..

حتى تستطيع أن تتحدث عن المستقبل وخططه..

هذه الكلمات وجدت القبول لدى سعد بينما قلل من شأنها هادي.. وسأل عن كيفية معرفة ذلك، أجابه نعمان بكل بساطة نحتك بالمجتمع.

سارع هادي بالحديث وهل تعتقد أنهم سيتحدثون إليك بكل بساطة؟ قد يعتقدون بأنك أحدهم.. أتيت تبحث عن إجابات أو معلومات..؟!

أجابه نعمان لدي طريقة، قال: ما هي؟ قال: الاحتكاك بالمصابين نتبرع بالدم؟! بهذه الطريقة هم محتاجون إلينا ونحن متطوعون..

حسنًا هذه المهمة موكلة إليك إذن.. ولكن عليك بالحذر، أوقفوا سيارتهم خارج المستشفى كان الزحام شديدًا ترجل الثلاثة.. أثناء طريقهم كانوا يرون الجموع تحمل تلك الجثث... كان هنالك طفل لم يكد يبلغ التاسعة من عمره، كان يسير أمام شيخ طاعنٍ في السن، كان الاثنان رغم فارق السن بينهما يتشاركان في البكاء المرير.... اقترب نعمان من ذلك الطفل محاولًا أن يحتضنه أن يهديه لكنه لم ينجح... اقترب منهما ذلك المسن وهو يخاطب نعمان أتركه يبكي....... لقد قتلوا أباه لم يبق له غيري أنا العاجز....... لقد قتلوا وحيدنا أنا وهذا الطفل....... كان هادي وسعد قد وقفا غير بعيد منه ليراقبا تصرفاته.. وصل إلى بوابة المستشفى.. لم يستطع الدخول بداية الأمر.. افتعل شجارًا.. مع أحد الحراس جره على أثره إلى داخل المشفى وسلمه إلى قسم الشرطة هناك.. كان هناك أحد زملائه في الكلية..

عندما شعر بابتعاد سعد وهادي عن ذلك الزجاج همس في أذنه استدع مدير المباحث.. أنا أحد العناصر أحملك المسؤولية كاملة.. اطلب مدير المشفى..

رفع ذلك الضابط السماعة وأخذ يتظاهر بالحديث ليتأكد من كل كلمة سمعها.. شيء واحد طمأنه أنه أمام رجل صادق هو نبرة نعمان.. تلك النبرة التي أعادته إلى أيام الدراسة في الكلية، قال أنت حجاب؟ قال اخفض صوتك.. حضر مدير المشفى وأبلغ بأن هناك رجلًا مصرًا على التبرع

لم يكن ليطلعه على حقيقة الامر لولا دخول أحد رجال المباحث صافح نعمان وضغط على يده، كانت تلك البداية قال: هذا الاثنان لابد من تصويرهما..

أرسل هادي سعد لينظر في أمر نعمان.. ويحاول إخراجه.. كان وصوله متأخرًا.. فتح الباب وقال: امش يا شيخ نعمان الله يجزاك خير.. ما يحتاجون لدمك؟! أكمل دوره نعمان بيديه تلك الإشارات وتلك النظرات بأن هذا لا يجوز..

التبرع بالدم صدقة ولا يجوز لهم منع الراغب مهما كانت الظروف.. تقدم مدير المشفى وقال: استغفر الله تفضل يا شيخ واصطحبا سعد..

حضر رجال المباحث في هيئة رجال إعلام وصحافة صوروا سعد وأجروا معه تلك المقابلة لكن إجاباته كانت مناقضة جدًا لما يعرفه عنه نعمان..

أخيرًا حرصوا على الانفراد بنعمان، كان مدير المباحث متنكرًا في زي طبيب جراح، قابله نعمان وأطلعه على سير الأحداث وأخبره بالنيات المستقبلية لهادي ثم خرج من المشفى هو وسعد.. تولى القيادة نعمان وأثناء إخباره لهادي عن سر سوء المقابلة لهم أخبره كيف أصبح البعض ينظر إلى الملتحين..

انبرى سعد ذلك الباحث عن الظهور قائلًا: ربما في مقابلتي الصحفية الخير لنا، وأخذ يتحدث عن تلك المقابلة

وكيف أنه صور وهو يمسح لحيته.. هنا فقط تغيرت نظرات هـادي.. طـلـب مـن نـعـمـان الـتـوجـه إلـى ذلـك الـطـريـق الصحراوي.. ثم طلب منه التوقف ليخرج من السيارة.. ظل هكذا حتى خرج إليه سعد ونعمان ففاجأهما بذلك المسدس الذي يحمله وأطلق منه رصاصتين إلى رأس سعد مباشرة ثم قام بربطه بالسيارة صارخًا في وجه نعمان طالبًا منه الصعود..

لينطلق به في ذلك المجال الدائري وهو يسحله على تلك الأرض الصلبة.. كان يعاقبه.. كان حريصًا على أن يخفي جميع ملامحه.. لينزل بعد ذلك..

ليفك ذلك الحبل وينطلق..

التفت هادي إلى نعمان وهو لايزال في دهشة من تصرفه وقال: كان من اللازم ألا يسمح بتلك المقابلة.. أصبح كرتًا محروقًا الآن.. عم الصمت الاثنين.. كان نعمان وهادي غارقين في التفكير لكن لكل منهما اتجاهه.. التفت هادي إلى نعمان وقال له:

فيم تفكر؟! أجابه نعمان بكل صراحة أصبحت أخاف منك، التفت إليه هادي وقال لا تخف شرطك نفذته لك وها أنت على اطلاع؟! وشرطي أنت ما زلت ملتزمًا به وهو السرية التامة!!

بعد يومين عثر على تلك الجثة.. كان تقرير الطب الشرعي مصادقًا لتلك التحاليل الطبية للشيخ سعد..

أخذت عينة دم من تلك الجثة كانت تحمل فيروس الإيدز..!!

تلك الليلة.. كانت هناك أسرار جديدة بدأت تتكشف لنعمان، توقف هادي بالقرب من إحدى الكبائن وأجرى عدة اتصالات بعدها بدأت رحلة تغيير السيارات ورحلة التنكر..

ليصلا أخيرًا إلى تلك الاستراحة..

كان الحضور.. وجوهًا جديدة.. من الواضح مدى أهميتهم اتضح ذلك من خلال مظهرهم.... لكنه متأكد من شيء واحد هو أنه سبق أن رأى هذه الوجوه لكن أين يا ترى؟.

بدأ الحديث.. كان ثقيلًا جدًا على نعمان.. الحديث عن الانتصار المزعوم.. ثم عن تلك المخططات.. كان الجميع متحفظين.. لكنه عرفهم على نعمان بأنه أيضًا قد أصبح مثلهم وأنه هو المسؤول عن أولئك الفتية..

هنا بدأ الحديث يأخذ منحى آخر.. أخذ يتحول إلى حديث عن لجان.. عن إدارة.. عن مسؤولين.. لهذا التنظيم.. الآن تذكر نعمان أين رأى هذه الوجوه.. لقد رآها في تلك الأوراق التي في مكتب هادي..

في الفيلا.. ترى ما الذي تخبئه الأقدار لك يانعمان من مفاجأة..

طرحوا فكرة الحج.. وكيفيته.. أهدافه.. المرجو منه..

كان الهدف من الحج.. شيئًا واحدًا هو إكمال الركن الخامس من أركان الإسلام.. الرغبة في رحمة الله.. وتطهير الذنوب.. هذا الهدف الذي يعرفه نعمان..

أما أهداف هادي وشياطينه فكانت غير ذلك، فالحج هو إحدى وسائل غسل المخ لأولئك الفتية، وهو غرس الاعتقاد لديهم بأنهم قد أكملوا دينهم وأنهم قد غفر لهم جميع ذنوبهم.. ولا يفصلهم عن الجنة غير الموت.. كان التركيز في هذه المرة على حديث واحد للرسول (صلى) وترك ما سواه.. ذلك الحديث هو (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) يريد أن يزرع في أدمغتهم فكرة واحدة وهي أنه لا يفصلهم عن الجنة إلا الموت..

يعدهم ليكونوا قنابل موقوتة.. لمهمات محدّدة.. كان الجميع سعداء بهذا التفكير معجبين بهذا العقل لهادي.. إلا نعمان.. الذي كلف بإجماع الحضور أن يتولى هذا النشاط..

طرح سؤالًا كم سيكون عدد المشاركين؟؟؟

.. جاءت الإجابة من كل معسكر.. أجابه هادي ستعرف في حينه.. وأخبر بانتهاء الاجتماع كان ذلك إذنًا بالتحول في كل شيء..

فجأة كان الجرس يقرع.. كانت النساء يدخلن وهن يحملن ما يحتجن إليه.. من خمور ومخدرات..

تحولت هذه الاستراحة إلى مكان للمجون، إلى مكان لم يره نعمان من قبل.. كان الحضور أشبه بالبهائم...

ظل نعمان يراقب وأخيرًا قرر الانزواء في تلك الزاوية من الاستراحة.. كان يفيض قهرًا وحزنًا على هؤلاء البشر..

جاءت إليه إحداهن.. كانت راغبة في جذبه إليها.. تجرأت عليه كثيرًا.. وسألته أخيراً أيمكنني مشاركتك في الحب، التفت إليها باستياء وظل صامتًا مما دفعها للقول أأنت ممن يشمون الثرى ولا يرى الثريا، كلمات فهم معناها جيدًا، فكر نعمان في نفسه.. لقد أمضى قرابة السنتين بعيدًا عن أهله.. لكنه كان حانقًا غاضبًا.. على كل ذلك السلوك.. كان بداخله حزن.. على وطنه.. لا يفكر في ذاته.. أو غرائزه.. كان تفكيره منصبًا على وطنه..

رحلت تلك المرأة وهي تتعثر في خطاها. كان ما تناولته كفيلًا بأن ينسيها ذاتها.

انشغل هادي بالإشراف على تلك الحفلة يتتبع أداء قادته فيها.. كان يريد أن يتأكد من تحقيق أهدافه.. انتبه لغياب نعمان.. وانطوائه الذي حرك حفيظته وأثار الخوف في نفسه.. تقدم إليه وسأله..خير يانعمان الجو مو مناسبك؟!

أجابه نعمان.. بأنه مشغول الفكر.. أجابه هادي دع كل شيء.. انس أمر سعد وأمر الشباب وأمر الحج.. وتعال عش يومك يا نعمان..

التفت إليه نعمان وقال له بصوت ملؤه الحسرة..

ماذا بعد الحج يا هادي..؟!!

التفت إليه هادي وقال الأمر محسوم لمصلحتنا..

القضية منتهية.. يا نعمان.. خرجت الكلمات بدون وعي من نعمان أنت ترى أن القضية منتهية لكن أنا يا هادي أرى أن القضية الآن بدأت!!

كانت تلك الكلمات كفيلة بإثارة حفيظة هادي..

ماذا تقصد يا نعمان؟! قال أخبرني الحقيقة ولو مرة واحدة يا هادي مرة واحدة؟ ما هو هدفك من كل هذا أهو من أجل قلب نظام الحكم؟!

أم هل هو للإخلال بالأمن؟!

أم هل هو للمساومة؟!

وإياك أن تقول لي إنه لأجل الدين!!

أجاب هادي بشيء من الغضب وما فائدتك من كل هذا حتى تسأل عنه؟!

أجابه نعمان ببرود.. حتى أعرف ما علي القيام به..

حيال هذه الجموع من الشباب؟ التي وليتني أمرها..

أشرق وجه هادي.. زالت شكوكه بتلك الإجابة..

كان يعتقد أن نعمان قد وصل إلى مرتبة لم يصلها أحد من قبله، رأى في سؤال نعمان حرصًا على تنظيمه.. وامتدادًا لمخططاته..

رأى فيه أشياء كثيرة.. حتى أنه قد يكون رأى فيه ذاته..

التفت إلى نعمان وقال: أخبرني يا نعمان؟ هل سبق لك أن عشت الحسرة؟ هل سبق أن عشت الحاجة؟!

هل سبق أن عشت الخوف؟!

أجابه نعمان؟! آه لا تذكرني بالماضي..؟!

صرخ هادي في نعمان؟! أنت تكذب؟!

أنت لم تعرف الذل ولا الإهانة؟

حتى في عالمك السابق؟!.. عالم المخدرات أنت لم تعش الحرمان ولا الحاجة حتى أيام يتمك كنت معززًا.. أقسى أيامك في السجن كانت عند دخولك الزنزانة.. لماذا لتأكل وتشرب وتنام؟!

أتعلم أن تلك هي الأمنية لكل المحرومين..

أتعلم أن تلك هي أكبر الأحلام التي يتمناها الخائفون؟!

أجبني هل سبق وداهمك رجال الأمن لشبهة فقط فيك؟!

أم أنهم أرادوك بإثبات عليك؟!

أسبق لك أن عشت الخوف؟! حتى في وضعك هذا هنا.. في هذه المنطقة.. مع كل ما حولك أنت واثق بأنه لن يجرؤ أحد على اقتحام هذا المكان؟!

دعني أسألك؟ أتراك يومًا اضطهدت لأجل دين أو

عرق؟! أتراك يومًا عرفت.. صرخ فيه نعمان: هادي كفى.. كفى.. تكاد أن تخرجني عن طوري..

تلك الأحقاد التي أعلنها هادي كادت أن تحرك فيه الاندفاع الذي كان يعرف عواقبه جيدًا، صمت الاثنان، شعر هادي أن تعلق نعمان واعترافه بذلك الوهم المسمى التنظيم، قد أصبح الآن أكبر من اعترافه بالحقائق.. غابا في صمت طويل..

بدأ هادي يشعر بالارتياح لما أخرجه وللنتيجة التي وصل إليها مع نعمان.. ثم نظر إلى نعمان وقال أتعرف ما سر كل هذا الذي عشته؟!

إنهما سببان لا ثالث لهما:

1 ـ الدين وعليه أركز.

2 ـ ترابط المجتمع.

هذان السببان هما اللذان يميزان هذا المجتمع، الذي لو استمر يانعمان يعني أشياء كثيرة... أشياء مخالفة حتى لسنن الكون... رغم ما قد يوجد فيه من أخطاء يعتبر نموذجًا...

لا يمكن اللحاق به... فليس هناك إلا طريق واحد وهو إعاقته لإعادته إلى ما يشابهه من مجتمعات، لن تستطيع أن تحقق ذلك يا نعمان إلا بشيء واحد وهو أن تقضي على هذين السببين...

ولتقضي عليهما لابد لك من الاختيار الجيد لكل أساليبك وكل أدواتك؟!!

لن تجد مثل أولئك الفتية لتحقق كل أهدافك............

خصوصًا إذا ساعدتهم على رسم أحلامهم......

أو حتى وعدتهم بتحقيقها... كن دائمًا أنت متنفسهم... كن أنت دائمًا الراعي لهم... كن أنت المغدق عليهم... فهم يعطون أكثر مما يأخذون...

هذه طبيعتهم... تنهد نعمان... ثم قال هل لي بسؤال هادي؟!

هل أنت مسلم؟!! ضحك هادي؟! ثم قال إذا أنت لم تفهمني ولم تسمع ما قلته لك!!!

أجابه نعمان لقد سمعت وفهمت ولكني أرغب أن أسمع منك يا شيخ هادي؟!!

كان ينطق كلمة يا شيخ هادي بشكل ساخر؟!! ضحك هادي الذي أجاب: ـ لم أكن يومًا من الأيام يا نعمان مسلمًا...

أنا لا أؤمن إلا بهذه الحياة، لا أؤمن بحياة أخرى، أنا أؤمن بشيئين فقط هما تحقيق الأهداف والسلطة والإثنان وجهان لعملة واحدة هي المال....

نعم به تستطيع أن تصنع ما تشاء... وبه تملك السلطة على من هم أقل منك، به تشتري أولًا كرامتك...

ثم إياك أن تدعي أنت الإسلام يانعمان...

أنت التزمت يوم التزمت من أجل ماذا؟!!

أليس الوظيفة التي وعدتك بها؟! أنت سكنت معي وعلمت خطري...

لماذا عدت أليس لأجل المادة؟!!

أنت ذهبت واطلعت على كل شيء... ما الذي دفعك للاستمرار إلى اليوم...

أليس طموحك في أن تحصل على ما أنعم به...

بقاؤك ذلك الأسبوع كاملًا أليس من أجل السلطة التي أصبحت تتمتع بها....

أنت يا نعمان شريكي في المعتقد... لا تحاول أن تتهرب نحن شريكان...

هنا قاطعه نعمان... قائلًا لا لسنا شريكين يا هادي من أنت ومن أنا؟!!

أنت رئيس ومنظّر التنظيم وما أنا إلا أداة في يدك... هل تعلم يا هادي بأنني أحسد سعد.. لقد مات وارتاح...

أما أنا فأحس بالتعاسة... لا حيلة لي إلا الاستمرار معك شئت ذلك أم أبيت!!!

أجابه هادي أنت مخطئ في نظرتك هذه يا نعمان هذا الحال يعيشه أولئك الفتية..؟!

الذين حتى لو طردتهم لن يتخلوا عنك!!!

هؤلاء المعتوهون أيضًا لن يتخلوا عنك؟!! أتعرف لماذا؟!

السر يكمن في إقرارهم بالفشل بدونك؟!

أتعرف يا نعمان... أنت الوحيد من بين كل من التقيتهم أعجزتني...

أنت الوحيد الذي أعجبت به... كم تمنيت لو أنك قررت الرحيل... أو الهرب أنت لا تسمح لعواطفك أن تتحكم فيك!!

هؤلاء القادة الذين تراهم كانوا يومًا مثلك من أرباب السوابق... أو من أبناء الأسر المترابطة...

لكن كانت لكل واحد منهم حاجات أترى ذلك الشاب هناك؟... كان يدرس المرحلة الثانوية... كان يخشى الفشل... كان والده شديد المحافظة عليه... استطعت الوصول إليه... نمّيت ذلك الخوف فيه... من والده والفشل...

وعدته أنه لن يعود إلى والده إلا وهو من أصحاب الملايين...!!!

وعدته وأقسمت له أن لا أدعه إلا بعد أن تتمناه كل الفتيات؟! ورطته بداية في عدة سرقات صغيرة... أنابيب غاز... أجهزة كهربائية...

نمّيت في نفسه الإحساس بذاته... له الآن معي قرابة الثلاث سنوات...

ولا يزال غارقًا بين أحلامه ومخاوفه التي كبرت، فهو يدرك أنه أصبح مطلوبًا... تكررت بصماته في أكثر من سرقة....

صدقني لا يستطيع العودة حتى لو طردته...؟!

الآخر ذلك كان أصغرهم سنًا.... كان يحفظ القرآن كاملًا دخلت عليه من زاوية الغرور.. وعدته بجزاء تحفيظ القرآن حتى أتممت مهمتي؟! وورطته مثل الأول.

وها أنت تراه الآن حتى الصلاة تركها؟!!

كلهم يا نعمان على هذه الشاكلة... ينضمون إلينا بطرق بسيطة وساذجة... لكنهم لا يستطيعون... التخلص منا إلا بشيء واحد وهو الموت...

إياك أن تعتقد أن أولئك الشباب المنتحرين لا يعرفون ما أقدموا عليه...

إنهم يعلمون لكنهم كانوا راغبين أكثر في الانفصال عنا...

كل تلك الحيل التي نفعت معهم لم تكن لتفلح معك... أتعرف السبب... إنه وضوح هدفك وسهولته....

كنت ترغب في حياة جديدة.. كنت حريصًا على العمل...

كنت مؤمنًا بمبدأ... أما هؤلاء الشباب فليس لديهم أي معنى للإيمان بمبدأ...

أتعرف أنهم عبء على التنظيم... كما ترى ينتقلون من لذة إلى أخرى...

وهم يشعرون بالأسى على ما فاتهم من أيامهم...

يفكرون في مستقبلهم في ضوء لذتهم هذه فقط... لكنهم يريدونها بحجم أكبر ...

يرغبون فيها بشكل آخر...

أنت يا نعمان الوحيد الذي يفكر في مستقبل التنظيم أنت الوحيد الذي كنت باحثًا عن أهدافه، أما البقية فقد كانوا رعاء... أينما سقتهم توجهوا كان كل منهم لديه دافعه للاستمرار في هذا التنظيم، كان كل راغبًا في إثبات نفسه وتحقيق أحلامه من خلال التنظيم... أما أنت فكنت حريصًا على التنظيم ...

لم تكن تفكر في ذاتك بل كنت تفكر للتنظيم ومن أجل التنظيم...

لكن إياك أن تعتقد أنني أفضل منك أو أنك أداة في يدي يا نعمان....

أنت وأنا نؤمن بهذا التنظيم...

مهما اختلفنا في مسمياته... أو وسائله...

لكنه هو الخيار الوحيد أمامنا... فإذا كنت أداة كما تزعم... فأنا أيضًا أداة...

عرفت الآن...؟

صمت هادي أخيرًا.... وبعد فترة سأله نعمان: لكني أريد أن أعرف شيئًا واحدًا ياهادي!

أجابه لماذا؟!! هل تبقى ما لا تعرفه؟!!

أخبرني يا هادي كيف استطعت معرفتي ومعرفة كل ماضي؟!!

أجابه بكل بساطة!!

أنت يانعمان لم تستخدم إلى الآن سلاح الدين!! أوصيك به... فهو أقوى الأشياء.

بكل بساطة ذهبت إلى إدارة الأحوال وقلت وأنا أمسح لحيتي؟!!

إن هذا الشاب راغب في الزواج؟! وأنا أراه في المسجد معنا!!

لكنني لا أعلم عن ماضيه أي شيء؟!!

والمستشار مؤتمن؟!

أنا لا أعلم عنه أي شيء... جئت أسألكم وأستشير لأعرف ماضيه؟!

بتلك الكلمات البسيطة...

استطعت أن أحصل على ماضيك كله؟!

ونصحوني بتركك لفترة اختبارًا لسلوكك ومدى صلاحه؟!

هل تعلم يا نعمان أن هذا الدين هو وسيلتي لتحقيق أي شيء...

حاول أن تجربه... سترى الفرق...

عم الصمت...

ارتفع أذان الفجر...

كان الصمت رهيبًا بين هذين الاثنين... انتهى الأذان ليغرق هادي في سبات عميق، في حين نهض نعمان ودخل الاستراحة... أغلق جهاز التسجيل... وألقى نظرة على ذلك الوضع المأسوي... كلمة واحدة نطق بها فقط... الصلاة...

كان رد الجميع عليه هو الضحك الصاخب...

صلى صلاة الفجر لوحده ثم عاد إلى المكان نفسه الذي كان فيه طوال ليلة البارحة.

استند إلى تلك النخلة التي كان ينام تحتها هادي الذي لم يستيقظ إلا من حرارة الشمس...

وجد نعمان بالقرب منه... نهض وسأل عن الساعة... أجابه بأنها العاشرة... سأله هل نمت يا نعمان.. كان يعلم الإجابة لا...

قال أنت لا ترتاح في الخمول، حسنًا خذ السيارة وعد أنت إلى السكن وابدأ الاستعداد للقيام بأعمال حملة الحج...

لم يكن نعمان مصدقًا لما سمع من هادي، لكنه

نهض ثم التفت إلى هادي وقال إلى أي شقة سوف أتوجه... قال إذا كنت راغبًا في الأمن فاذهب إلى الفيلا، وإن رغبت الترفيه فاذهب إلى آخر شقة زرناها وإن كنت راغبًا... في...

قال: قف أنا لا أعلم إلى متى سوف تستمر في سرد مواقع السكن...

أنا أبحث عن مكان هادئ وخاص لا يضايقني فيه أحد...

لأنني أريد أن أرسم خططي على مهل وفي ضوء كشوف وسجلات وتقارير...

سأل هادي كم يكفيك؟ قال حسب العدد الذي تريده...

قال حسنًا... إذًا اذهب إلى الفيلا... التفت إليه نعمان... وقال وزوجتك...

ضحك هادي وقال: هل راقتك؟!

هل تريد أن أتنازل عنها لك وأطلقها؟ قال لا، لا أريدها، أجابه هادي حسنًا سوف أتدبر أمرها ...

خرج هادي ونعمان كل منهما يستقل سيارة وذهبا إلى الفيلا، دخل هادي وطلب من نعمان اللحاق به بعد إدخال سيارته إلى ذلك الكراج...

ثم بعد ذلك دخلا الفيلا...

توجه به مباشرة إلى مكتبه ذلك، أخرج مجموعة

مفاتيح... ويبدأ يشرح لنعمان هذا مفتاح المكتب... هذا مفتاح الخزنة... هذه مفاتيح الدواليب... والأبواب...

أخيرًا اتجه إلى قسم من تلك المكتبة، أزاح مجموعة من الكتب وقام بفصل بطارية وضعها هناك... ثم اتجه نحو ذلك الباب الموصد وفتحه ثم دخل...

لحقه نعمان وصعق لما رآه، كان المكان مليئًا بالمتفجرات التي هي كفيلة بنسف المدينة بأسرها... وفي طرف تلك الغرفة كان هناك مكتب وضع عليه جهاز حاسب آلي وعدد من الشاشات...

ثم التفت إلى نعمان... قال له بصوت مخيف احذر أن يغلق هذا الباب وأنت في الداخل... لو أغلق فمعناه الموت...

كل ما تحتاج إليه سوف تجده في هذا الجهاز... لكن احذر فهو مثل هذه الحجرة به تتعلق حياتك... ثم بعد ذلك خرج من تلك الغرفة فاستوقفه نعمان قائلًا:

وهل تريدني... أن أظل داخل هذه الحجرة... قال الجهاز موجود فيها...

قال: أخرجه... أجابه هادي صعب جدًا إخراجه... نظر إليه نعمان... لماذا؟

قال: هو مثبت بأجهزة المراقبة والأمن في هذه الفيلا... أجابه نعمان... أي مراقبة... قال ألم أقل لك إن هذه الحجرة أمنك وحياتك...

كان قد قام هادي بتجهيز هذه الفيلا بكاميرات مراقبة... وأجهزة إنذار...

كانت قمة في الحيطة..

اكتشف نعمان مدى حرص هذا الرجل وهو يستعرض له بعض اللقطات للشارع..

من عدة زوايا لذلك الحوش... للمدخل... بل حتى للغرف...

عرف الآن أن هذا الجهاز لا يمل التسجيل... أدرك أنه يحتوي على كل شيء... التفت إلى هادي وقال له بكل صراحة... لا أستطيع أن أعمل هنا...

في هذه الغرفة... إما أن تخرج لي الجهاز... خارج هذه الفيلا... وإلا فناولني الأوراق... التفت إليه هادي وقال أي أوراق كل الأوراق تحرق بمجرد إدخالها هذا الجهاز....

أجابه نعمان إذن ليكن العمل مني اجتهادًا... ومنك مسامحة...

اتفقا على ذلك وخرج نعمان من المنزل... إلى تلك الشقة القديمة...

الشقة الخالية من كل شيء عدا السجادة والمصحف...

عاد إلى شقة النفاق الأولى... عاد إلى بداية الوهم...

جهز أوراقه وأقلامه وبدأ يرسم الدوائر والخطوط... لم يكن لديه أي قرار في شيء... أخيرًا قرر الاستمرار... وبدأ بوضع برنامج الحج...

لم يقطع عليه كل ذلك إلا دخول هادي وهو يحمل تلك الحقيبة...

استدعاه نعمان وطلب منه الجلوس...

قال له تعال لقد قربت على الانتهاء من هذا البرنامج... وشرحه له برمتِه ...

لم يفته في نهاية حديثه أن يقول لكن أنا لا أضمن النتائج...!!

ولا أضمن عودة كل أولئك الفتية، التفت إليه هادي وقال: ماذا؟!

صرخ هادي: كيف؟

قال: نعمان: أنا اخترت عينة عشوائية، فأنا لا أعرف سجلاتهم ولو كلفنا قواد المعسكرات بالترشيح فسيكون هناك نوع من إضمار الضغينة بينهم... وبين من لم يذهبوا... وبين الفتية وقائدهم...

لذلك عندما تأتي الأسماء من القيادة يكون الجميع شاعرًا بأهمية الأمر وأنه متابع دائمًا... كان إعجاب هادي بنعمان يزيد... لذلك قال له: لا تقلق يا نعمان هذا جهاز الحاسب الآلي الذي تحتاج إليه وفيه كل ما تحتاج إليه، لكن اسمع عند نومك يكون تحت رأسك...

في صحوتك يكون أمامك... وإياك أن تسمح لشخص بالاطلاع على ما فيه...

هل تسمع؟ ثم استأذن بالانصراف، فالتفت إليه نعمان وقال... سأخرج لتناول الغداء كانت هذه مشكلة لابد لهادي من تضخيمها، فصاح قائلًا والجهاز أجابه نعمان هو معي لا تقلق لكن هادي رد قائلًا إذن انتظر...

عاد وهو يحمل ذلك المسدس أعطاه لنعمان وقام بالتأكد من عدم إمكانية وضوحه للعيان... ثم قال له هذا المسدس تحمله معك وفي حال اضطررت لمواجهة فاعلم أن عليك أن تطلق من هذا المسدس رصاصة في هذا المكان وبعد ذلك فكر في الهرب هل هذا واضح؟!!

قال لا حاجة إلى أي تأكيد... انصرف هادي...

حمل نعمان الجهاز معه وخرج إلى ذلك المطعم...

كان إقبال ما زال ينتظر رغم طول الغياب... وضع ذلك الجهاز بالقرب منه، جلس نعمان وحضر إقبال... أخبره بأهمية إحضار فني حاسب آلي لنسخ كل ما هو موجود...

انصرف إقبال لكن قبل عودته... كان هادي قد تقاسم الطاولة مع نعمان في مفاجأة ثقيلة...

دار بينهما حوار مقتطف قبل وصول إقبال بذلك الطعام...

كان هادي يحاول الإفلات من نظرات نعمان... وقبل أن يتكلم تحدث هادي بنبرة حازمه قائلًا...

لو وصلت أي قطرة ماء إلى ذلك الجهاز بجانبك فسيصبح بلا قيمة، كان يضخم الأمر لنعمان...

قال حسنًا هل جئت لتقول ذلك؟!

التفت هادي ونعمان إلى إقبال وهو يسأل بلكنته تلك عما يرغب فيه هادي...؟!

وجود إقبال بجوارهم أثار حفيظة هادي فسارع إلى سؤاله...

ألأنت من البلد الفلاني... أجابه إقبال نعم، ثم أخذ يطلب منه طعامًا بتلك اللغة التي لم يسمعها نعمان من هادي قبل ذلك، فكان نعمان أمام مفاجأة جديدة...

كاد أن يخرج ذلك المسدس ويصوبه إلى رأس هادي... كان يعلم معنى انكشاف إقبال، الذي جاء بالمفاجأة... لقد أخذ يتحدث إلى هادي بتلك اللغة...

استأنس هادي بإقبال الذي كان يخبره أنه كثيرًا ما رأى نعمان لكن هو أول مرة يراه فيها...

ابتسم له هادي وخاطبه بتلك اللغة ليقوم مباشرة بحمل جهاز الحاسب...

حاول أن يمنعه نعمان لكن نظرة هادي كانت تبدي الموافقة، أخذ ينظر إلى إقبال وهو يخفي ذلك الجهاز تحت الطاولة المخصصة للحساب في المطعم...

ثار خوف نعمان... أترى انكشفت... أترى هادي قد علم بأمري...

وأنت يا إقبال كيف استطعت؟!!

كل هذه الأشياء كانت تمر في عقله بتلك السرعة التي كان يدير بها رأسه إلى مواجهة هادي!!

فوجئ بهادي يجلس بكل هدوء ويبتسم لنعمان... الذي كانت دهشته بالغة.

بادر نعمان... هادي من أنت؟

في كل مكان أجدك...

في المسجد... في أماكن الفسوق... تتكلم بكل الألسن... من أنت؟!

كان قد عاد إقبال إلى تلك الطاولة يحمل الطعام الذي طلبه هادي...

وضعه على الطاولة... ثم انصرف... كان القلق يعصف بنعمان...

أخيرًا... انتهيا من طعامهما... وهما بالانصراف عن الطاولة...

كان إقبال واقفًا... توجه إليه هادي وناوله ورقة من فئة المائة ريال...

كان المطعم رخيصًا... عند رغبته في إعادة الباقي نظر إليه هادي وأشار إليه أنه من نصيبه...

كان نعمان يراقب تلك الابتسامات والضحكات المبتذلة بين هادي وإقبال وهو يناوله تلك الحقيبة التي فتحها أمامه وأشار إلى جهاز الكمبيوتر...

ناول نعمان الحقيبة وأخذه بيده ليخرجا من المطعم... ويوصله إلى سيارته...

ثم استأذن منه وانصرف... تحرك نعمان... وهو غير مصدق ما حدث...

عاد إلى تلك الشقة... هناك بدأ يتفحص ذلك الجهاز ومسدسه بالقرب منه ...

كان بالفعل قد بدأ العمل... اختار مجموعة الحج...

غالبيتهم من حديثي الانضمام... وأقليتهم من قدمائهم... اطلع على كل شيء...

كان أولئك الفتية من بيئات مختلفة... وثقافات مختلفة...

قسم المجموعات إلى خمس مجموعات كل مجموعة تضم خمسة أشخاص، أربعة من عامتهم والخامس أقدمهم...

كان كل من الأربعة أولئك من معسكر... بعد صلاة العشاء خرج من المنزل..

كان يعرف أن هناك من يراقبه... وصل إلى مطعمه ذلك فاستقبله إقبال...

أخذ منه ذلك الجهاز... كان يرغب في أن يعرف ما دار بينه وبين هادي...

لولا دخول ذلك الفضولي وجلوسه بالقرب من نعمان... ليتناول عشاءه...

كان ذلك الفضولي... أكثر بكثير من ملقوف.

كانت نظراته... إلى نعمان نظرات متفحص ومتدخل في أدق خصوصيات نعمان... ما اسمك؟... أين تعمل؟... سبق لي أن رأيتك... أخيرًا ضاق نعمان به.

طلب منه الكف عن التدخل وفي هذه الأثناء... حضر إقبال... حاول فض الاشتباك لكن ذلك الزبون كان أقسى من أن يسمح له بالحديث... نهره بكل عنف... أخيرًا أحضر إقبال تلك الحقيبة... بعد طلبها نعمان منه مباشرة...

كان كل شيء مثيرًا للخوف.....

انصرف نعمان دون أن يحصل حتى على أي تلميح من إقبال... دون أن يتمكن حتى من سؤاله عما دار بينه وبين هادي...

عاد إلى مسكنه بدون عشاء...

ظل يعد خططه وبرامجه للحج... حتى فوجئ بدخول هادي عليه مع مجموعة من زبانيته لكنها وجوه جديدة هذه المرة... كانت الساعة قد اقتربت من الحادية عشرة ليلًا...

جلسوا معه... ناقشوه في خططه... في سبب إعدادها بهذا الشكل...

أبدوا إعجابهم بهذه الطريقة وتلك الأهداف... كانت لا تسير مع برنامجهم...

بل أعلى من برنامجهم... كانت صورة لأدق طرق النجاح...

أخيرًا... كانوا راغبين في الانصراف... انفرد نعمان بهادي وسأله عما دار بينه وبين إقبال... استغرب هذا السؤال الذي برره نعمان بأن سببه ذلك الطفيلي... الذي قابله... حتى العشاء لم يتناوله بسببه...

طمأنه هادي وقال... لا عليك... تستطيع أن تعتبر إقبال أحد الأعضاء الجدد...

هو من بيئة فقيرة... وأيضًا هو يعمل بصورة غير نظامية... ولديه طموح أكبر منه بكثير...

أهم شيء... أن تكون معه معطاء يا نعمان... حاول أن تأسره بكثرة عطائك له.

سأل نعمان من هؤلاء معك... فأجابه هادي إجابة مختصرة: لا يحق لك أن تعرف.

أخيرًا خرج بعد أن وعده بالعودة إليه...

كما خرج نعمان كان يشعر بالجوع ينهش فيه...

خرج وهو مصرّ على تغيير المطعم... فالوقت قد تأخر...

لكن شيئًا ما يقوده إلى هناك إلى ذلك المطعم... إلى إقبال...

عند وصوله فوجئ بالمطعم مزدحمًا... كان إقبال واقفًا خارجه...

لم يدخل الطمأنينة إلى نفسه غير تلك السيارة التابعة للدوريات الأمنية تقف أمام المطعم... جلس إلى طاولته... حضر إقبال... سأل عن طلب نعمان...

ثم همس له... قم واغسل يديك... نهض متثاقلًا وبالفعل وصل إلى المغسلة...

كان هناك من يراقب دخول الزبائن... انفرد مدير نعمان به وأخذ التفاصيل سريعًا وطلب من نعمان المحافظة على حياته بعد ذلك التقرير الشفوي الذي قدمه، لكن نعمان هذه المرة كان له طلب واحد وهو رؤية أسرته...

فقد تكون نهايته اقتربت، خصوصًا وأنه أصبح يرى مدى تورطه مع هادي... خرج نعمان... بينما انصرف مديره من حيث أتى من باب المطبخ...

عاد نعمان إلى شقته استكمل أوراق حملة الحج تلك... ثم أغلق جهازه...

ودخل في خيال حول أوهامه من إقبال كم كبر ذلك الشخص في عينيه...

كم لام نفسه على السماح لها بالشك في إقبال...

ضحك من مخاوفه تلك ثم نام...

نام وهو يحلم بذلك الوعد من مديره بلقاء أسرته.

غاب في نوم لذيذ لولا ذلك الساخر منه... إنه هادي يناديه... استيقظ لكن لم يكد يقف على قدميه حتى احتضنه بكل قوته وأخذ يبارك له...

تلك التبريكات وهذا الفرح لم يعرفه نعمان من هادي إلا في ذلك اليوم... يوم التفجير المشؤوم كان نعمان يطرد أوهامه...

كان يدافع كلمة "لا" التي حبسها داخل صدره في ذلك اليوم المشؤوم، يوم كان يرى الأخبار مع هادي، التفت إلى هادي وقال: خير ما الذي حصل؟...

كان يهزّ هادي بكل قوة... بادله الشعور هادي وقال لماذا أنت متضايق؟

لقد صدرت الموافقة على تعيينك قائدًا من القيادة هل تفهم معنى ذلك؟

أنت أول شخص تصدر الموافقة له من القيادة مباشرة يا نعمان...

أتاني الخبر قبل قليل... لم يكن بوسعي الانتظار... جلسا معًا حتى التاسعة صباحًا... كانت فرحة هادي كبيرة... مما حير نعمان أتراه صادقًا في فرحته أم هل هي فرحة مصطنعة... أخبره هادي أن أولئك الذين ناقشوا معه خطة الحج ما هم إلا اللجنة العليا.

كان اندهاش نعمان كبيرًا... كان يعتقد أنه ممسك

بالغول بكامله... لكنه أدرك الآن بأن هادي لم يكن سوى ذلك الحبل الذي يقود إلى الغول...

انصرف هادي بعد أن أكد على نعمان استكمال بقية الأوراق والعمل على أن يكون ظهوره بالمظهر الجيد... وأن يضاعف مجهوده...

أخبره بأنه قد يتغيب لمدة أسبوع... فلديه جولة تفقدية للمعسكرات وتبليغ خبر تعيينه لكل قادة المعسكرات...

فهذا القرار من الخطورة بحيث لا بد أن يبلغه بنفسه...

بينما التفت إليه نعمان وطلب منه سيارة ذات دفع رباعي!!

سأله هادي لماذا؟! قال يجب نقل المعسكرات في هذه الفترة.

نحن مقبلون على تغير نوعي وعلينا أخذ الحيطة خلال غيابك سوف أبحث عن موقع مناسب لنا...

حاول هادي التملص لكن عندما أخبره نعمان بأن هذه المخيمات لها أكثر من سنتين وبأن هذا قد يثير شكوك الفضوليين... اقتنع... وبعد ساعتين كانت تلك السيارة تقف أمام الباب... وهي مجهزة بأحدث الوسائل... وسلاح آلي... بالإضافة إلى عدد من القنابل.

كانت أوراق الملكية لهذه المركبة مزورة هذه هي الحقيقة التي لا يشك فيها نعمان أي شك...

خرج وتناول الغداء في ذلك المطعم وأخبر إقبال المستجدات وقال سوف أعود للعشاء هنا... ثم ذهب إلى شقته وأعدّ أغراضه التي كانت عبارة عن أواني طبخ... بعض الجالونات الفارغة أعدها للوقود... ملابس له، وتلك الحقيبة التي تحوي جهاز الحاسب الالي.

أخيرًا اتجه إلى المطعم وتناول عشاءه... عندما همّ بالخروج طلب إقبال الحساب وأعاد إليه بعض الأوراق المالية لكنه لمح ورقة غريبة بينها...

قرأها بسرعة... كتب فيها.. وضع في الشنطة جهاز تعقب لاسلكيًا إذا أطلق صفرة فعليك الاستمرار... وإن سكت فانتظر التعليمات منه...

انطلق إلى محطة البنزين... وملأ تلك الجالونات بالبنزين، ثم انطلق خارج المدينة ففوجئ بذلك النداء من الجهاز اللاسلكي داخل الشنطة.

خرج من السيارة وهو في وسط الصحراء خرج ليسجد شكرًا لله...

أحس أخيرًا أنه عاد كما كان... رد على ذلك الجهاز الذي أمره بالاستمرار لمسافة 60 كلم ثم التوقف.

خرج من تلك السيارة وصعد إلى سطحها وأخذ يتأمل الأفق ثم بدأ يتأمل النجوم. كأنه لأول مرة يرى السماء...

تذكر كل شيء عن النجوم، تذكر وجه والده ووالدته

وتذكر وجه حبيبته... وجه ابنه، كان يحاول تصور مدى غضبهم عليه... خصوصًا زوجته التي مضت سنتان ولم يرها، أخته أيضًا التي رزقت طفلين... ترى ماذا سيقول لهم... أي عذر سيقدم... أبوه وأمه كان واثقًا برضاهما عنه... وبدعائهما له بدوام التوفيق...

لكن عمه خالد وخالته مريم ترى بأي وجه سوف ينظر إليهم...

أما أسعد فأمره محلول فهو رفيق الطفولة ويعرف معنى المسؤولية في النظام العسكري.

لم يقطع عليه خيالاته تلك غير ذلك الهدير المتقطع...

كانت طائرة مروحية تهبط بالقرب من سيارته... خرج منها مديره حتى وصل إليه... لم يكن بمقدور نعمان أن يعرف شخصية القادم...

لولا صوته قبل أن يحتضنه وهو يسلم عليه قبل أن يستدعي أربعة من الرجال... من الطائرة ويبدأ الحديث حول مهمة نعمان في توفير المكان... بعدئذ استقل أولئك الأربعة السيارة بينما اتجه نعمان إلى الطائرة... كان جليسه هو رئيسه... يناقش مع نعمان تلك الأمور التي توصلوا إليها من ذلك الجهاز ...

أخبره بأنه متجه مع نعمان لوجود مشكلة في أحد الملفات...

كان مشفرًا بطريقة غريبة وهم بحاجة إلى فك الشفرة...

أخيرًا رتبوا معه احتياجاته في إجازته... كان رئيسه قد أحضر بعض الهدايا ليقدمها إلى أسرته... كانت مفاجأة جميلة جدًا لنعمان..

في المطار استقل نعمان سيارة... ورئيسه سيارة... فجأة ويدون مقدمات... يعود إلى حياته... يأخذ التحية من الأفراد...

يُنادى باسمه بأبي خلف...

أصبحت مدينة الرياض لا تسعه... كان طموحه أكبر من أن يحد... أكبر من الوصف...

كان يغالب أفراحه... لا يشعر بنفسه، لم يستغرب تلك السيارة المظللة الزجاج ولا حتى قصر المسافة إلى منزله...

كانت هناك توصية خاصة به... وكان حرص كبير عليه... لماذا؟!

لأنه بكل بساطة يستحق ذلك...

اتصل رئيسه بمنزله وسأل عن كل فرد وقد تولى هو بنفسه الترتيب لهذه الجمعة المباركة.

وصل إلى المنزل... كانت الأسرة كلها مجتمعة... داخل المنزل... كان الأطفال في الحوش يلعبون في بعض

الأراجيح التي وضعت لأجلهم، كان أحدهم ابنه... والآخرون لأسعد... اقترب منهم وقبلهم...

كان أبناء أسعد أشد تماسكًا من ابنه الذي انطلق في اتجاه المنزل صارخًا: يابوي يابوي الحقني... كان صوته أكبر منه... كان ذلك الموقف مضحكًا ومؤلمًا لحجاب...

خرج الجميع لاستقبال الزائر... لم يكن أحد ليعبأ بهذا الطفل... كانت دموع الجميع تجري من المعاتب والمشتاق على السواء...

كان الجميع مشتركين في شيء واحد هو الفرحة... دخل الجميع المنزل وغابوا في فرحة اللقاء...

خرج أسعد وتولى إحضار العشاء... لاحظ سلوكًا غريبًا في شارعهم ذلك، لم يعره الانتباه لكنه بدأ يشك عندما عاد وتلك السيارة واقفة هناك...

مضى أكثر من ساعة.... نام الجميع تلك الليلة باستثناء أسعد، بعد شروق الشمس ذهب إلى وحدته ففوجئ بمديره المتشدد...

ينظر إليه... ويقول له سلامات... هل أنت مريض؟ لم يكد يرد على مديره إلا وهو يقول: أسعد ارجع إلى البيت إني أعطيتك إجازة لمدة ثلاثة أيام... أسعد الآن بات مدربًا لمجموعة من الدورات، حاول الامتنان لرئيسه في العمل الذي رفض وأخبره بأن أحد المدربين سيحل مكانه....

عاد إلى المنزل ليتمتع بإجازته، لم يقض مضجعه غير تلك السيارة وأولئك الأشخاص... المرابطين في الشارع أخيرًا بدأ ذلك الطفل يألف والده... كان الجميع يتهيأ للحديث معه عن رغبتهم في أن يتقدم بطلب لإرجاعه إلى مدينتهم.

كان أسعد يعلم معاناة أخته ومقدار حبها لحجاب... هو الآخر كان حريصًا على أن يفاتحه في هذا الموضوع!!

وكذلك كان والد حنان ووالدتها يفكران في إقناعه بأخذ زوجته وابنه معه... إلى منطقة عمله... رغبة سبق أن قدمتها زوجته له في الليلة السابقة...

تذرع بالحاجة إلى النوم وغاص في بحر همومه... اليوم التالي بعد الظهر ...

وكان الجميع يتناولون الغداء وكان التوتر واضحًا على حجاب وحنان...

اعتقد أن باستطاعته خلال الأسبوع تغيير تلك الانطباعات بل كان واثقًا بذلك!!

تدخل خلف وقد كان يضع حفيده على فخذه، قائلًا: الناس إذا تجمعوا ينبسطون وأنت يا كافي!!

كانت شرعا!! تطلق تعليقاتها الساخرة من حالة ابنها...

ومن إهماله لنفسه... إذا كان هنا بهذا الشكل فكيف به هناك!!

طرحت حنان طلبها بكل جرأة وبدون أي تردد لتجد الموافقة والتأييد من قبل خلف وشرعا اللذين بدآ يطلبان منه الانتقال إلى مدينتهم.

اعتذر منها حجاب بحجة... أن المنطقة التي هو فيها هي منطقة عسكرية فقط. سألته عن سر التزامه وإطالة ذقنه... وكل هذه الانطوائية...

كان النقاش دائرًا، وفي محاولة للإحراج من خلف سأل ابنه هل أنت متزوج هناك أجنبي؟

كانت تلك الكلمة كفيلة بتحريك شعور الأنثى بالإهانة لذلك نهضت واتجهت مباشرة إلى منزل أهلها...

كانت راغبة في حل هذه الإشكالية بأي طريقة!

وخصوصًا بعد أسلوب حجاب معها الليلة الماضية

كانت دموعها تنهال عندما دخلت منزل أهلها...

لم يكن أمامها سوى أسعد الذي حكت له كل شيء، كانت قد حضرت أم أسعد وفور انتهائها خرج من ذلك الباب، ليدخل منزل عمه خلف بدون استئذان....

وليجد ما بالداخل أكبر مما هيأ نفسه له، كانوا يتحدثون عن شبابه...

وعن عذاب هذه المسكينة وشبابها... وهذا الصغير، كانوا يحدثون حجاب عن أشواقهم بغية التأثير فيه...

لكن صمته زاد من حنق أسعد الذي تدخل بكل عنف وقال:

حجاب إذا لم تكن راغبًا في أختي طلقها... لماذا هذا العضل؟

كانت كلماتهم جميعًا تنزل على رأسه مثل الصاعقة....

وخصوصًا كلام أسعد فضلًا عن الأب والأم اللذين بدآ يؤيدانه في قراره...

أخيرًا أجابهم حجاب بأنه ما زال راغبًا في زوجته... لكن هناك بعض الظروف. . . قاطعهم فجأة صوت الجرس الذي كان يرن بطريقة غريبة... وشخص ينادي بطريقة لاتنبىء بخير... حجاب... حجاب... خرج حجاب إلى الشارع.

وجد مديره الذي أخبره بضرورة الإسراع!

هناك اجتماع لابد من حضوره وبعده لابد من السفر بأسرع وقت... ناداه من جديد قبل وصوله الى الباب: حجاب... حاول أن تترك أثرًا طيبًا في زيارتك هذه.

دخل إلى المنزل بينما خرج أسعد ليستوضح الأمر...

لكنه صعق بما يسمع، ثمة برقية تستدعي حضور الضابط حجاب...

ترك مديره على الباب وعاد إلى منزل أهله... كان حجاب قد صعد إلى غرفته، جمع أغراضه بسرعة البرق، قابل أمه في الصالة ودعها وودع ابنه ثم اتجه إلى المجلس

ليسلم على والده الذي ينتظر دخول ذلك الزائر... لكن أتاه ابنه يودعه... لمح صورته وهو في الزي العسكري معلقة بجانب صورة أبيه ومن الجهة الأخرى صورة ابنه...

لم يكن الجميع ليدركوا الأمر...

لذا لحقوا بحجاب حتى وصل إلى منزل عمه خالد فسلم على خالته وأخته، كانت زوجته في الصالة طلب منها أن تدعو له، وقال لها بكل وضوح: لا تزعلي يا حنان أقسم إني أحبك ولن أحب سواك.

يجب أن أسافر الآن... كان أسعد في طرف الصالة صاح فيه إذا كنت تحبها فحس بها... ما هي لازم هي حس بابنك يا أخي... حس بأمك... حس بأبوك... يأخي خلي عندك ذوق وبطل تكذب.

قدامك أسبوع... وإلا ترى مثل ما قلت لك!

التفت إليه حجاب وقال: اسمع يا أسعد... أنا ما أدري أرجع والا لا...

لذلك لا تستعجل... لكن لي طلب واحد.... لو مت!

أتمنى أن تحرص على تحقيقه أنت لي... خلف ولدي أتمنى ألا ينطق كلمة بابا بل أن يقول وطني!

قال كلماته تلك وهو يقبل خلف الصغير... وخرج وهو يمسح دموعه..

كان أسعد ووالده يتسابقان علهما يستفهمان معنى تلك الكلمات...

ركب تلك السيارة التي أتى بها وانطلق في الطريق كانت عيناه تذرفان الدموع... إذ راح يتذكر كيف قتل سعد أمامه... يتذكر خوفه من دخول هادي بذلك المسدس...

كان يرى ويتوقع أن يكون هادي يقتاده إلى مصيدة ليقتله... وها هو يودع أهله بهذه الطريقة... ليس أمامه طريقة أخرى...

أخيرًا قاطعه رئيسه قائلًا: تم فك الشفرة ويبدو أن الاجتماع خاص بها...

شدّ على يد حجاب وقال له: كن واثقًا بالله ولا تبال... تلك الكلمات أراحته كثيرًا، وصل إلى مقر الإدارة بينما كان الجميع ينتظرون وصوله...

بعد ذلك بدأ الاجتماع...

ذلك الملف المشفّر يحتوي على عمليات سوف تستهدف البنية التحتية...

تستهدف المستشفيات... المدارس... المساجد.....

أهدافًا كثيرة وبسيطة منتشرة في كل مكان...

لا يمكن لأي جهاز أن يغطيها برمتها...

كان الهدف هو إثارة الفوضى والتخريب... أدرك حجاب معنى هذه الأهداف بالذات لأنها هي التي تحقق أهداف ذلك المدعو هادي... المدارس فيها ينتشر العلم... المستشفيات فيها الرعاية... كلها أهداف تسعى إلى عرقلة تطور المجتمع...

أعطي دوره في الحديث، كان آخرهم... ليس انتقاصًا منه... لكن اعترافًا بفضله...فهو المسؤول عن اختيار وطرح ما يراه مناسبًا للتعامل مع هذه الفئة ...

خصوصًا وأنه هو المتعامل معهم بشكل رئيسي. كما أن آراءهم لم تتفق فمجموعة منهم كانوا يرون الحرص...

وآخرون يرغبون في الوصول إلى القيادة... وآخرون حريصون على إنقاذ واسترجاع أولئك الشباب!

بدأ حجاب حديثه باستجماع أفكارهم لكنه أضاف كيف نحصل على الحكمة والاندفاع... على السرعة والتريث في خطة واحدة؟....

استمر الاجتماع لأكثر من ثمان ساعات حتى توصلوا أخيرًا إلى أمرين...

- أهمية توعية المواطن بأخطارهم.

- سرعة القضاء عليهم.

هاتان الخطوتان تحتاجان لتحقيق شيء واحد هو إظهار بعض أفرادها...

لكن من هم أولئك الأفراد؟

قام حجاب بتحديد بعض الأشخاص من خلال صورهم... كانت أسماؤهم الحقيقية موجودة... ممن كانوا يقومون بدور الاستدراج ومجموعة من هم في طور الانضمام ...

ومجموعة من القادة السابقين مثل القتيل سعد... وآخرين...

انتهى الاجتماع على هذا الاقتراح ثم سافر حجاب ليعود كما كان نعمان...

بالطريقة نفسها إلى تلك الصحراء... التقى تلك المجموعة من الأفراد...

أوصلوه إلى الأماكن المنشودة... ثم ودعهم وعاد... كان البحث مستمرًا عن أصحاب تلك الصور...

كانت صدمة كبيرة أن يكتشف مسؤول أن هناك شخصًا متغيبًا عن منزله منذ فترة طويلة دون إبلاغ من ذويه عنه ومنهم من له سنة أو سنتان ومنهم أكثر من ذلك.

بعد عودة نعمان عرج على هادي الذي استقبله بالترحيب... أخذه وانطلق به إلى ذلك المكان الجديد... كان بالفعل مكانًا جيدًا، لذلك قرر هادي سرعة نقل أحد المعسكرات إليه فبمجرد عودتهما أرسل هادي من يخبر ذلك المعسكر بالتحرك... ذهب نعمان إلى مطعمه المعهود... كانت تلك هي بداية التحرك... تمت مراقبة تحرك المعسكر وبمجرد دخولهما الطريق الرئيسي كانت كل تحركاتهما متابعة...

سمح لمجموعة تعرفت على الموقع الجديد وألقى القبض على بعضهم... كانت قافلتهم تسير بشكل متقطع... لئلا يلفتوا الأنظار إليهم... معتمدين على أجهزتهم تلك في الاتصال فيما بينهم...

سمح لهم بإرسال الإنذارات بعضهم إلى بعض... اقتيدت تلك المجموعة للتحقيق.

لكن إلقاء القبض عليهم في تلك المرحلة كان ضروريًا... كان ذلك صباحًا...

وفي تمام الساعة العاشرة مساءً كان هادي يقف على رأس نعمان ويطالبه بسرعة الرحيل.

لم يكن في تلك الشقة شيء يهم هادي أكثر من ذلك الجهاز...

سأله نعمان ما الأمر؟ أخبره بأنه لا يوجد وقت للشرح... انتقلا إلى ذلك المنزل الآخر وأخذ منه كل ما يحتاج إليه بعد أن أجبر نعمان على التنكر.

كان نعمان يسير معه بلا رؤية وتوقع... لكن المفاجأة جاءته من هادي الذي شغل جهاز المذياع وأخذا يستمعان إلى نشرة الأخبار في إحدى القنوات، كان اسم نعمان واردًا كأحد أخطر الإرهابيين مع مجموعة أسماء أخرى...

ذهبا إلى تلك الفيلا... وهناك أدار التلفاز... وأخذ يراقبه كانت صورته وصورة بعض الشباب مع الشيخ سعد الذين اختارهم واضحة لكنها قديمة شيئًا ما.

كانت زوجة همام كما ادعى تراقب الشيخ علي... كانت صامتة راح يراقب وضعها... كانت هادئة تمامًا... بل غير مبالية حتى وهي تنادي نعمان باسمه بدلًا من الشيخ علي...

كانت صورة نعمان تعود إلى تلك الصورة في بطاقته الجديدة... كان هادي يحاول معرفة طريقة الوصول إلى هذه المعلومات رغم كثرة احترازه...

وبدأ نعمان يراقب ويتأمل كل شيء حوله، كان يتفحص تلك المتفجرات لأنه كان يعرف أنها العقبة الوحيدة أمام الإمساك بهادي فهو متأكد من عدم قدرته على الانسحاب...

كان يعرف أن حقده على هذا الوطن......

أكبر من حبه لنفسه... لذلك فقد قرر تغيير طريقة تعامله مع هادي....

قال له: هادي ابحث لي عن طريقة للخروج من هذا البلد... أريد الهرب...

جاءت كلمات هادي... ردًا ساخرًا...

الآن بدأت المواجهة.... هل نسيت يا نعمان؟ أم أن جبنك بدأ في الظهور؟

صرخ فيه نعمان وقال: إذا كان هنالك خوف فهو مبرر... أنا أخاف على كل شيء أنا يا هادي أصبحت مكشوفًا...

ثم تعال لماذا أنا الذي انكشف وأنت لا؟!!

ألست أنت من جرني إلى هذه الحفرة... ضحك هادي وقال لحسن حظك أنني لم أكشف وإلا لما وجدت لك مكانًا لتستقر فيه...

من كشفك يا نعمان هم الشباب... أولئك الفتية لقد استطعت في وقت قصير أن تصل إليهم وأصبحت قدوتهم...

ترى هل الآن تقرر الانسحاب بدون حتى وداعهم؟ ثم لماذا أنت خائف؟

حافظ على هدوئك فقط... ودعنا ننتظر التوجيهات... أخرجه من ذلك المكتب وتوجه به إلى الصالة حيث كانت تنتظرهما زوجة هادي... كانت قد بدأت تعد العشاء.

أكل الجميع... ثم خرج هادي بعد أن أوصى نعمان وزوجته... بانتظاره ومتابعة الأخبار...

قبل خروجه سلّم هادي لنعمان جهازًا للتحكم وأخبره بأنه قد عدل في نظام التفجير بحيث يصبح بهذا الجهاز... أو يدويًا من الداخل...

خرج ولم يعد إلا بعد صلاة الفجر... كان لديه الكثير ليبرره... وليعيد التفكير فيه... ظل نعمان في تلك الفيلا... يستمع إلى حسرة تلك المغلوبة على أمرها..

كانت تجد لنفسها الأعذار للاستمرار بينما كانت توجه النقد والمسؤولية لنعمان...

لكنها زعمت أخيرًا بأنها ضحية تغرير مدروسة.

تلك الليلة كانت أطول الليالي على تلك الأسرتين... كانوا كعادتهم يتابعون الأخبار... فاجأتهم صورة ابنهم في الشاشات كما فاجأهم الخبر.

الآن عرف سر اختفاء حجاب خلال السنتين الأخيرتين... وضحت صورته... وتبينت أسبابه لقد باع نفسه للشيطان...

كان الجميع غارقين في موجة من الصمت الرهيب إذ كانت المفاجأة أكبر منهم، أسرة خالد بلا استثناء، كانت خائفة على خلف من تلك الصدمة... خلف الذي قام هذه المرة وسط تلك الدموع واتجه إلى ذلك المجلس أخذ يحطم تلك الصورة، يدوس صورة ابنه بقدمه، كان يردد شتائم لم يسمعها أحد منه من قبل...

ثم يسأل لماذا؟!! لماذا ياحجاب؟؟؟؟؟

ظل الجو هكذا قرابة الساعة لولا ذلك الطارق الذي كان ينتظر على الباب... فتح أسعد الباب ليجد أمامه رجلًا في العقد الرابع من عمره عرف بنفسه ثم قدم تلك البطاقة الدالة على عمله في الأمن العام وأنه راغب في مقابلة خلف ...

حاول أن يمنعه أو يصرفه لكن أمام إصراره سمح له بالدخول... ذلك الزائر الذي كلف بتهيئة هذه الأسرة لرؤية ابنها في التلفاز... بتلك الصورة... ما أن دخل وراء تلك الصورة حتى أدرك أنه قد تأخر كثيرًا،سأل عن والد حجاب... جاءه الرد سريعًا من خلف أي حجاب؟...

قال حجاب بن خلف... التفت إليه خلف وقال هذا ميت من سنين...

كانت كلماته تلك بمثابة إفراغ لما بداخله... بينما تدخل خالد محاولًا أن يفهم من أنت وماذا تريد؟

قال له أنا من الأمن العام جئت حتى... قاطعه خلف... إن كنت جئت تسأل عن رأيي فيه... فلا أقول إلا سبحان مقلّب القلوب!

أنا أعلمك بالتخلي عن هذا الضال، كان الحديث فقط من جانب خلف...

لم يدع أي فرصة لذلك الضابط... لإتمام ما جاء له... تقدم خالد وأخذ بيد ذلك الضابط وانصرف به خارجًا... أوصى خالد ابنه بأن يظل بالقرب من عمه خلف

ثم اقترب من ذلك الضابط وحاول أن يطيب خاطره

الذي سأله هل هو والده؟ قال: نعم.

التفت إليه الضابط وقال: أنت عمه.. والد زوجته أجابه خالد أنا الذي ربيته... لكن للأسف... قال له الضابط... هل لي بخدمة منك؟... قال تفضل...

قال أريدك أن تبلغ خلف وأسرته... بأهمية عدم ذكر اسمه القديم أو الاعتراف به من ظهر كان نعمان وليس حجاب...

هناك أمر مهم آخر... في حال ورود أي اتصال منه يجب تسلمه والإبلاغ عنه هل هذا واضح؟ هل هذا مفهوم؟

تلك الكلمات بالنسبة إلى خالد أثارت الخوف من

حجاب أكثر من الحرص عليه..لكنه حرص على إيصالها إلى خلف وحنان.

كانت تلك الكلمات مقدرًا لها في هذه الظروف أن تفهم خطأ، استدعى خالد ابنته حنان وسألها عن حجاب... ماذا لاحظت عليه في زيارته الأخيرة... أجابته أنه كان طوال تلك الليلة شارد الذهن... وخصوصًا بعد أن فاتحته في موضوع رغبتها في الانتقال إلى منطقته...

طيّب خاطرها أو كان يحاول ذلك... لم ينم أي واحد من تلك الأسرة حتى أطفالها... كانوا يعرفون أن حدثًا ما هو الذي قلب موازين هذه الأسرة...

لذلك عاشوا الدهشة والصدمة في حجاب...

في اليوم التالي كان خلف مع أسرته يتجه مباشرة إلى وزارة الداخلية، التقى ذلك الضابط الذي رافقه مع أسرته حتى مكتب المختص عن هذه الأسرة..... طلب منهم الجلوس لكنهم لم يمهلوه، كانوا يسردون عليه تاريخ حجاب وخصوصًا منذ عامين وأخبروه عن أدق تفاصيل تلك المقابلتين.

أخيرًا تقدم بطلب آخر وهو التبرؤ من هذا الابن... أعلن رفضه له...

أعلن أنه لم يعد يرغب في انتسابه إليه... بل طلب بأن يوضع ابن حجاب لدى جده لأمه لحضانته...

حتى شرعا كانت تعيش الرغبات نفسها...

أمه المسكينة تلك فقد أنزلت كل تلك الصور لابنها...

وحنان... كسرت تلك الصورة التي كانت تجمعها مع حجاب...

مزقت تلك الصورة العزيزة عليها في محفظتها وكانت قد كتبت أسفلها.. يا أملي!

كانت تعجبها رؤاه وأحلامه... لكنه خيب ظنها...

قدمت طلب إجازة استثنائية لأنها كانت تخشى مواجهة صديقاتها...

كانت الصورة واضحة لكل زميلاتها... لكن طلبها رفض من المديرية...

وذلك للحاجة إليها، كانت الدكتورة حنان معروفة بشدة مواظبتها... واحترامها لمهنتها، بالفعل كانت ملاك رحمة... عندما حاولت شرح أسبابها جاء الرد ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

أخوها أسعد كان نادمًا غارقًا في دوامة من الحيرة وكان شعوره بالندم لا يوصف... ندم على كل إعجاب قد منحه لحجاب...... ندم على كل عمره... ذلك العمر الذي لم يعرفه إلا بعدما عرف حجاب.

هذا حال الجميع بلا استثناء... وكانوا يشعرون بأنه خدعهم... وكانوا يقاسون الآلام... انطوت الأسرتان على نفسيهما... لشعورهما بالندم...

أخيرًا جاء فرج ذلك الهم من الله، خرج خلف وعاد وهو يحمل معه عددًا من اللوحات التي كانت كلها عبارة عن نسخة واحدة...

وضع إحداها على مدخل تلك الفيلا، وأخرى مكان صورة حجاب...

وأهدى أخرى لخالد كانت قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾

كان يشعر بأن هذه الآية تعبر عن حالهم...

في اليوم التالي فوجئ نعمان بعودة هادي فاختلى به ثم أخبره... بأن الأجهزة الأمنية سوف تحتاج إلى بعض الوقت حتى تصل إلى تلك المخيمات...

لذلك لابد من استغلال الوقت... والبدء الفوري بتنفيذ المخططات كافة...

لا يجب الانتظار أكثر لذلك مهد لاجتماع الليلة... أخذ نعمان معه...

هذه المرة... أحب هادي أن يجرب طريقة جديدة، أخفى نعمان في مؤخرة السيارة ذات الدفع الرباعي ملقيًا عليه بعض الأغطية للتمويه...

أثناء الطريق فوجئ نعمان بصوت هادي يطلب منه أن يلتزم الهدوء لأن هناك نقطة تفتيش...

كان قد اختبأ بشكل جيد، لكن كان هناك ثقب في

أحد الأغطية سمح له بإدراك ما يحيط به، كان يسمع صوت رجل الأمن... وهو يطلب الأوراق الثبوتية من هادي الذي كان قد أدار المذياع على إذاعة القرآن الكريم.

أجابه هادي بعد طول بحث بأنه قد نسي كل أوراقه في ثوبه الآخر...

كان يتحدث بلسان واثق.

قال له ذلك الشرطي: يابوي ألله يهديك أحد ينسى أوراقه. أجابه هادي بكل طمأنينة: جل من لا يسهو يا ولدي.

قال له رجل الأمن بكل أدب حسنًا بعد إذنك يجب أن أفتش السيارة...

كانت صدمة نعمان كبيرة لقد أجابه بكل برود تفضل يا ولدي...لم تكد عين نعمان تلمح ذلك الشاب وتعرفه حتى دوت تلك الكلمات منه (أشهد أن لا إله إلا الله حسبي الله ونعم الوكيل) كان الموقف سريعًا... أسرع من عودة ذلك الخائن الذي بادره بطلقتين في ظهره قبل أن يفر بسيارته تلك، نهض نعمان من تحت أغطيته وما كاد يستوي... حتى راح صوت الرصاص يعلو في كل اتجاه...

كانت تلك الدوريات وأفرادها قد راحوا يطاردونهما محاولين إيقافهما، أصيب نعمان بإحدى تلك الطلقات... كانت دماؤه تنزف... لكنه لم يكن يشعر بها...

كان غارقًا في التفكير في ذلك الشرطي في كلماته تلك خصوصًا وأنه كان أحد أفراده يومًا ما...

كان في العشرين من عمره ترك دراسته الجامعية بعد وفاة والده...

كان أكبر الأبناء... والده ترك خلفه ستة أطفال وامرأتين...

نعمان يعرف إنسانية ذلك الشاب الذي كان بالفعل في عينه شمعة تحترق لتضيء للآخرين... كان حريصًا على نقله إلى هذه المدينة تقديرًا لظروفه......

لم يخرجه من أفكاره تلك غير صراخ هادي وهو يرمي إليه بسلاح الرشاش الكلاشنكوف...

كان يعرف ما يريده منه هادي... لكنه صعب عليه بل محال، لذلك تعمد أن يعطل تلك الدوريات بالمطاردة له، كان يصوب باتجاه إطاراتها رغم أن الطلقات التي كانت تأتيه كانت تستهدف رأسه، أخيرًا أشار عليه هادي باستخدام القنابل ...

بالفعل استخدمها لكن بعد أن يحدد متى وأين يرميها.

لذلك كانت دائمًا تقع على جانبي الطريق، أشار نعمان على هادي بالخروج من هذه الشوارع المعبدة وسلوك الطرق الصحراوية حتى انتهت المطاردة.

أخيرًا وصلا إلى تلك الخيمة في الصحراء حيث كان بالقرب منها عدد من الإبل ...

طلب هادي من نعمان البقاء في السيارة... خرج إليهما راعي تلك الإبل مرحبًا بهما كعادته التي لازمته منذ أن عاشر أهل هذا البلد........

بادره هادي بالسؤال أين صاحب الإبل؟

أجابه ذلك الراعي بأنه غائب ولكن يجب عليهما أن يستريحا لتناول القهوة...

كان نعمان يراقب ماذا سيحدث؟

كان يعلم أن هادي يخطط لشيء ما، التقط عودًا من تلك الأخشاب الموضوعة بالقرب من المدخل وأهوى به على رأس ذلك المسكين...

لم يفق إلا بعد أن أصبح مقيدًا إلى ذلك العمود، أخرج هادي نعمان من السيارة... بعد أن كانت ملابسه قد تخضبت بالدماء...

كان يعلم بأن تلك الطلقة لم تصب عظمه بل اخترقت اللحم...

أخيرًا أحضر هادي بعض الطعام وشيئًا من الماء لنعمان...

ثم خرج بسرعة كبيرة... قام بفك تلك الخيمة... وأدخل تلك السيارة بداخلها.

كان نعمان قد نظر إلى الراعي وأشار عليه بالتزام الصمت وهو يتبادل معه النظرات فقط... أخفى له تلك السكين تحت أحد الأغطية... ليخلص نفسه بعد رحيلهما...

كان هادي منهكًا في نقل كل محتويات السيارة إلى تلك السيارة المعدة لذلك الراعي لحمل الماء...

أخيرًا انتهى... ذهب إلى نعمان وطالبه بالنهوض... ثم التفت إلى الراعي الذي كان ينوي قتله لولا تدخل نعمان... وقد أشار عليه بطريقة أفضل...

قال افتح تلك الحظيرة وأطلق الإبل وهو سوف يموت عطشًا...

أما إذا تركت الإبل في مربطها فسوف يأتي من يسأل عنها...

سوف يلاحظ كل جيرانه ويعلمون عنه... أعطه بعض الوقت...

دعه يعرف أننا رحيمان... ثم نهض وهو يتصنع الألم أكثر بكثير... أخيرًا استقلا تلك السيارة وانطلقا... عبرا شوارع ونقاطًا كثيرة حتى وصلا إلى تلك الاستراحة... كانت تلك المجموعة تنتظر... ومعها أيضًا تلك المجموعة التي اختبرت نعمان قبل ترقيته في التنظيم...

أدخلا تلك السيارة... اجتمع الجميع وبدأت النقاشات والمداخلات...

كانت فوضوية... كانت جميعها تدعو إلى سرعة المواجهة...

تذكر نعمان ماقد أخبره به سابقًا بأن كل شخص منهم

خائف أن يفقد ما يتمتع به من ملذات وشهوات... وحده نعمان كان رافضًا لفكرة الاستعجال، كان يتحدث عن ضرورة إيقاف النشاط... والتريث لكنهم أصروا على موقفهم...

بعد فترة... تذكروا نعمان... وإصابته... وجل ما قدموه له...

لقد ذهبوا إلى الصيدلية... أحضروا بعض الحقن المسكنة... وبعض المطهرات... وأحدهم تبرع بأن يعطيه تلك الحقنة... فهو يعرف كيفية استخدام الإبر!

بعد أن أخذ تلك الإبرة دخل في نوم عميق... لم يفق منه إلا في اليوم التالي...

كانت تلك السيارة قد أُعيد طلاؤها... وغُيّرت لوحتها...

أفاق وهو يشعر بالآلام المبرحة.... في قدمه...

نادى هادي ولكن لم يجبه أحد، كانت تلك الاستراحة خالية من كل شيء عدا تلك السيارة، عاد هادي قرابة العصر وهو يصحبه شخص جديد سلما على نعمان...

ثم راحا يتأملان نعمان... بداية كان لابد من إزالة تلك اللحية فقاما بتلك المهمة.

كما قاما بتشقير شعر رأسه حتى جعلاه يبدو أصغر بكثير من سنه...

أخيرًا قاما بتصويره ومنحاه هذه المرة صفة مقيم... أما بالنسبة إلى السيارة فكانت جميع إجراءاتها قد اكتملت.

من حيث التزوير، نعمان نفسه لم يكن ليشك في تلك الأوراق لو وقعت بيده... أخيرًا حمل هادي نعمان ووضعه في السيارة ثم خرج به بعد أن كان هو الآخر قد غير في هيئته...

أثناء الطريق أخبره بأنه قد تقرر المضي قدمًا... وتصعيد الموقف...

وبأنه سوف يتم كل شيء كما كان مخططًا له وأن عليه سرعة تنفيذ حملة الحج تلك!!!

أجابه نعمان... وأنا بهذه الحالة؟ أجابه نعم.

لابد من ذلك، اتجه به هذه المرة إلى ذلك المعسكر فلاحظ أن هنالك استعدادات جديدة... كما لاحظ ازديادًا في عدد الملتحقين...

أصبحوا أكثر من الضعف...حيث تم التجاوز عن كثير من الشروط خلال اليومين الماضيين... هذا ما أجاب به هادي على نعمان عند سؤاله...

وقال عليك أنت أيضًا أن تتجاوز عن كثير من شروطك الخاصة بالحج...

أنت الآن قائد هذا المعسكر حتى الأسبوع القادم تكون قد تعافيت تمامًا، كان يتأمل كل شيء... ثمة دعاة

جدد... محاضرات ساخنة...شيء واحد جديد هو أن التساؤل أصبح مسموحًا.

ضحك ملء صدره وحقد على هذا المجتمع من هؤلاء الفتية الحمقى والدعاة...

بعضهم لا يعرف المذهب الذي يصلي عليه وهو الآن يكفّر الآخر...

غرابة ذلك الموقف عندما روى أحد الملتحقين حديثًا نبويًا دفع بأحد الفتية الجدد إلى إثارة التساؤل حول تسامح الرسول ﷺ وحول إنسانية الصحابة فأجابه ذلك الداعية بأن ما ذكرت غير صحيح ولو افترضنا صحة ما تقول فقد كانوا وقتئذ كفارًا!

كانت إجابته تلك هي مدخله... نهض ثم قال اتق الله كيف تقول عمن أخرج الناس من الظلمات إلى النور بأنه كان كافرًا...

كان نعمان معروفًا بأنه القائد، لذلك بادر ذلك الداعية بالاعتذار واستطرد في الحديث بأنه لا يلومه فهو لا يعرف الكفر... الكفر يا بني أن لا تؤمن بالله... أن لا توحده في العبادة... وهذا ما جاء جميع الأنبياء لبيانه ...

ثم أشار عليه بأن يكمل محاضرته... كانت كلماته تلك بداية إعادة هؤلاء الفتية إلى التساؤلات ذات القيمة... ذات المعنى...

كان يراقب تأثير كلامه فيهم... اندمجت المجموعة الجديدة معه... والقديمة أيضًا... كان يعرف خطر كلامه ذلك لكنه كان لا يستطيع الاحتمال ...

بعد ذلك كان يشغل الفتية بالحكايات... كان يسترجع حكايات والده له...

تلك الحكايات التي كانت تحكي الواقع... أو تحكي ماضيهم...

كيف أن رجلًا قتل لأجل طوله... وآخر قتل لأجل شبهة...

وآخر قتل بلا سبب... كان يبين أن القتل في الماضي كان بدون معرفة حتى القتيل... ثم يختم قصته بكلمة حفظها عن يقين من والده ثم جاء ابن سعود وانتهت كل تلك الفوضى.

أخبرهم عن محدودية فكره أيام طفولته في تلك الصحراء.

كان يداعب مشاعرهم ويذكرهم بالأسرة وبالأصدقاء، ويريد منهم إعادة التفكير...

أدرك مدى متابعة هادي لكل شيء... حضر في اليوم الرابع... ليبين لنعمان خطورة ما يقوم به...

كان يعتقد أن نعمان قد أساء حساباته في تلك المسألة... قال له أريد منك أن تصوغ لهم حكايات التعذيب... حكايات الاغتصاب...

حكايات المخدرات... المعاصرة... أريدك أن تشحذ فيهم كل حقد...

ألصقهم بالمآسي بالفقر حتى الأغنياء منهم قد خيالهم إليه... اجعلهم يشعرون بأنهم كانوا فقراء قارنهم بأغنى منهم.

قارنهم بالأكثر منهم أما أن تقارنهم بمن هم دونهم أو أن تقارنهم بأجدادهم فأنت تجعل النتيجة تكون في غير صالح التنظيم...

أختلق لهم أكاذيب عن استغلال السلطة انزع الثقة في أنفسهم...

أجابه نعمان بأنه حريص على استمالة الفتية إليه وأن يكون هو مرجعهم الأول لذلك تمادى معهم.

قاطعه هادي أفضل شيء لك يا نعمان هو أن تذهب إلى الحج...

أجابه نعمان بأن أمامه ما زال قرابة الشهر... فلماذا الاستعجال؟

قال اذهب هناك يا نعمان... ادرس جغرافية المكان... ادرس طرق التواصل مع مجموعتك... ابحث لك عن مكان للجوء إليه عند الضرورة...

أخيرًا أمر هادي بتجهيز السيارة وخرج ومعه نعمان... فوجئ به يتجه إلى المدينة ويوصله إلى مقر الحافلات...

سلمه حقيبة تحتوي مبلغًا ضخمًا من المال وجواز سفر يحمل اسمه أيضًا...

ثم ناوله جهاز اتصال هاتفي يعمل عبر الأقمار الصناعية...

وقال له هذا الجهاز لا تستخدمه إلا عند الضرورة القصوى فقط...

يوجد به رقم واحد فقط... اتصل به عند الضرورة القصوى...

ذلك الراعي المسكين بعد أن خلص نفسه قام بالتوجه إلى أقرب مكان حيث كانت مجموعة من البدو الرحل قامت بإيصاله إلى أقرب مركز للأمن ليقوم بالإبلاغ...

انتقلوا معه إلى خيمته هناك حيث عثر على السيارة... كانت الدماء تملؤها... أخذت عينة منها...

أخيرًا عثر على تلك البطاقة الثبوتية، أجاب الراعي بأن الشخص المصاب هو صاحب هذه البطاقة... سألوه عن إصابته فأجابهم بأنه يعتقد أنها إصابة خطيرة ...

وأنه كان على وشك الموت...

هذا ما اعتقده الراعي...

كانت أجهزة الأمن تخشى وقوع مكروه لنعمان...

كانت تشعر بالقلق الرهيب حياله... لولا ورود تلك البرقية إلى إدارة نعمان يطلب فيها حضور مديرها للأهمية...

كانت من إحدى مديريات الأمن العام... أما نعمان فكان قد استقل إحدى سيارات الأجرة... واختار شخصًا مسنًا سائقًا لرحلته تلك...

أخذ أوراق نعمان وإنهاء خروج ذلك المسافر من تلك المدينة...

كان نعمان راغبًا في محادثة شخص بهذا السن...

كان يمكنه الوثوق بصاحب ذلك السن...

هذا الشيب في رأسه وذقنه هو من تأثير تلك السنين... وهو نتيجة حكمة جمعت داخل ذلك الرأس.. كان متحدثًا شيقًا أعاد إلى نعمان أيام والده وكان نعمان معه مثل الابن لأبيه.

منذ انطلاقهما لم يكن يحدثه إلا بكلمة يا والد...

لم يجرؤ حتى أن يسأله عن اسمه... سأله ذلك المسن عن اسمه قال له نادني يا ولدي... نظر إليه ذلك المسن وقال له أنت من مواليد هذا البلد؟!

أجابه نعمان بابتسامة... كيف عرفت؟... قال: من تصرفاتك.

لم يقطع حديثهما سوى نقطة التفتيش تلك على الطريق... طلبوا أوراقهما الثبوتية ثم طلبوا من السائق الوقوف جانبًا للتفتيش...

لفتت نظرهم تلك الحقيبة التي يحملها نعمان...

عندما نظروا إليها صدمهم المبلغ الذي يحمله... كان مبلغًا ضخمًا...

لم تفلح محاولات نعمان في الإفلات بأكاذيبه... أخيرًا كانوا على وشك تقييده عندما حضر الضابط وكان المبلغ أضخم بكثير من أن يحمل...

كانوا قد انتهوا من عده... إنه أكثر من (500 ألف) ريال كانت المهنة في الإقامة عاملًا والمبلغ لا يمكن أن يحمله حتى مدير شركة.

كانت تلك غلطة هادي...

سأل الضابط ذلك المسن عن كيفية حمله وكم المقابل...

أخبره بأنه مقابل التسعيرة الموضوعة من قبل الأجهزة الأمنية...

قال أنت موقوف واحذر أن تتحرك... كان هنالك أحد رجال الأمن قد وجه ناحيتهما فوهة رشاشه إذ كان قريبًا جدًا من نعمان... كان ذلك المسن يشعر بالقهر لوجوده مع هذا الراكب....

راح يلعن حظه في هذه المهنة، أخيرًا اقتيد هو ونعمان ولم يكن من وسيلة أمامه سوى النظر إلى نعمان والبصق عليه... بينما كان نعمان يصرخ فيه يا والد اهدا...

لكن ذلك المسن كان يقولها بأعلى صوته... مسوي نفسك أخلاق...

يالكلب... يالحرامي... حسبي الله عليك... ابن بلد هاه......

أخيرًا عند وصولهما إلى مقر الدائرة رفض الاعتراف بأي شيء وظل مصرًا على موقفه... لكنه أدرك أخيرًا أنه لن يخرج إلا بإجابات.

قال لمدير تلك الدائرة أرغب في الاتصال بالعميد جمال محمد...

ضحك الضابط قائلًا:

ومن أين تعرفه؟

قال أحمّلك أي مسؤولية تنتج عن تأخير هذه المهمة...

وهذا السائق لا علاقة له بأي شيء وأرجو منكم معاملته بكل احترام...

كان قد بدأ الشك يساور ذلك الظابط عندما نطق نعمان بذلك الاسم...

أخرج تلك الصحيفة وبدأ يدقق النظر فلاحظ الشبه بين الصورتين... أدرك نعمان ذلك فقال: سرية هذه المعلومات تعتبر مسؤوليتك...

حتى أن الشك كان يعصف برأس ذلك المدير حيال السائق...

أخيرًا وصل العميد جمال محمد ليجد نعمان في غرفة لوحده بينما ذلك السائق في غرفة أخرى...

اجتمع مع نعمان... لم يكن مصدقًا أنه لا يزال على قيد الحياة...

أخبر مديره بكل التفاصيل الجديدة... وكيف أنه أصبح شبه مكشوف خصوصًا بعد هذه الحادثة.

اجتمع رأيهما على أن يواصل ذلك السائق طريقه... ويعود شرط أن يُراقب...

لمعرفة ما إذا كان هنالك متابعة له من هادي أم لا... من ثم كان لابد لنعمان من الالتحاق بإحدى الدورات الخاصة بتفكيك المتفجرات...

حان الآن وقت القضاء على هادي... لا بد من سرعة التحرك...

وخصوصًا أنه بدأ يتصرف بدون تفكير...

رفع برقية عاجلة بتلك الاقتراحات ..وأتت الموافقة عليها...

كان مقرّ التدريب في مدينة الرياض... وكان قدره أن يعود هناك...

عرض نعمان على ذلك المدرب بعضًا من الأشكال المقاربة لتلك التي رآها داخل تلك الفيلا.

بدأ العمل، كان الشرح بإسهاب وايضاح. .

خلال ذلك الأسبوع لم يكن يشغله إلا شيئان... تدريبه ذلك... وأولئك الأطباء القائمون على علاجه من إصابته...

مع بداية الأسبوع الثاني كانت هناك تطورات تحدث في المعسكرات، نعم كانت كلمات نعمان لأولئك الشباب ومقارناته تلك قد حركت فيهم قدرة التفكير...

قدرة اتخاذ القرار... كان مصير أولئك الذين يفكرون في الانسحاب الموت... قتلهم قادة تلك المعسكرات بتهمة الردة، كان ذلك التصرف كفيلًا بأن يعرف الباقون مصيرهم... وقدرهم الذي يعده لهم هؤلاء القادة والمتسترون بلباس الدين.

أثناء تبديل الحراسة كان الوقت مناسبًا لمجموعة منهم لاتخاذ القرار...

قرروا الخروج من ذلك الوحل... والهروب من الموت...

بعضهم سلم نفسه طواعية... وبعضهم سلمه أهله...

كانوا يقدمون اعترافاتهم ويفضحون ذلك التنظيم طواعية...

كانوا قد أزالوا تلك الغشاوة من على عيونهم التي وضعها هادي وأعوانه...

كانوا راغبين في التكفير عن خطئهم... ويتمنون أن يعاقبوا أقسى عقاب...

كانوا فعلًا نادمين...

كان موقف القيادة أمام شعورهم هذا هو الموقف الإسلامي الثابت نفسه...

إعلان العفو عنهم وعن كل من يسلّم نفسه... كان هذا السلوك كافيًا... لزلزلة كل آمال وأحلام هادي... كان كفيلًا بأن يميته كمدًا وحسرة من هذا المجتمع على ترابطه وتراحمه بعضه مع بعض...

دفعه حقده هذا إلى الاتصال بنعمان... ومطالبته بسرعة العودة...

لقد تغير كل شيء، كانت هذه الكلمات هي التي بدأ بها هادي حديثه مع نعمان ...

كان يحاول أن يستدرجه في الكلام، لكنه أجابه بأن الحديث لا يصلح عبر الهاتف..

خاطبه نعمان أنت تعرف وضعي أين أجدك، مع انفعال هادي أمره بالتوجه إلى الفيلا...

وإن لم تجدني فمفتاح الغرفة تجده لدى زوجتي... قم بإغلاق جهاز الإنذار الداخلي بضغط الزر الأخضر مرة واحدة فقط...

ثم اتصل بي، سأله نعمان أين ستكون...؟

قال سوف أذهب لتجهيز بعض الذبائح... كان هادي يستخدم كلمات مثل البهائم..

للإشارة إلى الفتية في المعسكرات... الذبائح إشارة إلى الانتحاريين...

الحمير إشارة إلى من لم يصل إلى مرحلة المعسكرات...

كان نعمان يدرك مدى استهتاره بدماء أولئك الشباب...

في حديثه معه لم يكن يستخدم إلا تلك المصطلحات...

قطع تدريبه واكتفى بما تلقاه نظريًا على أن يقوم بالتطبيق العملي على أرض الواقع...

كانت أسرة خلف وأسرة خالد تعيشان في هذا الوقت مأزقًا صعبًا...

خصوصًا بعد ما شعرتا من بعض أفراد المجتمع بتجنبهما، لم يسأل أي من معارفهما الذين يعرفون حجاب عنه، لكنهم أدركوا شعور الجميع نحو ابنهم.

كان الكل يتمنى أن يسلّم نفسه... وأن يتراجع عن خطئه...

ومع ذلك ما زال أسعد يحمل ذلك الكره لحجاب خصوصًا بعد أن أعلن استسلام بعض قيادات ذلك التنظيم... فلماذا لم يقم هو بتسليم نفسه؟!

أكل هذا الحقد... يعتمر في صدره على هذا البلد؟!

والده أيضًا كان يدعو عليه وعلى جملة من أراد الشر لهذا البلد...!!

زوجته لم تملك من قاموس اللغة غير كلمة حسبي الله عليك يا حجاب...

عمته مريم وزوجها خالد كانا هما الآخران يجتران الذكريات حول ماضيهما مع حجاب، يتذكران ويسألان... رجل الأمن كيف ولماذا أصبح إرهابيًا؟!

صاحب الظرف واللطافة... كيف ولماذا؟! أصبح إرهابيًا؟!

ذلك المحافظ على وطنه!! والأنشطة الاجتماعية في حيه والافتخار بمنجزات بلده كيف ولماذا أصبح معولًا لهدمها؟!

حتى أخته المسكينة زوجة أسعد التي كانت تشارك زوجها في حقده على حجاب كانت تدعو عليه دومًا... أصبحت تتهرب من عيون الجميع...

كانت ترى في نظرات أهل زوجها... كلمة واحدة هي أخت الإرهابي!!

كانت نظراتهم إليها نظرات شفقة... وحزن عليها...

لكنها لم تكن تستطيع أن تنظر إليهم بغير احتقارهم لها..

لقد سمعت أسعد يتحدث مع والديه لأول مرة في حياته بهذه الحدة حول ضرورة تطليق أخته من حجاب مهما اختلف اسمه، زاعمًا أنه لا يشرفه أن تكون أخته على عصمة ذلك الإرهابي.

كانوا منهكين في التفكير لولا تدخل سارة التي رغبت في راحة أسعد وراحتها قائلة: أسعد طلقني!

أنا لم أعد صالحة لك أنا أخت الإرهابي، قالتها بكل مافي الهدوء من ماسأة.

لأول مرة ينظر أسعد إلى سارة على أنها أخت حجاب، باندفاع نطق بها: سارة أنت طالق...

صرخت عمتها مريم بينما نهض والده بسرعة البرق ليغلق فم أسعد بيده ويأمره بالاستعاذة من الشيطان...

انسحبت بهدوء إلى منزل أهلها... كان بكاء أبنائها عاليًا على غير عادتهم. أتراهم أدركوا معنى الطلاق في هذه السن؟!

أم خوفهم من هجوم جدهم خالد على أبيهم وإغلاق فمه!!

خرجت بهدوء..!!! كان الجميع يراقبها... خالد فقط هو المتحدث...

كان أسعد حينئذ بدأ يعي ويدرك ما تفوه به من ظلم...!!

كان يرى خروج كل بهجة في حياته... خروج السعادة معها...

كانت أمه تشاركه في تلك النظرة لذلك غرقت في بحر من البكاء والنحيب...

كانت تحتضن أولئك الأطفال وتشاركهم في الخوف والرعب من نتائج هذا الفراق ...

أجبرها منظر أحفادها على استعادة تلك الكلمات هي وزوجها خالد فإنهما كثيرًا ما سمعاها في طفولتهما حسبنا الله على من ظلمنا وظلمكم.........

قبل أن يبدأ هذا النقاش بوقت طويل، كان نعمان قد دخل تلك الفيلا... قابلته زوجة همام أو هادي في الصالة.... مستغربة حضوره لوحده...

اتجه إلى ذلك المكتب وفتح تلك الغرفة وأطفأ جهاز الإنذار المرتبط بتلك المتفجرات وعاد إلى الصالة بهدوء...

سألته عن سبب حضوره فبادرها بالسؤال عن هادي أجابته بأنه غائب منذ فترة... وأنه قد يغيب أكثر... فراح يسألها عن سبب يقينها هذا... فأجابت بكل برود: دعك من همام الآن واتبعني...

اعتذر وظل جالسًا في مكانه... التفتت إليه وقالت: لا تخف...

لن يحضر أقسم لك بذلك... ذهب إلى ذلك المكتب وراقب كل الكاميرات كان كل شيء مطمئنًا... لا وجود... لهادي...

سألها مرة أخرى لماذا؟! لم تهربين... من هذا الجحيم؟

أجابته بخبث سبق أن شرحت لك كل ظروفي... ثم إلى أين أهرب؟

وكيف أنجو... من همام... أو السلطة هنا... قدري أن أكون هنا.

عرضت نفسها على نعمان مرة أخرى... لكنه اعتذر بسبب خوفه من وصول هادي... قالت لا تخف فانه لن يحضر مبكرًا...

هذه الكلمة ذكرته بتلك الليلة عندما تركه برفقتها، أمام صمته قالت له كلمة واحدة:

لن أستعجل... أمامنا من الوقت الكثير...

فأنت مثلي لم يعد لك مكان تذهب إليه... خرجت وتركته...

كان يتابع من خلال تلك الكاميرات صعودها إلى الطابق العلوي...

رأى دخولها إلى الحمّام...

فأخرج ذلك الجهاز وقام بمخاطبة وحلته ليعلمهم ببدء تنفيذ العملية...

كانت زوجة همام قد شرعت بنزع ملابسها بينما شرع هو بالبحث عن تلك الأسلاك وتلك المنظمات للمتفجرات كان قد بدأ عمله...

كان لديه إشكالية في تلك التوصيلات التي لم يرها أثناء تدريباته ...

كان يدرك خطر المجازفة لذلك قام بواسطة ذلك

الجهاز بالاستفسار عن معضلته هذه بينما المدرب على الطرف الآخر كان متابعًا معه فشكلا ثنائيًا رائعًا بينما الخوف يلف الجميع...

نعم إن الخطأ هنا غير مقبول، ولا يمكن إصلاحه، الخطأ يعني الموت...

فاجأهم نعمان عبر جهاز اللاسلكي دون قصد منه بنطق الشهادتين... فرددها خلفه رجال الأمن أيضًا لأنهم غير بعيدين عنه........

قبل أن يُقدم على أخطر خطوة في إبطال هذه المتفجرات، شيء واحد هزه هو صوت ذلك العيار الناري الذي دوى في تلك الفيلا. أعقبه ذهول كبير من كل من سمعه سواء كان نعمان أو من كان على الطرف الآخر من الذين كانوا يكررون اسمه وينادونه.

أجابهم بأنه نفذ المهمة، قالها وهو ينهض، إلى تلك الشاشات...

كان سلاحه بيده... عندما أدار الكاميرات أدرك السر إنها زوجة همام...

انتحرت... نعم أكملت استحمامها.. لكنها عندما اقتربت من باب المكتب سمعت نعمان يتحدث عبر ذلك الجهاز... ورأته قد أمسك بصمام الأمان لتلك المتفجرات فانصرفت بكل هدوء... لتنتحر بمسدس في غرفة نومها.... قبل أن يعطي نعمان وصفًا لحقيقة الموقف في الداخل...

كان مديره المباشر يقف في ذلك المدخل ويطمئن إلى سلامته...

لم يكد ينتهي من إجابته إلا وهاتف نعمان الذي سلمه إياه هادي يرن...

كان هادي هو المتصل... أجابه نعمان بلهفة... أين أنت يا هادي؟...

فأجاب عليه بكلمة واحدة... لم ننته بعد يا نعمان... وأغلق الخط...

عُثر بالقرب من تلك الجثة على جهاز نقال من نوع جهاز نعمان نفسه... دخل رجال الأمن...صوروا تلك المتفجرات... وتلك الأجهزة التي عُرض جزء منها على المواطنين في نشرة الأخبار... كان خلف وشرعا وحنان يتابعون... تلك اللحظات ويدعون بدون علم لرجال الأمن وقادتهم بطول السلامة والنصر ...

لذلك فقد دخلت سارة المنزل بكل هدوء، قرأت تلك الآية التي أصبحت ملاذهم... وصعدت إلى غرفة أختها أو صديقتها...

كانوا قد لمحوها وهي تدخل وبعد انتهاء الأخبار... لحقتها أمها وسارة.

سألوها... عن سبب حزنها؟ لكنها لم تجب بل سألت عما كانوا يتابعون؟

أخبرتها أماها وحنان عن تلك الخطوة الاستباقية لرجال الأمن في دحر شرور الأشرار..

كانت فرحتهن كبيرة... لذلك عندما سألنها عن سبب حزنها...

قالت اختلفت أنا وأسعد وحلفت أن لا أبيت في المنزل...!!

سألتها أمها ما السبب؟ لم ترد. . فسألتها من أجل حجاب؟؟

قالت نعم.. بدأت الأم تدعو على حجاب الله يأخذ عمرك يا حجاب...

ويريح المسلمين من شرك... حتى أهلك ما سلموا منك؟!! الله لايوفقك....حسبي الله عليك كانت تدعو بكل حرقة وقد شاركتاها في الدعاء، بل بحرقة أكثر، في هذه الأثناء كان خلف ينادي ابنته حنان زوجة حجاب... والدها على الهاتف يريد مكالمتها...

كان خلف قد أغلق باب غرفته عندما وصلت حنان إلى الهاتف، سألها أبوها بلهفة: هل أخبرت سارة عمك خلف؟ قالت عن ماذا..؟

قال: أسعد طلقها، شهقت وأجابت لم تخبرني أنا ولا أمها هي الآن في غرفتي... قال ذكريها بأبنائها وأخبريها أنها ساعة شيطان...

غدًا سوف أحضر أنا وأسعد للحديث مع عمك خلف... انتهت المكالمة...

كانت صاعدة إلى حجرتها عندما التقت خالتها شرعا في الدرج، سألتها عسى خير يا بنتي...

قالت: أبوي يطمئن على سارة. أطلقت شرعا دعوتها بأن يبازك في والدها...

وتوجهت للنوم... هذا المهرب الذي أصبحوا يلجأون إليه من أفكارهم...

من أحقادهم... على حجاب ومن معه... وصلت حنان إلى سارة...

بمجرد أن جلست بجانبها حتى قبل أن تسألها... رمت برأسها على صدر حنان وأخذت في البكاء... كانت تنتحب...

لم يعد لها صوت فيسمع كانت تكابد وتكابر... كانت تشكو مأساتها...

كما كانت تضج بذلك الضغط وذلك الانكسار الواقع عليها من أخيها الإرهابي حجاب.

قالت: أسعد طلقني يا حنان... لم تقل لها أخوك طلقني، ذكرته بالاسم المجرد ولعل ما جعلها تقول ذلك هو شعورها بأن رابطة الأخوة بينها وبين حنان أكبر مما بين حنان وأخيها...

راحت حنان تسألها عن السبب... أجابتها...

ألا تعرفين السبب يا حنان؟ ألا تدركين كم فخر أسعد وكبرياؤه بهذا الوطن؟ ألا تعلمين مقدار صدمته بحجاب منذ أن أعلن أنه من قادة التنظيم الإرهابي وأسعد يتعذب أكثر من أي أحد...

أسعد يشعر أنه الوحيد الذي خانه حجاب... يشعر أنه أكبر مغفل في الكون ...

يعذب نفسه ويحاسبها لأنه لم يشعر يومًا بخطر حجاب على هذا البلد...

قبل ثلاثة أيام كان يحدثني وهو يبكي عن سر صعودهما أيام دراستهما الابتدائية إلى السطح كل يوم للمذاكرة... هل تذكرين ذلك العلم الذي ساعدهما أبي على تعليقه...

يقول أسعد إنهما كانا يتسابقان يوميًا من أجل من يمسك بتلك السارية، كان كل واحد حريصًا على أن يكون المتحدث والآخر يكرر وراءه تلك الكلمات...

تحيا المملكة العربية السعودية.. تحيا المملكة العربية السعودية . .

تحيا المملكة العربية السعودية . .

يعيش خادم الحرمين الشريفين.. يعيش خادم الحرمين الشريفين . . يعيش خادم الحرمين الشريفين . .

كان يخبرني بذلك وعيناه تفيضان بالدمع، كان يرى أن حجاب منذ تلك الأيام يخدعه... كان يشعر من خلال ذكرياته الوطنية أن حجاب كان يخدعه ويكذب عليه ...

ماذا بك يا حنان ألا تعرفين وطنية أخيك؟

ألا تذكرين ذكرياته مع حجاب حتى في الشهر الأول من زواجنا؟...

كانا يتنافسان ويتفاخران بشيء واحد وهو خدمة الوطن...

كان أسعد يرى أنه أفضل من حجاب دائمًا بطبيعة عمله...

كان يرى أنه في حال وقع أي تهديد على هذا البلد فسيكون دمه أول دم يسيل للدفاع عنه....

كان يفتخر أمامنا... دائمًا بمدى وطنيته...

ألا يحق لإنسان مثل هذا العيش مع أحلامه... وجودي في حياته يا حنان... وصمة عار بالنسبة إليه، صمتت لتستعيد أنفاسها،أنا أخته من أمه وأبيه ألعنه ليل نهار...

لقد خدعنا جميعًا يا حنان، حجاب خاننا قبل أن يخون وطنه.

كانتا تبكيان معًا... تبكيان بسبب خيانة حجاب لكل أقاربه...

بعد صلاة الفجر اتصلتا بالمستشفى الذي تعملان فيه وطلبتا إجازة اضطرارية...

نتيجة لهذه الظروف العائلية... عاد خلف من صلاة الفجر...

كان قد وجد خالد ينتظره... أخبره أنه قد يزوره حوالى الساعة التاسعة...

كان يعتقد أنه يريد أن يخرجه من عزلته تلك التي فرضها على نفسه...

رحب بالفكرة... عاد إلى منزله فوجد زوجته شرعا قد أعدت له فطوره وقهوته وكانا يتحدثان...

فجأة سألها أغرب سؤال في حياتهما...

قال لها: أين مسدسي؟

ذلك المسدس الذي لم يره منذ سنين إلا مرة واحدة يوم انتقاله إلى هذا المنزل... التفتت إليه وقالت يا الله صباح خير..

سألها عنه مرة أخرى... فأجابت بأنها لا تذكر أين وضعته آخر مرة...

كانت صادقة... فطلب منها أن تبحث عنه.... قد تأتي له حاجة...

مر الوقت ثقيلًا...

كانت حنان وسارة قد جددتا ما بداخلهما من حقد وكراهية لحجاب...

كانتا تتبادلان الهموم لولا ذلك المزعج... المدعو خلف الصغير...

أخذ يصيح مطالبًا بالفطور، كانت الساعة قد قاربت الثامنة وسيارة أسعد لم تتحرك... كان هو الآخر من كل صوب يجلد...

من أطفاله أولئك وحرمانهم من أمهم... من أبيه وأمه ولومهم وتحقيرهم له ...

كانوا يلومونه على ما ارتكب... كانوا يذكرونه بخسارته ويوضحونها له...

كان يدرك كل ذلك... أخبره والده بأن عليه أن يتوجه معه... وأن يعتذر لعمه خلف.

أخبره أن سارة إلى الآن لم تخبر أهلها... ذكر ابنه بالطلقة الرجعية... ناهيه عن تكرار ذلك... ذكره بتلك الشروط التي اشترطها عليه يوم عقد قرانه أن لا يفسد الود بينه وبين خلف.

أخيرًا جاءت الساعة التاسعة وحان موعد خالد مع خلف، ذهب خالد وأسرته بأكملها حتى أحفاده أيضًا... كان يود الاعتذار من سارة بأي طريق...

دخل أسعد وأبوه مجلس خلف... الذي نادى: هاتوا

القهوة... كان عدم دوام أسعد يعتبر خرقًا للعادة التي ألفها منه... لذلك سأله خلف خير يا أسعد وأنا أبوك ليه ما رحت لدوامك؟! كان واضحًا أنه لا يعلم شيئًا...

أجابه أسعد تعبان والله يا عمي... كان صادقًا في ذلك، لقد أتعب حجاب كل أهل البيت نفسيًا.

حجاب بعد أن أنهى مهمته تلك واتضحت جميع الصور الخاصة بهادي وهذه المرأة التي أثبتت التحاليل فيما بعد إصابتها بالإيدز، تلك الأوراق التي عثر عليها أثبتت مشاركتها لهادي في تلك الأنشطة واستغلال إصابتها بالمرض لنقله إلى كل من يسمح له هادي بالوصول إلى درجة الثقة...

كما كان يزعم يكافئه بخلوة معها... حتى يصبح سجينًا لهذا المرض...

أثبتت تلك الأوراق... أنهما عميلان أجنبيان بينما أثبتت أوراق أخرى وجود أسرار لم يكشفها هادي لنعمان...

وأشارت إلى أشياء لم يكن أحد ليعلم رموزها...

عومل الحدث وفق ما اقتضته الحاجة...

وصدرت الأوامر من القيادة بتوجيه نعمان إلى العودة إلى أسرته...

تلك الأسرة كانت مجتمعة في بيت خلف... لكن قبل أن يبدأ الحديث سمع الجرس فخرج أسعد...

يستطلع من الطارق لكنه عاد بسرعة أكبر رافعًا صوته بالترحيب...

امتلأ المجلس، كان الضيف هو الممثل الأول للأمن في هذه البلد...

كانت فرحتهم أكبر من أن يتصورها عقل... لم يدركوا سبب زيارته وحده كان يعلم بأن ذلك البطل في طريقه إليهم...

عندما هم خلف بإحضار القهوة كان حفيده قد تسلل إلى داخل المجلس...

كان ربيب جده... صرخ بكل طفولة وعفوية «أرحبوا» كان ينطق الراء لامًا...

ابتسم الجميع... أخذ يصافحهم... حتى وصل إلى ذلك المسؤول هناك... أخذه قبله أجلسه في حضنه... سأله وش اسمك يا بطل... أجابه خلف... قال على اسم جدك...

تكلم الطفل بما يعرف، قال بعد أن أشار إلى جده: هذا أبوي...

كان هناك من تقدم وأخذ تلك الدلة من خلف الذي أجلسه المسؤول بجواره وسأله هذا ولد حجاب؟

كان الطفل ملقوفًا أجاب بسرعة وحماسة... حجاب ملعون... حجاب إرهابي... كان يعبر عن مشاعر الجميع..

كان يتكلم بلسان كل أهله، التفت إليه ذلك المسؤول وقال: لا حجاب بابا وحجاب بطل... يا حبيبي ثم قبله..

كان خلف يطلق زفرة من داخل صدره ويؤكد ما قاله حفيده قال: حجاب هو خائن ولا يشرفنا انتماؤه إلينا...

زيارتك هذه هي عزائي الوحيد في مصابي به... لكن لي طلب عندك...

أريد أن أطلق زوجته منه هو لا يستحقها... أريد أن أتبرأ منه رسميًا...

أريد أن أعدمه بيدي... كانت هذه كلمات خلف...

أريد أن أصحح أخطائي في تربيته....... أنا المسؤول عن انحرافه، كنت أقول دومًا له هربت بك من الصحراء........ عالجتك............ علمتك........... أعطيتك. . . .

كنت أعتقد أنني أزرع في نفسه تقدير تعبي وجهدي، لم أذكر له الحقيقة، لم أقل له بأن من علمك ورعاك وبأن من أعطاك واحتواك هو وطنك.

كان الجميع مشدودين إلى خلف... الذي كان يتحدث وهو مطأطىء رأسه...

لولا تلك الضربة القوية على الأرض ،تلك الضربة كانت لأحد رجال الأمن الذي كان يرتدي الزى العسكري، عندئذ نهض المسؤول ولم يكد يرفع رأسه خلف حتى رأى ابنه يقف وراء مرافقه لم يتمالك نفسه خلف، أهوى بيده على وجه حجاب وهو في زيه الرسمي، كانت صفعة مدوية

هزت ذلك الصمت الرهيب... التفت إليه ذلك المسؤول وقال: لماذا؟!

تقدم ذلك المرافق وقال وهو يسترق النظره إلى خلف: العميد حجاب بن خلف، لاحظ الجميع السرور باديًا على وجه ذلك المسؤول وأولئك المرافقين ولم يكن هناك من أحد مسودّ الوجه إلا أقاربه...

اعتقدوا أنه ألقي القبض عليه... لكن عندما بدأ ذلك المسؤول بتهنئته بالسلامة ومعانقته والحديث الحار معه بدأوا يدركون أشياء...

تشعب الحديث، سأل المسؤول عن سبب حمل حجاب لرتبة نقيب بينما هو عميد، أجاب مرافقه بأن حجاب لم يعلم بهذه الترقيات... وهذه هي بدلته التي ودعها قبل ثلاث سنوات، كانت تبدو عليه واسعة بعض الشيء.

ثم قدم إلى حجاب مظروفًا وقال هذه كل أوراقه التي ودعها أيضًا ذلك اليوم ...

كانت عبارات الثناء والشكر كثيرة لكن تلك الدموع في عيني والده منعت حجاب من التفكير في أي شيء آخر، اقترب حجاب من والده ثم قبّل رأسه وحضنه.. كان محاولًا تعويض ما فاته من أبيه...

لم يتحدث أحد... التفت ذلك المسؤول إلى خلف وقال له... من كان له ولد مثل حجاب حق له أن يفخر به...

حجاب منذ رحيله عنكم وهو يواجه الموت... سائرًا معه...

لم يكن ذلك إجبارًا له بل كان رغبة منه...

رحل عنكم لأنه كان يعيش عشقًا أكبر من عشقكم... أجاب خلف هذا الوطن وحمايته هما مسؤولية الجميع...

كلنا جنود للوطن... أجابه المسؤول بأن ابنك طوال السنوات الثلاث كان هو الجندي المجهول...!!

ثم استأذن وانصرف... كان جميع من في المنزل قد اتضحت لهم الرؤية واتضحت الحقائق...

فماذا يقولون، اتخذوا لهم هذه المرة قدوة حاولوا أن يقلدوها...

اتخذوا أسعد المعروف بوطنيته... لكنه لم يقل أي شيء...

فضّل الصمت... لأنه علم أن حجاب وما قام به من دور أكبر من أن يُقدم له اعتذار، كان دوره ووطنيته أكبر من أن يُنال منهما أو يساوم عليهما...

تلك الوطنية التي جعلته يتنازل عن حقه في أن ينادي ابنه بكلمة «بابا» لينادي بدلها بكلمة أغلى منها هي وطني...

تلك الوطنية التي حركته في أول الأمر مع هادي... وظلت دومًا متيقظة ترقب أي هادي آخر...



ISBN 978-614-404-217-5



نادي الباحة الأدبي
www.adbialbaha.com